THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

DEC 20 1974

العالم الإسلامي

الجزء الأول

العرب قبل الإسلام

البعثة المحمّديّة

تأليف

عمر رضا كحّاله

الطبعة الثانية

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م

العالم الإسلامي

الجزء الأول

العرب قبل الإسلام

البعثة المحمّديّة

تأليف

عمر رضا كحّاله

الطبعة الثانية

المطبعة الهاشمية بدمشق

١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م

DS
38
.K33
1958
V.1

طبع بنفقة

المكتبة الهاشمية بدمشق لأصحابها

محمد هاشم الكتبي وشركاه

V.1

حقوق إعادة الطبع والنشر محفوظة "للمؤلف"

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

نعيد نشر كتاب العالم الاسلامي ، بعد أن مضى عليه ربع قرن ، جرت فيه حوادث جسيمة ، وأنشئت خلاله دول عربية إسلامية في كثير من بقاع الأرض ، الجديرة لأن تضاف إلى هذا السفر ، الذي ضم بين جنبيه أغلب الحكومات الإسلامية ، منذ نشأة الإسلام الى هذا العصر .

ومهدنا لذلك بذكر نبذة عن طبيعة شبه جزيرة العرب ، وخلاصة عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، ليستطيع الباحث أن يتبين سر عظمة الإسلام وباعثه محمد ﷺ .

وحرصنا على أن يكون مؤلفنا هذا ، بعد أن أضفنا اليه الدول العربية والإسلامية الحديثة ، موجزاً ، بعيداً عن الاسهاب والاطناب ، فيكون مرجعاً ، سهل المنال للمطالع ، يجد ضالته بدون عناء ونصب ، ويطلع على أكثر مايجب معرفته في تاريخ العرب والإسلام .

وبالختام نشكر المكتبة الهاشمية على ما بذلت من جهد في سبيل نشر هذا المختصر ، أدامها الله ذخراً للعلم والأدب .

دمشق في ١٣٧٧ هـ — ١٩٥٨ م

عمر رضا كحالة

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

الفصل الأول

طبيعة شبه جزيرة العرب

تقع شبه جزيرة العرب فى الجنوب الغربي من آسيا ، ويحدها من الغرب البحر الاحمر ، ومن الجنوب المحيط الهندي ، ومن الشرق بحر عمان والخليج الفارسي ، ومن الشمال العراق وشرق الاردن .

وتتميز شبه جزيرة العرب بسلسلة جبال السراة التي تبدأ من مدين وتنتهي بالبحر فتقسمها الى قسمين : شرقي وغربي ، ونظرا لقربها من الساحل الغربي فان انحدارها اليه شديد وقليل المسافة ، خلافاً للقسم الشرقي الذي ينحدر انحداراً خفيفاً وتدريجاً ، ودعي القسم الهابط عن مستوى الحجاز الى الغرب بتهامة ، وسمي القسم الشرقي منه نجداً .

وتتركب سلسلة جبال السراة من صخور رسوبية واحجار صوانية وبركانية وبها سهول واسعة الارجاء تغطيها حجارة نخرة سوداء تدعى حراراً .

ويختلف ارتفاع هذه الجبال باختلاف مواقعها ، فيبلغ في الشمال الغربي ٢٢٠٠ متر ، وفي الجنوب الغربي من ٣٠٠٠ الى ٣٥٠٠ متر .

وتنقسم جبال السراة الى سلسلات كبيرة وصغيرة ، وهي جبال غير محرجة تقريبا ، ومنظرها لا يدعو الى البهجة والحبور ، بها صخور ناتئة مظلمة ، وقمم صماء جرداء ، مختلفة الاشكال والصفات ، وتقوم على هذه القمم الشاهقة قرى جليلة ، بها بيوت مربعة الشكل ، واخرى مستديرة ، والناظر اليها يراها كانها قلاع حصينة ، محاطة غالبا من جميع جهاتها بهوى سحيقة ، كأنها فاغرة فاها لتبتلع

ما حولها . وبهذه السلسلة اودية كثيرة ، مختلفة المساحات والصفات ، تقطع هذه الجبال ، فتجعلها كأنها اشباه جزر منعزلة ، وتختلف مصاب هذه الاودية باختلاف مواقعها ، فتصب مياه الأودية الآتية من الشرق والشمال الشرقي في الجهات الغربية ، وتصب مياه الأودية الآتية من الشمال في الجهات الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وبهذه السلسلة مخازن تخزن مياه الامطار ، وتفتح عند اللزوم لري الحقول والبساتين .

وتختلف درجة الحرارة في السراة باختلاف مواقعها ، فتبلغ في المنحدرات الغربية ٣١ درجة فى شهر حزيران و٣٧ درجة فى شهر آب ، ويؤثر ضباب تهامة في حرارة السراة ، فيعدلها ، وتنخفض درجة الحرارة خلال فصل الشتاء في الجبال العليا فتبلغ الدرجة الخامسة .

ويبدأ فصل المطر فيها من منتصف حزيران حتى آخر ايلول ، وتهطل الامطار في فصل الربيع في نيسان ، وتصحب الامطار احياناً زوابع وعواصف ، كما تجمد المياه شتاء في الهضبات المرتفعة ، وقمم الجبال الشاهقة بسبب انخفاض الحرارة وهبوب الرياح الباردة .

واما الجو فى المنحدر الشرقي من السراة ، فيغلب عليه الجفاف ، ويختلف اختلافاً بيناً من حيث رطوبة الجو التي يختص بها المنحدر الغربي ، كما يمتاز المنحدر الشرقي بامطاره ، فتنهمر فى فصلين مختلفين ، تمكن سكانه بان يزرعوا خلال السنة الواحدة الحبوب والخضر والثمار الملائمة لنوعي هذين الفصلين ، وأودية هذا المنحدر خصبة ، ولا سيما الاودية التي تجري فيها المياه الغزيرة فى معظم ايام السنة ، فتجعلها تنتج كثيراً من الحبوب والثمار ، وينبت فى سلسلة جبال السراة القمح ، الشعير ، الذرة ، الحمص ، الكرسنة ، الجلبان ، البن ، العنب ، البلح ، قصب السكر ، التين ، التبغ ، البطاطا ، النباتات العطرية ، القطن ، وغيرها .

وقد علمنا مما تقدم ان السراة تقسم شبه جزيرة العرب الى قسمين : غربي ، وشرقي ، فالقسم الغربي ويدعى تهامة ، وهي سهول وهضاب تقع شرقي البحر الاحمر وغربي جبال السراة ، وتمتد من اقصى الجنوب الى منتهى خليج العقبة

فى الشمال ، وقد تقال : مضافة الى القسم الذي تحاذيه ، فيقال : تهامة البحر ، وتهامة عسير ، وتهامة الحجاز .

ويمكن تقسيم هذه المنطقة الى قسمين مختلفين : سهول ، وهضبات ، اما السهول فهي المنطقة الساحلية السهلة التي تضيق وتتسع في اماكن معروفة ، فيبلغ اتساعها في بعض الاماكن ٤٠ ميلا وهذا أقصى اتساع لها ، وقد تضيق في اماكن اخرى الى ان تصبح الهضبات القريبة من الساحل متصلة بالساحل رأسا ، وأما منطقة الهضاب والنجود فهي موازية للمنطقة الساحلية ، ويتسع الانفراج ، أو يضيق بالنسبة الى أماكنها ، ويبلغ معظم ارتفاع هذه الهضاب ٦٥٠ متراً في المملكة العربية السعودية ، و٧٠٠ متر في تهامة اليمن .

وتشتد الحرارة بتهامة ، فتبلغ في ايار وايلول من ٣٥ ــ ٤٣ درجة ، وفي نيسان الدرجة الاربعين ، وتعتدل الحرارة في الصيف ، فتختلف نسبياً بهطول الامطار ، واما في الشتاء فيختلف معدل الحرارة بين ٢٥ و٣٥ ، ولا ينخفض بالساحل في اكثر الشهور برداً عن الدرجة الرابعة عشرة ، ويدوم فصل الامطار الرئيسي بتهامة من شباط الى آذار ، ومن ايار حتى نهاية ايلول .

ولما كانت تهامة ذات حرارة شديدة وجفاف زائد ، اصبحت طبيعة الارض المجاورة للبر قاحلة تقريباً ، وأما مناطقها المجاورة للمنطقة الجبلية ، فهي ذات اودية خصبة وتصلح لزرع كثير من النباتات المعروفة في شبه جزيرة العرب كالذرة ، وقصب السكر ، وشجر النخيل ، والسمسم والقطن وغيرها .

واما القسم الواقع في شرقي جبال السراة فيسمى نجداً ويتألف من مناطق مترامية الاطراف مختلفة الاشكال والصفات ، وتمتد من سفوح جبال السراة الى الدهناء التي تفصل بينها وبين ساحل الخليج الفارسي .

وتقسم نجداً سلسلة من الجبال تسمى العارض ، تتجه من الشمال الى الجنوب بشكل مقوس تقريباً ، ثم تنقسم هذه السلسلة الى شعبتين : شعبة شرقية تتجه الى الجنوب الشرقي الى ان تغور في وسط الصحراء وتسمى العرمة ، وشعبة

غربية تمتد الى الجنوب وتغور قليلا ، ثم تظهر ثانية وتتجه فى وجهة غربية جنوبية وتسمى الطويق .

وتختلف درجة الحرارة فى المنطقة النجدية باختلاف مواقعها الطبيعية ، فتكون في الجبال شديدة الحرارة في وسط النهار ، ومحتملة في الليل وفي طرفي النهار . وتنخفض فى جبل شمر فتجعله أعدل هواء وأبرد جواً من جو البلاد النجدية الجنوبية وتقل الرطوبة فى نجد الاوسط والاعلى بدرجة كافية لتعديل اثر الجفاف . ولا تستقر درجة الحرارة على حال في النفود الكبير ، فبينما نراها صاعدة ، واذا بها تنخفض الى درجة يشعر بها الانسان ببرد ، ويغلب هطول الامطار في النفود الكبير في اواسط تشرين الثاني .

واسباب الحياة في الربع الخالي قليلة ، بل معدومة في جهاته الغربية ، وكلما اتجه الى الشرق ازدادت كمية المياه وقل عمقها في داخل الارض .

ويبدأ الساحل الشرقي لشبه جزيرة العرب من الشمال بحدود الكويت الشمالية ، وينتهي في امامة عمان ، ويحتوي هذا الساحل على مناطق هي الكويت والاحساء والبحرين وقطر .

وطبيعة تربة القسم الشمالي من خليج الكويت خصبة ، واما تربة القسم الجنوبي فبعضها رملي وبعضها طيني ، وهي على العموم مقفرة خالية من الزراعة وتتكون طبيعة ارض الاحساء الساحلية من ارض رملية ، تشبه فى تكوينها ارض التهايم فى جهة الساحل الغربي لشبه جزيرة العرب .

والقسم الاكبر من ارض امارة الاحساء سهل صحراوي ، يرتفع فى الجهة الغربية عن ساحل البحر ، كما ترتفع الارض فى القسم الداخلي ، وتوجد بها تلال وأودية .

وتقع امارة البحرين على محاذاة شاطىء الاحساء الشرقي ، وهي مجموعة جزر غزيرة المياه ، تحتوي على عدد كبير من الينابيع ، فجعلتها خصبة ينبت فيها كثير من الاشجار المثمرة والخضر ، ويختلف الجو بالبحرين ، فيكون فى قرب السواحل والمناطق القابلة للزراعة حاراً رطباً وموبوءاً بالحميات .

وطبيعة ارض ساحل شبه جزيرة قطر وعرة وقاحلة تقريباً ، وتتألف من تراب كلسي ممزوج برمل وحصى ، وعلى مسافة اميال من ساحلها مستنقعات وهضبات قليلة الارتفاع ، تتألف من رمل وطين • وتقوم في الجهة الاخرى من شبه الجزيرة هضبات رملية ، ينبت فيها بعض الخضر ، وبها بعض العيون المائية ، والجو بها جاف جداً وغير صحي •

وتنقسم طبيعة ارض عُمان الى قسمين : تهامة ، ومنطقة جبلية ، ففي تهامة عمان سهل واسع يدعى البطينة ، وهو خصب تكثر فيه اشجار النخيل والموز والرمان وغيرها ، ويزرع فيه كثير من انواع الحبوب •

واما القسم الجنوبي لشبه جزيرة العرب ، فيتألف من جنوب عمان ومهرة وحضرموت وعدن والمحميات التسع ، فأما طبيعة ارض مهرة فرملية ، تتألف من سهول تمتد على ساحل بحر العرب ، ومن سلاسل جبلية ، ويقع على حدودها وادي مسيلة الغني بالمياه وفيه اشجار من النخيل •

وتتألف حضرموت من جبال صخرية جرداء ، تشقها أودية فسيحة منبسطة ، ويتكون الاقليم القريب من الساحل البحري من سلاسل جبلية ، احتفرت الانهار لنفسها أودية اتصلت بالبحر ، ويتألف هذا الاقليم غالباً من تلال ومنحدرات جرداء ، مكونة رؤوساً فيها طبقات من الرواسب النهرية ، وعلى امتداد أودية حضرموت تأخذ المزارع مساحات واسعة من الارض تزرع بها الحبوب ، وبحضرموت نهر حجر وعيون مياه غزيرة فى جبالها ، ويشتد الجفاف فى كثير من أوديتها كما ترتفع درجة الحرارة صيفاً ويشتد البرد فيها شتاء ، وعلى العموم فجو حضرموت جاف وملائم لشروط الصحة •

وتختلف طبيعة بقاع عدن والنواحي التسع المحمية ، فتتألف من سهول وهضبات وأودية ، وتنقسم الى قسمين : قاحلة كعدن وبلاد العوالق السفلى ، وخصبة كلحج ومقاطعة الحواشب وبلاد يافع التي فيها عيون غزيرة المياه وقنى تجري فيها السيول وبها كثير من الاشجار المثمرة ، ويزرع فيها كثير من الحبوب المعروفة في شبه جزيرة العرب ، واما جو هذه المناطق فيغلب عليها جو بلاد خط الاستواء •

وتنقسم ارض اليمن الى منطقة سهول ، وتسمى تهامة ، ومنطقة جبال ، اما تهامة فتشتمل على شاطىء البحر الاحمر وبعض الجزر ، وتمتد في سهل شديد الحرارة ، وهذه المنطقة اقل مناطق اليمن خصباً ، واما المنطقة الجبلية فتشتمل على ما يزيد عن ثلاثة ارباع مساحة اليمن العامة ، وهذه المناطق عبارة عن سلسلة السراة ، او سلسلة الحجاز الآتية من الشمال ، والحرارة فيها معتدلة .

ويتكون الحجاز من مناطق طبيعية مختلفة ، وهي المنطقة الساحلية ، وتدعى تهامة ، والمنطقة الجبلية وهي مرتفعة ، والمنطقة النجدية ، وهي تقع بين جبال مرتفعة جداً في الشمال ، وفي الحجاز واحات خصبة متفرقة هنا وهناك . وأما حرارة الحجاز فتختلف باختلاف المناطق ، وامطاره قليلة وغير كافية لري أرضه ، غير انه في بعض مناطقه تسيل فيها السيول ، وتنبع فيها ينابيع كمنطقة الطائف ، ووادي فاطمة ، والأودية التي تقع بين مكة والمدينة .

الفصل الثاني

العرب

أصلهم

أصبح اليوم درس اللغات وسيلة تضمن تقرير اصل الشعوب ولما درست اللغة العربية درساً علمياً وقوبلت بغيرها من اللغات العبرانية والآشورية والبابلية والفنيقية ، تبين ان جميع هذه اللغات قريبة الشبه واصلها واحد • ومما ساعد ايضاً على اثبات قرابتهم مع تلك الشعوب طبائع خلقهم كلون شعرهم الفاحم ولحاهم الكثة وكمود لونهم وغيرها من الوثائق الفيلولوجية والأنثروبولوجية التي ساعدت علماء درس الانسان لان يجعلوا العرب من الشعوب السامية •

قال غوستاف لوبون (G. Le Bon) قضى العرب كغيرهم من الشعوب زمناً قبل التاريخ ، ومن البقايا التي عثر عليها الجلوجيون في طبقات الارض تثبت بان جميع الشعوب التي عاشت في العصر الحجري قريبة الشبه (١)

ومن درس اللغات ومقارنتها والرجوع الى اصولها يظن ان المناطق الواسعة التي تقع ما بين النهرين والقوقاز وجنوبي بلاد العرب كانت تقطنها أمم واحدة تتكلم لغة واحدة أي اللغة السامية ولهذا اعتبر العربي نسيب العبراني والسرياني والآشوري والكلداني •

واختلف في موطن الساميين الاصلي فرأى أصحاب التوراة أن مهد الانسان في ما بين النهرين ومنه تفرق في الارض فاشتق من الساميين الآشوريون والبابليون في العراق والاراميون في الشام والفنيقيون على شواطىء سورية والعبرانيون في

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون G. Le Bon-La civilisation des arabes

فلسطين والعرب في جزيرة العرب والآثيوبيون في الحبشة ، ومرجعهم في اثبات ذلك الى أقوال التوراة .

وقال سالت وريتر : ان مهد الساميين الحبشة . وذهبت طائفة أخرى وفي مقدمتها سبرنجر وشريدر وونكلر وروبرتسن الى أن مهد الساميين جزيرة العرب ومنها تفرقوا في الارض . وذهب اغنازيوجويدي الى ان مهد الساميين في جنوبي الفرات [1] .

ومهما يكن من اختلاف أقوال الباحثين في تعيين مهد الساميين الأصلي فأن الأمم التي تفرقت منه كانت تتكلم عند تفرقها لغة واحدة أي اللغة السامية الاصلية ثم تغيرت تلك اللغة حسب الاقاليم وعلى مقتضى ناموس الارتقاء وتباعدت الفاظها وتراكيبها .

* * *

أنسابهم

اعتاد النسابون ان يقسموا العرب الى ثلاثة اقسام : بائدة وعاربة ومستعربة . قال ابو الفداء : وقد قسم المؤرخون العرب الى ثلاثة أقسام : بائدة وعاربة ومستعربة . اما البائدة فهم العرب الأول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد وثمود وجوهم الاولى وكانت على عهد عاد فبادوا ودرست أخبارهم ، واما جرهم الثانية فهم من ولد قحطان وبهم اتصل اسماعيل بن ابراهيم ولم يبق من ذكر العرب البائدة الا القليل على ما نذكره الآن ، واما العرب العاربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان ، واما العرب المستعربة فهم ولد اسماعيل بن ابراهيم [2] .

ويتفرع من قحطان ابي اليمانيين شعبان عظيمان شعب حمير وشعب كهلان .

ويتفرع من حمير التبابعة ملوك اليمن . وقضاعة التي كانت تملك بلاد الشحر . وبنو كلب الذين نزلوا قديماً شمالي الشام . وجهينة وكانت منازلها

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

(٢) تاريخ ابي الفداء .

بأطراف الحجاز الشمالي • وبنو سليح وكان لهم بادية الشام فغلبهم عليها ملوك غسان ، وبنو نهد ، وبنو عذرة ، وبنو شعبان •

ويتفرع من شعب كهلان فروع كثيرة أشهرها الازدوطيء ومذحج وهمدان وكندة ومراد وانمار • فمن قبائل الأزد الغساسنة ملوك الشام • والأوس والخزرج سكان يثرب • وخزاعة التي تسلطت على مكة قبل قريش • واما طيء فهي قبائل نزلت نجد الحجاز فى جبلي أجا وسلمى وهما المعروفان الآن بجبل شمر ، ومن بطونها نبهان وسلامان وهنى وسدوس • واما مذحج وهمدان فكان أغلبهم يسكن اليمن ، والى مذحج تنسب بطون خولان وجنب وأود • وأما كندة فقد حكمت حضرموت ومدت سلطانها على بني اسد في اليمامة ومن بطونها السكون • واما بنو مراد فبلادهم الى جانب زيد من جبال اليمن • ولأنمار فرعان هما بجيلة وخثعم ، وبجيلة كان لها اثر كبير فى فتوح العراق فى عهد عمر • وأما القبائل المنتسبة الى عمرو بن سبا فهي لخم وينسب اليها بنو الدار والمناذرة ملوك الحيرة الذين أسسوا ملك الحيرة على الفرات •

ويقول النسابون ان شعب عدنان ينتهي نسبه الى اسمعيل بن ابراهيم الذي قدم مكة وساكن جرهم وصاهرهم ولم تزل ابناء اسمعيل بمكة تتناسل هناك حتى كان منه عدنان وولده نزار • وولد لنزار أربعة : اياد وانمار وربيعة ومضر وهذان الاخيران هما اللذان كثرت بطونهما •

فأشهر قبائل مضر قيس واليها تنسب قبائل هوازن وسليم ، وكانا يسكنان الجزء الغربي من نجد والى قيس ينسب بنو غطفان ومن غطفان ذبيان وعبس ابنا بغيض واشجع بن ريث وغني بن اعصر • وتشعبت من مضر أيضاً بطون الياس ابن مضر فأشهرها تميم بن مر وهذيل بن مدركة وبنو أسد بن خزيمة وبطون كنانة ابن خزيمة ومن كنانة قريش وهم اولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة • وقد انقسمت قريش الى قبائل شتى اشهرها جمح وسهم ابني هصيص بن كعب وعدي ابن كعب ومخزوم بن يقظة بن مرة وتيم بن مرة وزهرة بن كلاب وعبد الدار ابن قصي واسد بن عبد العزى بن قصي وعبد مناف بن قصي • وكان من عبد مناف

اربع فصائل عبد شمس ونوفل وعبد المطلب وهاشم وبيت هاشم هو الذي كان منه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم (ص) .

واما ربيعة فأشهر قبائلها أسد وكانوا يسكنون شمالي وادي الرمة . ووائل وهي تنقسم الى بكر وتغلب وقد كانت بينهما حروب طويلة عقب قتل كليب كادت تفني القبيلتين جميعاً والى بكر بن وائل ينتسب بنو حنيفة اليمامة . وقد كان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قروناً طويلة ادى الى أن ربيعة غالباً كانت تتحالف مع اليمنيين لمقاتلة المضريين .

على أن هذه الأنساب لا تزال مجالاً للشك الكبير . قال احمد امين : وقد عني المؤرخون بنسب القبائل وتفرعها والفوا فيها الكتب الكثيرة ولكن هذه الانساب في مجموعها كانت ولا تزال مجالاً للشك الكبير « سئل مالك عن الرجل رفع نسبه الى آدم فكره ذلك وقال من أين يعلم ذلك ؟ فقيل له فالى اسماعيل فأنكر ذلك وقال من يخبره به ؟ (١) »

ومهما يكن من صحة هذه الأنساب أو عدم صحتها فان هناك فوارق حقيقية بين سكان الجنوب وسكان الشمال فانهم مختلفون فى اللغة .

فلغة اليمن كانت تخالف لغة الحجاز في أوضاعها وتصاريفها ، وكانت لغة اليمن اكثر اتصالاً باللغة الحبشية والاكّادية . ولغة الحجاز اكثر اتصالاً باللغة العبرية والنبطية .

وجملة القول انهم مختلفون في كثير من مظاهر الحياة والثقافة العقلية تبعاً للوسط ونوع الاختلاط الذي اختلطوا به . فقد امتزج العرب ولا سيما حضرهم منذ أقدم عصور التاريخ بشعوب وقبائل مختلفة لوجودهم يومئذ بين اعظم الامم حضارة وعمراناً فكان لمصر علاقات تجارية بساحل جنوبي شبه الجزيرة وكانوا يبتاعون من العرب الاحجار الثمينة والعاج والروائح العطرية التي كانوا يستوردون بعضها من الهند وافريقية . ذكر موري (Maury) ان لشعوب افريقية الشرقية

---

(١) فجر الاسلام لاحمد أمين .

علاقات قديمة بشبه جزيرة العرب فكان البربر وغيرهم يمرون ببلاد العرب قاصدين العراق [1] .

امتزاجهم بالأمم

اختلط العرب بالفينيقيين والكلدانيين واليونان والرومان والفرس والمهريين والعبرانيين والحبشة والزنج الخ ــ من الشعوب والقبائل بعوامل الهجرة والجوار والغزو والتجارة وغيرها من العوامل التي تعمل في تحويل البشر من هيأة الى هيأة .

فلا غرو اذن ان نجد العرب مزيجاً من اروعة امم جمة وخصوصاً بعد ان دانوا بدين الاسلام وفتحوا البلاد ودانت لهم وغنموا الغنائم وفيها الأموال والنساء فتزوجوا وتسروا بهن ما استطاعوا . والحج عامل قوي في تغيير سحناتهم فيجتمع فيه عدد كبير من المسلمين على اختلاف عناصرهم من مصريين وسوريين وهنديين وفارسيين وزنجيين وحبشيين ومراكشيين وجزائريين الخ .

وجملة القول ان امتزاج العرب المتحضرة بكثير من الشعوب جعلهم يختلفون مادة ومعنى ، واصبح عرب مكة غير عرب نجد وعرب عُمان غير عرب اليمن وعرب سورية غير عرب مصر وعرب العراق غير عرب الأندلس ومراكش والجزائر وتونس .

* * *

بدوهم

واما سكان البادية فأنهم ابعد الناس عن الامتزاج بغيرهم من الشعوب لأنهم لا يزالون تقريباً عائشين كما وصفتهم التوراة وهيرودوتس بعيدين عن أهل الحضارة ناظرين اليهم نظر ازدراء واحتقار .

وتقسم شعوب العرب الى قسمين رئيسين : البدو والحضر ، اما البدو فهم قبائل تقرب من الامم المتوحشة لا مدنية ، ولا تاريخ لهم لكي يستطلع الباحث أخبارهم والمظنون أنهم لا يزالون كما كانوا من قبل ٣٠٠٠ عام كل قبيلة تنقاد لرئيس يطلق عليه شيخ القبيلة أو سيدها .

---

(١) المعلمة الكبرى مادة عرب . La Grande encyclopédie. art. Arabie

والبدو لا يعرفون غالباً الا الغزوات والغارات ورعي قطعان الابل والغنم والمعز ويقدسون الحرية والاستقلال تقديساً جعلهم يحتقرون سكان المدن ويعدونهم ارقاء لحضارتهم ، وأكبر دليل على تمجيدهم للحرية هو عدم استطاعة الفاتحين اخضاعهم لسلطانهم كاليونان والرومان والفرس وغيرهم من الامم التي بسطت سلطانها على العالم .

ويؤكد ديودور ان بدو جزيرة العرب (العربية الصخرية) فد حرموا على انفسهم ان يزرعوا القمح ويغرسوا الاشجار المثمرة وان يبنوا مساكن لانهم يعتبرون ذلك مقيداً لحريتهم ووبالاً على استقلالهم [1] .

ولما كانوا لا يبيحون لأنفسهم ان يشتغلوا بأسباب المعاش اصبحوا غزاة يغزون الامم المتحضرة وجيراناً مخيفين للحضريين يخافون شن غاراتهم ويحسبونهم قطاع طـرق .

وقارن غوستاف لوبون بين غزوات البدو والاستعمار الاوربي فقال : ان غزو البدو للقوافل أشبه شيء بالاوربيين الذين يصبون على بعض المدن القنابل الجهنمية طمعاً بفتحها والاستيلاء على خيراتها . [2]

وبغرائزهم الاستقلالية وحبهم للحرب وشن الغارات كانوا محاربين اشداء فى جيش النبي (ص) وخلفائه فقاتلوا تحت لوائه مقاتلة الابطال حتى استتب لهم فتح العالم بسرعة تدعو الى العجب .

وباندماج البدو فى جيش المسلمين الذي يضم العلماء والادباء والفنانين وغيرهم استحالت حالهم أي ظلوا خاضعين لغرائزهم الاصلية مع تغيير أشكالها مثلاً ، فطبيعة الغزو والسلب تحولت الى الاستماتة فى سبيل الفتوحات ، وفطرتهم التي تقدس الكرم وتجله ولدت فيهم اخلاق الشهامة .

قال زابوروريسكي (Zaborouriski) : ان البدو قد حافظوا على ارومتهم من أن يعبث بها الاختلاط منذ عصر التوراة على اختلاف بلادهم من مصريـين

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون . G.Le Bon - La civilisation des arabes

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون . G. Le Bon-La civilisation des Arabes

وسوريين وعرب فانهم يعيشون قبائل تحت رئاسة شيوخهم • ومن طبائعهم الغزو والضيافة والحرية والقسوة وعزة النفس والشهامة والصبر على كثير من الآلام التي تنتاب بني الانسان ولقسوتهم يحبون الانتقام ولا يبالون بالحرب اذا وقعت لانها صارت من طبعهم • ويكمنون للمسافرين لسلب قوافلهم ولكنهم يفعلون ذلك بلطف وشهامة • وحوادث الطلاق عندهم قليلة • ويحترمون النساء • ومن عادات النساء أن يمشين وراء الرجال في الحروب والملاحم لتشجيعهم [1] •

وقال كارل بروكلمان : البدوي كائن فردي النزعة ، مفرط الانانية ، قبل كل شيء ، ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن اطار القبيلة فى الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية الدموية ، فالبدوي ملزم بأن ينصر أخاه فى الملمات وليس له أن يتساءل أهو ظالم أم مظلوم [2] •

ولا ننكر ان السلطات العربية السعودية قد ضربت بيد من حديد على أيدي السالبين وقطاع الطرق فأقلعوا مؤقتاً عن سلب القوافل والاشخاص ما دامت السلطات تعاقبهم شر عقاب أو تسترضيهم بالمال والهبات والا سرعان ما ينقلبون الى غرائزهم الاصلية فيسلبون ويغزون •

* * *

حضرهم

واما الحضر فيختلفون باختلاف الوسط والشعوب التي امتزجوا بها ، فحضر شبه الجزيرة قد امتزجوا بأمم مختلفة كالزنوج والعبرانيين والفنيقيين وغيرهم •

وللوسط عامل قوي فى اختلافهم ، فتجد سكان نجد خلاف سكان اليمن وسكان عمان غير سكان الحجاز من حيث اخلاقهم واطوارهم ومعاشهم الخ •

واختلف الباحثون فى طبيعتهم فتكلم بالكراف (Palgrave) معجباً بهم وشرع ينفي عنهم كثيراً من التهم التي ألصقت بهم ابتغاء الحط من كرامتهم قائلاً لا يصعب علينا أن نجد فى شبه الجزيرة أناساً يؤهلهم استعدادهم الفطري اذا أخرج

---

(١) المعلمة الكبرى مادة عرب . La grande encyclopédie, art. Arabie

(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان .

الى حيز العمل أن يكتشفوا ويخترعوا ويصنعوا الآلات ويمددوا السكك الحديدية لانهم من خيرة الاجناس البشرية فى العالم ولم الق بهذا التقريظ جزافاً الا بعد أن جبت كثيراً من بلاد الجزيرة واطلعت بنفسي على اخلاقهم واستعدادهم المدني [١] .

وقال زابوروريسكي : ان الجنس العربي مجمع عليه بأنه من أشرف الاجناس البشرية ونحن معجبون كغيرنا من الباحثين بعظمته وسمو استعداده كعزة النفس وغيرها [٢] .

وجاء فى المعلمة البريطانية ما خلاصته : ان العرب من أشرف أجناس العالم ، فالعربي تام التركيب الطبيعي ، سالم الاعضاء الحاسة ، فائق الذكاء مع استعداد مناسب لطبيعة عمله [٣] .

وقال كارل بروكلمان : وسكان شبه الجزيرة (العرب) هم الممثلون الرئيسيون لما دعاه اوليفي فيشر الجنس الشرقي الذي يمتاز بالرأس الطويل والوجه الضيق والانف الاقنى وبنتوء مؤخرة الجمجمة نتوءاً شديداً كما يمتاز بالقامة المربوعة والبنية المهزولة دائماً [٤] .

وقال ابن رشيق : العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم كفضل اللسان على اليد الخ [٥] .

وقال الآلوسي : ان العرب لما كانوا أتم الناس عقولاً وأحلاماً ، وأطلقهم ألسنة وأوفرهم افهاما ، استتبع ذلك لهم كل فضيلة وأورثهم كل منقبة جليلة فان العقل المشرق فى الانسان يحصل عنه العلم والمعرفة والدراية والحكمة والذكاء والذهن والفهم والفطنة وجودة الخاطر والفهم والتخيل والبداهة والكيس والخير واصابة الظن والفراسة والزكانة والكهانة والعرافة والالهام ودقة النظر والرأي

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون . G. Le Bon - La civilisation des Arabes

(٢) المعلمة الكبرى مادة عرب . La grande encyclopédie - Art. Arabie

(٣) المعلمة البريطانية مادة عرب . Encyclopœdia britannica - Art. Arabs

(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان .

(٥) العمدة لابن رشيق .

والتدبير وصحة الفكر وجودة الذكر والحفظ والبلاغة والفصاحة وسائر الاخلاق المحمودة والاعمال الممدوحة [1] .

وقال ابن خلدون : ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط وذلك أنهم بطبيعة التوحش فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ــ الى أن قال : واما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لآكلهم يرددون عليهم الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى أن يصبح اهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الايدي وانحراف السياسة الى أن ينقرض عمرانهم .

وقال أيضاً : ان العرب اذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقاً وجبلةً وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له الخ .

وقال فى محل آخر : ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك والسبب فى ذلك انهم أكثر بداوة من سائر الامم وأبعد مجالاً فى القفر واغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لايلافهم ذلك وللتوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالباً للعصبية التي بها فكان مضطراً الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم ، وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السائس وازعاً بالقهر والا لم تستقم سياسته الخ [2] .

ويقول أوليري (O'leary) ان العربي الذي يعد مثلاً أو نموذجاً ، مادي ينظر الى الاشياء نظرة مادية وضيعة ولا يقومها الا بحسب ما تنتج من نفع يتملك الطمع مشاعره وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف لا يميل كثيراً الى دين

---

(١) بلوغ الارب للآلوسي ج ١ .

(٢) المقدمة لأبن خلدون .

ولا يكترث بشيء الا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة وحتى ليتوقع منه سيد قبيلته وقائده فى الحروب الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ولو كان صديقاً حميماً له من قبل من أحسن اليه كان موضع نقمته لان الاحسان يثير فيه شعوراً بالخضوع وضعف المنزلة وان عليه واجباً لمن أحسن ، يقول لامانس « ان العربي نموذج الديمقراطية » ولكنها ديمقراطية مبالغ فيها الى حد بعيد وان ثورته على كل سلطة تحاول ان تحدد من حريته ولو كانت فى مصلحته هي السر الذي يفسر لنا سلسلة الجرائم والخيانات التي شغلت أكبر جزء فى تاريخ العرب ، وجهل هذا السر هو الذي قاد الاوربيين فى ايامنا هذه الى كثير من الاخطاء وحملهم كثيراً من الضحايا كان يمكنهم الاستغناء عنها ، وصعوبة قيادة العرب وعدم خضوعهم للسلطة هي التي تحول بينهم وبين سيرهم فى سبيل الحضارة الغربية ، ويبلغ حب العربي لحريته مبلغاً كبيراً حتى اذا حاولت ان تحدها أو تنقص من أطرافها هاج كأنه وحش فى قفص وثار ثورة جنونية لتحطيم اغلاله والعودة الى حريته ، ولكن العربي من ناحية أخرى مخلص مطيع لتقاليد قبيلته ، كريم يؤدي واجبات الضيافة والمحالفة فى الحروب كما يؤدي واجبات الصداقة مخلصاً فى ادائها حسب ما رسمه العرف ــ وعلى العموم فالذي يظهر لي أن هذه الصفات والخصائص أقرب ان تعد صفات وخصائص لهذا الطور من النشوء الاجتماعي عامة من أن تعد صفات خاصة لشعب معين حتى اذا قر العرب وعاشوا عيشة زراعية مثلاً تعدلت هذه العقلية (١) .

لا جرم أن القاريء يجد أقوالاً متضاربة فبعضهم يقدسون العرب تقديساً لا يليق بجنس البشر كالآلوسي وابن رشيق ، وبعضهم قال عنهم انهم نهابون سلابون متوحشون لا يتغلبون على أوطان الا أسرع اليها الخراب ، وانهم أبعد الامم عن سياسة الملك ، وانهم ماديون لا عواطف لهم ولا خيال يثورون على كل شكل من أشكال السلطة الخ من الأقوال التي قال بها ابن خلدون واوليري .

---

(١) فجر الاسلام لأحمد امين .

والخلاصة ان كلا قول الفريقين لا يخلو من النقص والغلو فاما القائلون بتمجيد العرب وتنزيههم عن كل عيب فهذا قول لا ينطبق على قواعد العلم الحديث لان كل شعب فيه حسنات وعيوب وهو خاضع لكل نقد علمي فى عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل امة أخرى .

واما أصحاب الرأي الثاني الذي غمط حق العرب فهو غالباً مبني على كرههم بدافع الشعوبية أو نقص في درسهم وتقرير احوالهم ، فكان يجدر بهذا الفريق ان يفرق بين عرب البادية وعرب المدن فيبين لكل من القسمين اخلاقه وعاداته وأطواره واستعداداته الطبيعية لأنها تختلف كما علمنا سابقاً اختلافاً كلياً ، فالمطالع لأقوال ابن خلدون يجدها لا تفرق بين حضر العرب وبدوهم بدون ان تعين دوراً من أدوار حياتهم بل تشمل زمن الجاهلية والاسلام مع ان كل دور قضاه العرب يختلف نوعه وشكله باختلاف العوامل الاجتماعية التي عملت فى كيانهم .

اخطأ ابن خلدون بقوله ان العرب اذا تغلبوا على أوطان اسرع اليها الخراب لأن التاريخ بين ايدينا شاهد عدل يشهد بالعمران الذي قام به العرب فى اقطار المعمور وان كان الباحث فى شك فلينظر الى آثاره الباقية اطلالها الى يومنا هذا .

واما قوله ان العرب أبعد الامم عن سياسة الملك فيدحضه عدلهم الذي شهدته الآفاق فاستطاعوا به أن يقبضوا على ناصية الامم ويدخلوا كثيراً من بلاد البسيطة بدون حرب ، فأقاموا العدل فيها بدل الظلم وساسوها سياسة رشيدة تمكنوا بها لان يهيئوا لشعوبها أسباب التقدم العقلي والمادي .

والمطالع لاقوال أوليري يجدها تصف العرب بالمادية والطمع ، وانهم لا يميلون كثيراً الى التدين مما ينافي ما يروى لنا في كتب الادب من حكايات الكرم والوفاء وبذل النفس عن سماحة

وأما نصرتهم للدين وشغفهم به فثابت ، فقد فادوا في سبيل دعوة النبي (ص) بارواحهم وأموالهم ابتغاء نصرة دين الله مما لا يتأتى الا لقوم عبدوا الله حق عبادته .

واما قوله « ان العربي ضعيف الخيال جامد العواطف » فقد أكثر العرب القول

في الفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز وكل هذا لا يصدر عن عواطف جامدة .

وحاصل القول يمكننا ان نصف العربي انه تام التركيب الطبيعي يميز عن غيره غالباً بطول القامة مع نحافة في الجسم ، بيضي الجمجمة ، طويل الوجه ، ابيض اللون اذا لم يتعرض الى الجو فيصبح نحاسي اللون ، أسود العينين والشعر ، مستقيم الوجه مع ارتفاع قليل ، اقنى الانف ، صغير الفم ،رقيق الشفتين ، صغير الاذنين ، سالم الاعضاء الحاسة ، ذكي ، عصبي المزاج ، عزيز النفس ، يهيج اذا جرحت كرامته أو انتهكت حرمة قومه ، واذا اهتاج اسرع الى السيف واحتكم اليه وصارت الحرب نظامهم المألوف ، يميل الى الحرية ، يحب المساواة ، يشعر في اعماق نفسه بأنه من دم ممتاز .

الفصل الثالث

تاريخ العرب

قبل الاسلام

مصادر هذا التاريخ

كان يشاع بين كثير من الناس ان العرب قبل الاسلام قبائل بدوية لا مقر لها منقطعة عن الامم المتحضرة لا تتصل بغيرها بادنى اتصال ، والحق ان هذه الفكرة خاطئة وان العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً وان لهم حضارة كتب عنها كثير من باحثي هذا العصر بعد أن جازفوا بأنفسهم وأموالهم .

زار همبريتش (W. F. Hemprich) وبوطا ، وتاميزية (M. O. Tamisier) واهرنبرغ (C. G. Ehrenberg) ، تهامة والعسير عام ١٨٢٥ .

وزار يوسف هاليفي (J. Halévy) ـ ١٨٦٩ وادوارد غلازر (E. Galaser) ـ ١٨٩٠ ، لجوف ومأرب .

وزار كروطندو C. Cruttendu) وولستيد (J. R. Wellsted) حضرموت ـ ١٨٣٥ وزار وريد (A. Von wred) ، ودوان (W. Duwan) ـ ١٨٤٣ وهيريتش (Hirich) مسقط ـ ١٨٩٣ .

وزار نيوبر فى طريقه الى الهند (مسقط) ، وقدم عمان ميل (S. B. Miles) ـ ١٨٧٦

وزار بوركهارد (Burckhardt) ١٨١٤ . والسير ريشارد (Richard) الحجاز .

وزار نجد وشمال الجزيرة سادليه (G. F. Sadlier) ووالين (G. A. Wallin) وبالكراف ـ ١٨٦٢ وشارل دوغتي (C. Doughty) ـ ١٨٧٥ . وهوبر (C. Huber)

١٨٨٣ وغيرهم ممن زاروا بقاع الجزيرة وبحثوا عنها ابحاثاً متنوعة من جغرافية وتاريخية واثرية واجتماعية وادبية عادت على العلم بالنفع العميم .

ومصادر تاريخ العرب قبل الاسلام تقسم الى قسمين : مدونة فى الكتب أو منقوشة على الآثار ، فالمدونة في الكتب اما العربية أو غير عربية والمصادر المنقوشة اما في داخل الجزيرة كاليمن والحجاز أو في خارجها كبابل وآشور ومصر وفينيقية. فأقدم المصادر العربية من الكتب القرآن فقد جاء فيه ذكر بعض القبائل البائدة كعاد وثمود وبعض أخبار ملوك اليمن كسيل العرم وغيره ، واذا قرأت تلك الاخبار فيه لا تجد فيها شيئاً من المبالغات التي وصلت الينا من كتب التاريخ بل تجد ما ذكره القرآن صحيحاً تؤيده الاكتشافات الحديثة ، ثم يليه سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري ومروج الذهب والعقد الفريد والاغاني وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون .

ويعد من المصادر العربية أيضاً أشعار الجاهلية المجموعة فى مثل حماسة ابي تمام وجمهرة ابي زيد وطبقات ابن قتيبة ومجمع الأمثال للميداني الخ .

واقدم المصادر غير العربية لذلك التاريخ التوراة ويلي التوراة تاريخ هيرودتس وما كتبه استرابون وبلنيوس وبريبلوس وبطليموس وغيرهم .

ومن المصادر المنقوشة في بلاد العرب آثار اليمن وحضرموت وآثار شمالي شبه الجزيرة ، ومن المصادر المنقوشة خارج شبه الجزيرة آثار بابل وآشور وفينيقية .

ما برحت الادوار التي تعاقبت على تاريخ العرب القديم فيها شيء من الغموض ولا سيما العرب البائدة كعاد وثمود وطسم وجديس والعمالقة واميم وعبيل وعبد ضخم وجرهم وحضرموت وحضورا .

وجل ما حلت الآثار القديمة من مبهمات أخبارهم انه جاء في النقوش البابلية القديمة ذكر العمالقة باسم ملوك (mclukh) ، وذكر دولة معين باسم معنيوم (manium) وذلك في الالف الثالث ق.م.

واما المصادر الكتابية فلا تخول الباحث لأن يخرج للناس تاريخاً علمياً لأنها لا تزال مبهمة ومتناقضة في كثير من مناحيها بالرغم من جهود المنقبين في الآثارالقديمة الذين استطاعوا أن يكشفوا النقاب عن كثير من تلك المبهمات وحققوا بها جزءاً كبيراً من هذا التاريخ ، ولا تزال الآمال معقودة عليهم فيما يكتشفون من الآثار عسى أن تكلل اعمالهم بالنجاح فيستطيع المؤرخون أن يكتبوا لتلك الأمة تاريخاً يتناسب مع معارف هذا العصر .

تاريخ العرب قبل الاسلام

« والمؤرخون العرب »

العرب البائدة

ذكر ابن خلدون : اما عاد فهم بنو عاد بن عوص بن ارم بن سام فكانت مواطنهم الاولى بأحقاف الرمل بين اليمن وعُمان الى حضرموت والشحر .

وقال المسعودي ان الذي ملك بعد عاد شداد وهو الذي سار فى الممالك واستولى على كثير من بلاد الشام والهند والعراق .

وذكر ابن سعيد في أخبار القبط ان شداداً حارب بعضاً من القبط وغلب على أسافل مصر ونزل الاسكندرية ، وبنى بها حينئذ مدينة مذكورة في التوراة يقال لها أون ثم هلك فى حروبهم وجمع القبط اخوانهم من البربر والسودان واخرجوا العرب من ملك مصر ، ولم يزل ملكهم الى أن غلبهم عليه يعرب بن قحطان واعتصموا بجبال حضرموت الى ان انقرضوا .

واما عبيل فهم اخوان عاد بن عوص فيما قاله الكلبي واخوان عوص بن ارم فيما قاله الطبري وكانت ديارهم بالحجفة بين مكة والمدينة .

واما عبد ضخم بن ارم فكانوا يسكنون الطائف وهلكوا فيمن هلك من ذلك الجيـــل .

وا ما ثمود فهم بنو ثمود بن كاثر بن ارم فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال [1] .

قال المسعودي : كان ملك ثمود بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الحبشي

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

وديارهم بفج الناقة وبيوتهم منحوتة فى الجبال وذلك فى طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادي القرى . [1]

واما جديس وطسم فعند ابن الكلبى ان جديساً لارم بن سام وديارهم اليمامة وهم اخوان لثمود بن كاثر وان طسماً للاوذ بن سام وديارهم البحرين ، وعند الطبري أن طسماً وجديساً كانوا من ساكني اليمامة وهي اذ ذاك من اخصب البلاد واعمرها واكثرها خيراً وحدائق وقصوراً وكان عليهم ملك من طسم ظلوم غشوم لا ينهاه شيء عن هواه يقال له عملوق [2] .

واما العمالقة فهم بنو عمليق بن لاوذ ، قال الطبري : عمليق ابو العمالقة كلهم امم تفرقت فى البلاد فكان أهل المشرق وأهل عمان البحرين وأهل الحجاز منهم وكانت الفراعنة بمصر منهم وكانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون منهم الخ .

وقال الجرجاني : من ثم ملك العماليق مصر الخ .

وقال ابن خلدون : اما أخبار العرب بالعراق في الجيل الاول وهم العرب العاربة فلم يصل الينا تفاصيلها وشرح حالها الا ان قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق .

واما أميم فهم اخوان عملاق بن لاوذ وكانت ديارهم فيما يقال ارض فارس .

واما حضورا فكانت ديارهم بالرس وكانوا عبدة اوثان وبعث اليهم نبي منهم اسمه شعيب بن ذي مهرع فكذبوه وهلكوا كما هلك غيرهم من الامم .

واما حضرموت فمعدودون من العرب العاربة لقرب ازمانهم وليسوا من العرب البائدة لانهم باقون في القرون المتأخرة الا ان يقال ان جمهورهم قد ذهب من بعد عصورهم الاولى واندرجوا في كندة وصاروا من عدادهم فهم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا .

واما جرهم فقال ابن سعيد : انهم امتان امة على عهد عاد وامة من ولد جرهم ابن قحطان ولما ملك يعرب بن قحطان اليمن ملك اخوه جرهم الحجاز الخ [3] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ .
(٢) تاريخ الطبري ج ٢ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

العرب المتعربة

أو

عرب الجنوب

قال ابن خلدون : يعرفون (العرب المتعربة) باليمنية والسبائية وقد تقدم ان نسابة بني اسرائيل يزعمون ان اباهم سبا من ولد كوش بن كنعان ونسابة العرب يأبون ذلك ويدفعونه والصحيح الذي عليه كافتهم انهم من قحطان وان سبا هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وقال ابن حزم : وعد لقحطان عشرة من الولد وانه لم يعقب منهم احد ثم ذكر ابنين منهم دخلا في حمير ثم ذكر الحرث بن قحطان وقال : فولد فيما يقال له لاسوز وهم رهط حنظلة بن صفوان نبي الرس ، والرس ما بين نجران الى اليمن ومن حضرموت الى اليمامة ثم ذكر يعرب بن قحطان وقال فيهم الحميرية .

وذكر ابن سعيد : وملك بعد يعرب ابنه يشجب وقيل اسمه يمن واستبد أعمامه بما في أيديهم من الممالك وملك بعده ابنه عبد شمس وقيل عابر ويسمى سبا لآنه قيل انه أول من سن السبي وبنى مدينة سبا وسد مأرب [1] .

وقال المسعودي : ان اول ملوك اليمن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان واسمه عبد شمس ، وكان ملكه اربعمائة واربعاً وثمانين سنة ثم ملك بعده ولده حمير بن سبا بن يشجب بن يعرب وكان اشجع الناس في وقته وافرسهم وأكثرهم جمالاً وكان ملكه خمسين سنة وقيل أكثر من ذلك وقيل أقل وكان يعرف بالمتوج [2] .

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ١ .

وقال ابن سعيد : ان الذي ملك بعد حمير أخوه كهلان ومن بعده واثل ابن حمير ثم من بعد واثل السكسك بن واثل ، وكان مالك بن حمير قد هلك وغلب على عمان بعده ابنه قضاعة فحاربه السكسك واخرجه عنها وملك بعده ابنه يعفر ابن السكسك وخرجت عليه الخوارج وحاربه مالك بن الحاف بن قضاعة وطالت الفتنة بينهما وهلك يعفر وخلف ابنه النعمان واستبد عليه من بني حمير ماران بن عوف ابن حمير ويعرف بذي رياش وكان صاحب البحرين فنزل نجران واشتغل بحرب مالك بن الحاف بن قضاعة ولما كبر النعمان حبس ذارياش واستبد بأمره وطال عمره وملك بعده ابنه اسجم بن المعافر فأضطربت أحوال حمير وصار ملكهم طوائف الى ان استقر فى الرايش وبنيه التبابعة .

* * *

ملوك التبابعة وحمير

وقال ابن خلدون : ملوك التبابعة وحمير هم من ولد عبد شمس باتفاق من النسابين وكانت مدائن ملكهم صنعاء ومأرب على ثلاث مراحل منها ، وكان بها السد ضربته بلقيس ملكة من ملوكهم سداً ما بين جبلين بالصخر والقار فحققت به ماء العيون والامطار وتركت فيه خروقاً على قدر ما يحتاجون اليه في سقيهم وهو الذي يسمى العرم .

ثم قال : وأول ملوك التبابعة باتفاق من المؤرخين الحرث الرائش لأنه راش الناس بالعطاء واختلف الناس في نسبه بعد اتفاقهم على انه من ولد واثل بن الغوث [1] .

وذكر الطبري عن أحد ملوك التبابعة : ان اسعد ابو كرب شخص متوجهاً من اليمن في الطريق الذي سلكه الرائش حتى خرج على جبلي طيء ثم سار يريد الانبار فلما انتهى الى الحيرة وذلك ليلاً تحير فأقام مكانه وسمي ذلك الموضع الحيرة ثم سار وخلف به قوماً من الأزد ولخم وجذام وعاملة وقضاعة فبنوا واقاموا به ثم انتقل اليهم بعد ذلك ناس من طيء وكلب ــ ثم توجه الى الانبار ثم الى

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

الموصل ثم الى آذربيجان فلقي الترك بها فهزمهم فقتل المقاتلة وسبى الذرية ثم انكفأ راجعاً الى اليمن فأقام بها دهراً وهابته الملوك وعظمته واهدت اليه الخ [1] .

وقال ابن حزم بعد ذكر التبابعة : وفي أنسابهم اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة ولا يصح من كتب اخبار التبابعة وانسابهم الا طرف يسير لاختلاف رواتهم وبعد العهد .

وقال ابن خلدون : اتفق اهل الاخبار كلهم ان ذا نواس لما تغلب على ملك آبائه التبابعة تسمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن وأراد اهل نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية وكان رئيسهم في ذلك يسمى عبد الله بن الثامر وكان هذا الدين وقع اليهم قديماً من بقية اصحاب الحواريين من رجال يقال له ميمون نزل فيهم وكان مجتهداً في العبادة مجاب الدعوة وظهرت على يده الكرامات في شفاء المرضى وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده ، وتبعه على دينه رجل من اهل الشام اسمه صالح وخرجا فارين بأنفسهما فلما وطئا بلاد العرب اختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران وهم يعبدون نخلة طويلة بين اظهرهم ويعلقون عليها في الاعياد من حليهم وثيابهم ويعكفون عليها اياماً وافترقا في الدير على رجلين من أهل نجران واعجب سيد ميمون صلاته ودينه وسأله عن شأنه فدعاه الى الدين وعبادة الله وان عبادة النخلة باطلة وانه لو دعا معبوده عليها هلكت فقال له سيده ان فعلت دخلنا في دينك فدعا ميمون فأرسل الله ريحاً فجعفت النخلة من اصلها واطبق اهل نجران على اتباع دين عيسى عليه السلام [2] .

* * *

استيلاء الحبشة على اليمن

وقال هشام بن محمد الكلبي في سبب غزو ذي نواس أهل نجران إن يهودياً كان بنجران فعدا أهلها على ابنين له فقتلوهما ظلماً فرفع امره الى ذي نواس وتوسل له باليهودية واستنصره على أهل نجران وهم نصارى فحمي له ولدينه ولما أفلت دوس

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

ذو ثعلبان فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذي نواس واعلمه بما ركب منهم واراه الانجيل وقد احترق بعضه بالنار فكتب له الى النجاشي يأمره بنصره وطلب بثأره وامر عليهم ارباطاً رجلاً منهم وعهد اليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فخرج ارباط لذلك ومعه ابرهة الاشرم وبعث معه النجاشي سبعين الفاً من الحبشة ـ فركبوا البحر ونزلوا ساحل اليمن وجمع ذو نواس حمير ومن أطاعه من أهل اليمن على افتراق واختلاف في الأهواء فلم يكن كبير حرب وانهزموا ـ ووطيء ارباط (قائد الحبشة) اليمن بالحبشة وبعث الى النجاشي بثلث السبي كما عهد له ثم اقام بها فضبطها واذل رجالات حمير وهدم حصون الملك بها مثال سلجيق وسون وغمدان [1] .

* * *

غزو الحبشة الكعبة

ذكر ابن خلدون : ان ابرهة بنى كنيسة بصنعاء تسمى القليس ولم ير مثلها وكتب الى النجاشي قيصر بذلك ـ وقال لست بمنته حتى اصرف اليها حج العرب وتحدث العرب بذلك فغضب رجل من السادة احد بني فقيم ثم احد بني مالك وخرج حتى اتى القليس فقعد فيها ولحق بأرضه وبلغ ابرهة وقيل له الرجل من البيت الذي يحج اليه العرب فحلف ليسيرن اليه يهدمه ثم بعث في الناس يدعوهم الى حج القليس فضرب الداعي في بلاد كنانة بسهم فقتل واجمع ابرهة على غزو البيت وهدمه فخرج سائراً بالحبشة ومعه الفيل فلقيه ذو نفر الحميري فقاتله فهزمه وأسره واستبقاه دليلاً في ارض العرب .

قال ابن اسحق : ولما مر بالطائف خرج اليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فأتوه بالطاعة وبعثوا معه أبا رغال دليلاً فأنزله المغمس بين الطائف ومكة فهلك هنالك ورجمت العرب قبره .

ثم بعث ابرهة خيلاً من الحبشة فانتهوا الى مكة واستاقوا اموال اهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب وهو يومئذ سيد قريش فهموا بقتاله ثم علموا ان لا طاقة

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢

لهم به وبعث ابرهة حناطة الحميري الى مكة يعلمهم بمقصده من هدم البيت ويؤذنهم بالحرب ان اعترضوا دون ذلك وأخبر عبد المطلب بذلك عن ابرهة فقال له والله ما نريد حربه وهذا بيت الله فان يمنعه فهو بيته وان يخلي عنه فما لنا نحن من دافع ثم انطلق به الى ابرهة ومر بذي نفر وهو اسير فبعث معه الى سائس الفيل وكان صديقاً لذي نفر فاستأذن له على ابرهة فلما رآه اجله ونزل عن سريره فجلس معه على بساطه وسأله عبد المطلب في الابل فقال له ابرهة هلا سألت في البيت الذي هو دينك ودين آبائك وتركت البعير فقال عبد المطلب انا رب الابل وللبيت رب سيمنعه فرد عليه ابله .

ولما هلك ابرهة (متأثراً من الخذلان الذي اصابه في مكة) ملك مكانه ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه واذل حمير وقبائل اليمن ووطئتهم الحبشة فقتلوا رجالهم ونكحوا نساءهم واستخدموا ابناءهم ثم هلك يكسوم بن ابرهة فملك مكانه اخوه مسروق وساءت سيرته وكثر عسف الحبشة باليمن فخرج ابن ذي يزن واستجاش عليهم بكسرى وقدم اليمن بعساكر الفرس وقتل مسروقاً وذهب امر الحبشة بعد ان توارث ملك اليمن منهم اربعة في اثنتين وسبعين سنة اولهم ارباط ثم ابرهة ثم ابنه يكسوم ثم اخوه مسروق بن ابرهة [1] .

* * *

استيلاء الفرس على اليمن

قال ابن خلدون : ولما طال البلاء من الحبشة على اهل اليمن خرج سيف ابن ذي يزن الحميري ــ وقدم على قيصر ملك الروم وشكا اليه امر الحبشة وطلب ان يخرجهم ويبعث على اليمن من شاء من الروم فلم يسعفه وكان الحبشة على دين النصارى فرجع الى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من ارض العرب فشكا اليه واستمهله النعمان الى حين وفادته على كسرى واوفد معه وسأله النصر على الحبشة وان يكون ملك اليمن له فقال بعدت ارضك عن ارضنا او هي قليلة الخير انما هي شاء وبعير ولا حاجة لنا بذلك ثم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

كساه وأجازه فنثر دنانير الاجازة وانهبها الناس يوهم الغنى عنها بما في ارضه فأنكر عليه كسرى ذلك فقال جبال ارضي ذهب وفضة وانما جئت لتمنعني من الظلم فرغب كسرى في ذلك وامهله للنظر في امره وشاور اهل دولته فقالوا في سجونك رجال حبستهم للقتل ابعثهم معه فان هلكوا كان الذي اردت بهم وان ملكوا كان ملكاً ازددته الى ملكك واحصوا ثمانمائة وقدم عليهم افضلهم واعظمهم بيتاً واكبرهم نسباً وكان وهزر الديلمي .

قال ابن حزم : كان وهزر من عقب جاماسب عم انوشروان فأمره على أصحابه وركبوا البحر ثمان سفائن فغرقت منها سفينتان وخلصت ست الى ساحل عدن فلما نزلوا بارض اليمن قال وهزر لسيف ما عندك قال ما شئت من قوس عربية ورجلي مع رجلك حتى نظفر او نموت قال انصفت وجمع ابن ذي يزن من استطاع من قومه وسار اليه مسروق بن ابرهة فى مائة الف من الحبشة وأوباش اليمن فتواقفوا للحرب وامر وهزر ابنه ان يناوشهم القتال فقتلوه وقال اروني ملكهم فأروه اياه على الفيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة حمراء ثم نزل عن الفيل الى الفرس ثم الى البغلة ثم رماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه وتنكس عن دابته وداروا به فحمل القوم عليهم وانهزم الحبشة في كل وجه واقبل وهزر الى صنعاء ولما اتى بابها قال لا تدخل رايتي منكوسة فهدم الباب ودخل ناصباً رايته فملك اليمن ونفى عنها الحبشة وكتب بذلك الى كسرى وبعث اليه بالاموال فكتب اليه ان يملك سيف بن ذي يزن على اليمن على فريضة يؤديها كل عام ففعل وانصرف وهزر الى كسرى وملك سيف اليمن وكان ابوه من ملوكها وخلف وهزر نائباً على اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم اليه وانزله بصنعاء وانفرد ابن ذي يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان .

قال ابن اسحق : ولما انصرف وهزر الى كسرى غزا سيف على الحبشة وجعل يقتل ويبقر بطون النساء حتى اذا لم يبق الا القليل جعلهم خولاً واتخذ منهم طوابير يسعون بين يديه بالحراب وعظم خوفهم منه فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه فلما توسطهم وقد انفردوا به عن الناس رموه بالحراب فقتلوه الخ [1] .

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

عرب الشمال

امارة الحيرة

قال ابن خلدون : اما أخبار العرب بالعراق في الجيل الأول وهم العرب العاربة فلم يصل الينا تفاصيلها وشرح حالها الا ان قوم عاد والعمالقة ملكوا العراق واما في الجيل الثاني وهم العرب المستعربة فكان ملكهم بدوياً ورياستهم فى اهل الظواعن وكان ملك العرب في التبابعة من اهل اليمن وكانت بينهم وبين فارس حروب وربما غلبوهم على العراق وملكوه او بعضه لكن اليمن لم يغلبوا ثانياً على ما ملكوا منه وقد مر ايقاع بختنصر واثخانه فيهم ما تقدم وكان في سواد العراق واطراف الشام والجزيرة الأراميون ومن كان من بقية عساكر ابن تبع من جعفر طيء وكلب وتميم وغيرهم من جرهم ومن نزل معهم بعد ذلك من تنوخ ونمارة بن لخم وقنص بن معد ومن اليهم . وكان ما بين الحيرة والفرات الى ناحية الانبار موطن لهم وكانوا يسمون عرب الضاحية [1] .

قال الطبري : لما مات بختنصر انضم الذين كان اسكنهم الحيرة من العرب حين امر بقتالهم الى اهل الانبار وبقيت الحيرة خراباً فغبروا بذلك زمناً طويلاً لا تطلع عليهم طالعة من بلاد العرب ولا يقدم عليهم قادم ، وبالأنبار اهلها ومن انضم اليهم من اهل الحيرة من قبائل العرب من بني اسماعيل وبني معد بن عدنان فلما كثر اولاد معد بن عدنان ومن كان معهم من قبائل العرب وملؤوا بلادهم من تهامة وما يليهم فرقتهم حروب وقعت بينهم واحداث حدثت فيهم فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم من بلاد اليمن ومشارق الشام واقبلت منهم قبائل حتى نزلوا البحرين وبها جماعة من الازد فتطلعت انفس من كان بالبحرين من العرب الى ريف العراق وطمعوا في غلبة الأعاجم على ما يلي بلاد العرب منه او مشاركتهم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

فيه واهتبلوا ما وقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف فأجمع رؤساؤهم بالمسير الى العراق ووطن جماعة ممن كان معهم على ذلك فكان اول من طلع منهم الحيقار ابن الحيق في جماعة قومه واخلاط من الناس فوجدوا الارمانيين وهم الذين بأرض بابل وما يليها الى ناحية الموصل يقاتلون الاردوانيين وهم ملوك الطوائف . وانما سموا ملوك الطوائف لأن كل ملك منهم كان ملكه قليلاً من الارض انما هي قصور وابيات وحولها خندق .

وقال الطبري : وعمرو بن عدي أول من اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب وأول من تجده اهل الحيرة في كتبهم من ملوك العرب بالعراق واليه ينسبون وهم ملوك آل نصر ولم يزل عمرو بن عدي ملكاً حتى مات وهو ابن مائة وعشرين سنة مستبداً منفرداً يغزوهم ويغنم وتعد عليه الوفود ولا يدين لملوك الطوائف ولا يدينون له حتى قدم اردشير بن بابك في أهل فارس . وانما ذكرنا في الموضع امر جذيمة وابن اخته عمرو بن عدي لما قدمناه عند ذكر ملوك اليمن وانهم لم يكن لهم ملك مستفحل وانما كانوا طوائف على المخاليف يغير كل واحد على صاحبه اذا استغفله ويرجع خوف الطلب حتى كان عمرو بن عدي فاتصل له ولعقبه الملك على من كان بنواحي العراق وبادية الحجاز بالعرب فاستعمله ملوك فارس على ذلك الى آخر امرهم وكان امر آل نصر هؤلاء ومن كان من ولاة الفرس وعمالهم على العرب معروفاً مثبتاً عندهم في كنائسهم واشعارهم [1] .

قال ابن خلدون : ولما هلك عمرو بن عدي ولي بعده على العرب وسائر من ببادية العراق والحجاز والجزيرة امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ويقال له البدء وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس وعاش فيما ذكر هشام بن الكلبي مائة واربع عشرة سنة [2] .

قال المسعودي : وكان عدة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكاً من بني نصر

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ .

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

وغيرهم من العرب والفرس وكان مدة ملكهم ستماية سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية اشهر [1] .

قال ابو الفداء : وهم المناذرة بنو عدي بن نصر بن ربيعة من ولد لخم ابن عدي بن سبا ، ولما قتل جذيمة ملك بعده عمرو بن عدي وملك بعده ابنه امرؤ القيس ثم ابنه عمرو بن امرؤ القيس ثم أوس العمليقي ثم ملك آخر من العماليق ثم رجع الملك الى بني عمرو بن عدي بن نصر وملك منهم امرؤ القيس من ولد عمرو بن امريء القيس المذكور ويعرف بامريء القيس الثاني بالمحرق ثم ملك بعده ابنه النعمان الأعور وهو الذي بنى الخورنق والسدير وبقي في الملك ثلاثين سنة ثم تزهد وخرج من الملك في زمن بهرام بن يزجرد ثم ملك بعده ابنه الأسود بن المنذر وهو الذي انتصر على غسان عرب الشام ثم ملك بعده علقمة ثم ملك بعده امرؤ القيس بن النعمان بن امريء القيس المحرق وهو الذي قتل سنمار ثم ملك ابنه المنذر بن امريء القيس ثم الحارث الكندي ثم عمرو ثم قابوس ابن المنذر ثم اخوهما المنذر بن المنذر ثم ابنه النعمان بن المنذر بن المنذر بن ماء السماء ثم انتقل الملك في الحيرة بعد النعمان المذكور عن اللخميين الى اياس بن قبيصة الطائي ولستة اشهر من ملك اياس بعث النبي (ص) ثم ملك بعد اياس زاذويه بن ماهسان الهمداني ثم عاد الملك الى اللخميين فملك بعد زاذويه بن ماهسان الهمداني ثم عاد الملك الى اللخميين فملك بعد زاذويه المنذر بن النعمان بن المنذر ابن المنذر بن ماء السماء وسمته العرب المغرور [2] .

* * *

امارة الغساسنة

قال ابن خلدون : اول ملك كان للعرب بالشام فيما علمناه للعمالقة ثم لبني ارم بن سام ويعرفون بالأرماميين ـ فكان بنو ارم يومئذ في نواحي الشام والعراق وقد ذكروا في التوراة وكان لهم مع ملوك الطوائف حروب . وكان آخرهم ملكاً الزباء بنت عمرو بن السميدع وكانت قضاعة مجاورين لهم في ديارهم بالجزيرة

---

(١) مروج الذهب للمسعودي ج ١ .

(٢) تاريخ ابي الفداء ج ١ .

وغلبوا العمالقة ولما هلكت الزباء ملك امر العرب تنوخ من بطون قضاعة وقد تقدم نزولهم بالحيرة والانبار ومجاورتهم للارمانيين فكانوا مملكين من قبل الروم ثم تلاشى امر تنوخ واضمحل وغلبت عليهم سليح من بطون قضاعة ثم الضجاعم فتنصروا وملكتهم الروم على العرب واقاموا على ذلك مدة وكان نزولهم ببلاد مؤاب من ارض البلقاء [1] .

وذكر ابو الفداء : ان الغساسنة كانوا عمالاً للقياصرة على عرب الشام واصل غسان من اليمن من بني الأزد تفرقوا من اليمن بسيل العرم ونزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان قبلهم بالشام عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح فأخرجت غسان سليحاً عن ديارهم وقتلوا ملوكهم وصاروا موضعهم .

وأول من ملك من غسان جفنة وكان ابتداء ملك غسان قبل الاسلام بما يزيد على اربعمائة سنة وقيل أكثر من ذلك ولما ملك جفنة المذكور وقتل ملوك سليح دانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وبنى في الشام عدة مصانع ثم هلك وملك بعده ابنه عمرو بن جفنة وبنى بالشام عدة أديار منها دير حالي ودير ايوب ودير هند ثم ملك ابنه ثعلبة وبنى صرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء ثم ابنه الحارث ثم جبلة بن الحارث وبنى القناطر والقسطل ثم الحارث بن جبلة وكان مسكنه بالبلقاء فبنى بها الحفير ومصنعه ثم المنذر الاكبر بن الحارث ثم النعمان ابن الحارث ثم جبلة بن الحارث ثم الأيهم بن الحارث وبنى ديراً ضخماً ودير النبوة ثم عمرو بن الحارث ثم جفنة الاصغر بن المنذر الاكبر وهو الذي احرق الحيرة وبذلك سموا ولده آل محرق ثم النعمان الاصغر بن المنذر الاكبر ثم النعمان بن عمرو بن المنذر وبنى قصر السويداء ثم جبلة بن النعمان وكان ينزل بصفين ثم النعمان بن الأيهم بن الحارث ثم اخوه الحارث ثم النعمان بن الحارث وهو الذي اصلح صهاريج الرصافة وكان قد خربها بعض ملوك الحيرة اللخميين ثم ابنه المنذر ابن النعمان ثم اخوه عمرو بن النعمان ثم اخوهما حجر بن النعمان ثم الحارث ابن حجر ثم جبلة بن الحارث ثم الحارث بن جبلة ثم النعمان بن الحارث ثم الأيهم

---

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

ابن جبلة بن الحارث وهو صاحب تدمر وكان عامله يقال له القين بن خسرو بنى له بالبرية قصراً عظيماً ومصانع واظن انه قصر برقع ثم اخوه المنذر بن جبلة ثم اخوهما شراحيل بن جبلة ثم اخوهم عمرو بن جبلة ثم جبلة بن الحارث ثم جبلة بن الأيهم وهو آخر ملوك غسان وهو الذي اسلم في خلافة عمر ثم عاد الى الروم وتنصر وقد اختلف في مدة ملك الغساسنة فقيل اربعمائة سنة وقيل ستمائة سنة وبين ذلك . (١)

قال المسعودي : وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق واعمالها ومنهم من نزل الاردن من ارض الشام (٢) .

قال ابن الكلبي : ولما نزلت غسان الشام جاوروا الضجاعم وقومهم من سليح ورئيس غسان يومئذ ثعلبة ــ بن الأزد ورئيس الضجاعم يومئذ داود بن ضجعم وكانت الضجاعم هؤلاء ملوكاً على العرب عمالاً للروم يجمعون ممن نزل بساحتهم لقيصر فغلبتهم غسان على ما بأيديهم من رياسة العرب .

قال ابن سعيد : ان جميع ملوك بني غسان جفنة اثنان وثلاثون ومدتهم ستمائة سنة .

* * *

امارة كندة

قال الطبري : كان يخدم ملوك حمير أبناء الأشراف من حمير وغيرهم وكان ممن يخدم حسان بن تبع سيد كندة لوقته فلما دوخ حسان بلاد العرب وسار في الحجاز وهم بالانصراف ولى على معد بن عدنان كلها اخاه حجر بن عمرو وسار فيهم أحسن سيرة ثم هلك وملك بعده ابنه عمرو المقصور (٣) .

قال ابو الفداء : واول ملوك كندة حجر بن عمرو وهو من ولد كندة ــ بن سبا وكانت كندة قبل ان يملك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوي الضعيف فلما ملك

---

(١) تاريخ ابي الفداء ج ١ .

(٢) مروج الذهب للمسعودي ج ١ .

(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ .

حجر سدد امورهم وساسهم احسن سياسة وانتزع من اللخميين ما كان بأيديهم من ارض بكر بن وائل ثم ملك عمرو بن حجر ويقال لعمرو المذكور المقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ثم ابنه الحارث بن عمرو وقوي ملك الحارث المذكور ووافق كسرى قباذ بن فيروز على الزندقة والدخول في مذهب مزدك فطرد قباز المنذر ابن ماء السماء اللخمي عن ملك الحيرة وملّك الحارث المذكور موضعه فعظم شأن الحارث فلما ملك انو شروان اعاد المنذر وطرد الحارث المذكور فهرب وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا باموالهم وبأربعين نفساً من بني حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم في ديار بني مرين ثم ملك بعده ابنه حجر بن الحارث على بني اسد بن خزيمة ابن مدركة وملك باقي بنيه على قبائل العرب ثم خلفه ابنه شراحيل بن الحارث على بكر بن وائل ثم ابنه معدي كرب بن الحارث ثم ملك ابنه سلمة على تغلب والنمر [1] .

* * *

ملوك متفرقة

وهناك ملوك مختلفون قد حكموا الحجاز وغيرها ، اشهرهم عمرو بن لحي فقد ملك الحجاز وكان كثير الذكر في الجاهلية واليه تنسب خزاعة وزهير بن حباب وكان يسمى الكاهن لصحة رأيه وعاش عمراً طويلاً وغزا غزوات كثيرة وقد اجتمع بأبرهة الاشرم صاحب الفيل فأكرمه ابرهة وفضله على غيره من العرب وامره على بكر وتغلب ابني وائل ، ومن ملوكهم كليب بن ربيعة وملك على بني معد وقاتل جموع اليمن وهزمهم وعظم شأنه ومنهم المهلل بن ربيعة بن الحارث جمع قبائب تغلب واقتتل مع بني بكر الخ.

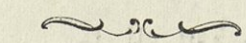

(١) تاريخ ابي الفداء ج ١ .

تاريخ العرب

قبل الاسلام والمعاصرون

العمالقة في العراق

ان الناظر الى خلاصة ما كتبه المؤرخون العرب عن العرب البائدة يجد معظمهم لم يتجاوز سلطانهم شبه الجزيرة غالباً الا ما كان من سلطان العمالقة فقد امتد الى العراق ، ويدعم صحة هذا القول ذكرهم في الآثار البابلية القديمة .

نقل المؤرخون عن بروسوس المؤرخ الكلداني : ان في العراق قد قامت للعرب دولة دام حكمها ٢٤٥ سنة تأتي بعد دولة الكلدان وتنتهي بدولة الآشوريين ، وعدد ملوكها تسعة (١) .

واختلف الباحثون فمنهم من عد دولة حمورابي أو الدولة البابلية الاولى دولة عربية ، وحجتهم ان بروسوس ذكر بين الدول التي حكمت بابل دولة سماها عربية وذكر عدد ملوكها وسني حكمها ، ودولة حمورابي اقرب دول بابل عهداً من الزمن الذي عينه بروسوس للدولة العربية .

وان سكان بادية العراق كانوا يعرفون عند اهل بابل باسم عمورو أي ابناء المغرب . وهذا الاسم يشمل كل من سكن غربي الفرات من الامم السامية وفيهم الآراميون في الشام وبدوهم في باديتها .

وفي التاريخ القديم ان الكنعانيين اكتسحوا فلسطين في القرن الخامس والعشرين ق.م. واخرجوا اهلها الاصليين ، ووافق ذلك نزول بدو الآراميين بابل وانشاء تلك الدولة فيها واسمهم عمورو كما تقدم ثم سموهم « عربيي » ومعناها اهل المغرب ايضاً . والطبري يسمي جد العمالقة « عريب » .

وان بين لغة بابل التي خلفتها دولة حمورابي في ما بين النهرين واللغة العربية

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

مشابهة لا توجد بينها وبين سائر اللغات السامية ـ منها اولاً حركات الاعراب (والرفع والنصب والجر) فانها في لغة بابل كما هي في العربية تماماً ولا وجود لها في سائر اللغات السامية قديماً ولا حديثاً الا آثاراً منها في لغة البتراء وتدمر لأن اهلها من بقايا العمالقة .

ومنها التنوين فانه في البابلية ميم وفي العربية نون وهما تتبادلان . ومنها علامة الجمع في البابلية « ون » كما في العربية وهي « ين » في السريانية و « يم » في العبرانية ومنها صيغ الافعال في البابلية اقرب الى الصيغ العربية منها الى سائر اللغات السامية الخ من المشابهات بين اللغتين التي يعدونها من الادلة التي تؤيد نظريتهم .

وان اسماء ملوك هذه العائلة عربية التركيب والمعنى مثل « سامو ابي » أي ابي سام « وشمسوايلونا » أي الشمس الهنا وقد عثروا في آثار هذه الدولة ببابل على اعلام كثيرة تشبه الاعلام العربية مشابهة كلية لفظاً ومعنى .

وان معبودات البابليين كثيرة الشبه في اسمائها واسماء الذين ينتسبون اليها بأقدم الهة العرب في اليمن وغيرها مثل ايل وشمس واشتار وسين وسمدان ونسر ويثع .

ورغم هذه الادلة التي يدليها هذا الفريق فان هناك ثمة من الباحثين تناهضها ولا تؤمن بتلك النظرية الا اذا ايدتها الوثائق الأثرية والتاريخية تأييداً لا يتطرق اليه الشك .

واذا ثبت فيما بعد أن دولة حمورابي عربية تكون العرب من اسبق الامم حضارة وتشريعاً لان لهذه الدولة انظمة في طبقات الناس والمرأة والزواج والتبني والارث والتجارة .

* * *

العمالقة في مصر

علمنا فيما مضى ان بعض المؤرخين العرب ذكروا ان العمالقة اغاروا على مصر

وملكوها وان منهم فراعنة مصر واقتصروا على ذلك ولم يفصلوا لنا اخبارهم وكيف استولوا عليها مما جعل الباحثين في حيرة وارتباك وادى ذلك لان يختلفوا في شأنهم .

نقل يوسيفوس المؤرخ الاسرائيلي عن مانثون المؤرخ الاسكندري الكلمات الآتية : واتفق على عهد تيماوس احد ملوكنا ان الاله غضب علينا فأذن لقوم لا يعرف اصلهم جاؤوا من الشرق وتجاسروا على محاربتنا وغلبونا على بلادنا واذلوا ملوكنا واحرقوا مدننا وهدموا هياكلنا وآلهتنا وساموا الناس ذلاً وخسفاً فقتلوا الرجال وسبوا النساء والاولاد ثم نصبوا عليهم ملكاً منهم اسمه « سلاطيس » اقام في منفيس وضرب الجزية على مصر اعلاها واسفلها واقام الحامية في المعاقل لدفع الآشوريين عن وادي النيل اذا طمعوا به وبنى مدينة اوارس في ولاية صان لهذه الغاية وحصنها بالابراج والقلاع والاسوار .

وكانت هذه الامة تسمى هيكسوس Hykso أي ملوك الرعاة . ويرى بروكش (Brugch) ان لفظ هيكسوس ترد في الاصل الهيروغليفي الى لفظين هيك وشاسوا الاول ملك والثاني بادية او بدو وان الهيكسوس هم البدو الذين كانوا ينتقلون في الصحراء الشرقية أي العرب ولم يعثروا على اسم هذه الدولة في الآثار المصرية ولا وقفوا الا على النزر القليل من آثارها [1] .

وجاء في الآثار ان قوماً غرباء تسلطوا على مصر السفلى حتى اخرجهم ملوك طيبة وكانوا يسمون بلغة العامة « مين » أو « منتي » من بلد اسمها بلسانهم « اشر » ويريدون بها الشام ولكنها اقرب الى اشور .

وخلاصة ما ذكره كونتنو (G. Contenau) عن الهيكسوس ان مزيجاً من شعوب آسيا الوسطى خرجوا من بلادهم ابتغاء طلب الرزق وحباً في الهجرة والرحيل فاغاروا على سورية وفلسطين حتى دخلوا مصر بدون حرب كما قال المؤرخ مانيتون (Manéthon) واستولوا على الدلتا اغنى اقسام القطر واخصبها ، وعرفت هذه الشعوب في تاريخ مصر بمملكة الرعاة أي الهيكسوس وتعاقب عليها فراعنة

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

وحكام من هذه الشعوب ، وظل الملوك الوطنيون (المصريون) قابضين على ناصية الحكم في الجنوب حتى قاموا في ١٥٨٠ ق٠م بحرب كبرى كانت القاضية على تسلط الساميين في مصر [١] ٠

ويتبين للباحث مما أوردناه ان الهيكسوس ساميون وفدوا على مصر من آسيا الوسطى ولم يتحقق الباحثون من كونهم عرباً لعدم وجود ادلة كافية يقرها العلم الحديث بالرغم مما ذكره يوسيفوس وما رواه العرب في كتبهم عن عمالقة مصر وما ورد في الآثار المصرية من اخبارهم ٠

(١) الحضارة الفينيقية لكونتنو ٠ G. Contenau. La civilisation phénicienne

العرب في جنوبي الجزيرة

الدولة المعينية

استدل الباحثون من الآثار التي عثر عليها المنقبون في الجنوب ان اقدم العصور التاريخية التي تعاقبت عليه لا تتجاوز القرن الثامن ق.م وتقسم تلك النقوش الى معينية وسبأية ، ومن مقارنة الاولى مع الاخرى تبين ان دولة المعينيين اقدم من دولة السبأيين .

فمن القائلين بان دولة المعينيين اقدم من السبأيين ، مولر ، غلازر ، وونكلر (Winckler) ومن تابعهم في هذا الرأي وخمنوا المدة التي بينهما خمسمائة سنة . وايد فريق من علماء هذا العصر وخاصة المستعربين ان المعينيين اقدم من السبأيين كمارتين هارتمن (Martin Hartman) والمؤرخ ادوار مير (E. Meyer) فهارتمن سلم بان دولة معين اقدم من مملكة سبأ ، ولكنه لا يزال محافظاً على قوله ان النقوش التي اكتشفت حتى الآن ، تاريخها واحد [1] . ثم خلفتهما دولة حمير . ولهذه الدول تاريخ مجيد يشهد بحضارتها وعمرانها لتوفر أسباب الحضارة فيها كخصب ارضها وتوسطها بين البلاد التجارية .

قال استرابون في كلامه عن بلاد اليمن : يشغل القسم الجنوبي من جزيرة العرب اربعة شعوب : المعينيون وعاصمتهم قرنا والسبائيون وعاصمتهم مأرب والقتابيون وعاصمتهم تمناء والحضروموتيون أو الحضرميون وعاصمتهم شبوة . وذكر في مكان آخر ان المعينيين يحملون التجارة الى البتراء مدينة الانباط . وذكر بلينيوس ان المعينيين يقيمون في بلاد كثيرة الغاب والأغراس . وذكرهم أيضاً ذيونيسيوس وبطلميوس واطروا سلطتهم وسعة تجارتهم [2] .

---

(١) معلمة الاسلام مادة عرب . Encyclopédie de l'Islam - art. Arabie

(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

ووفق هاليفي في القرن التاسع عشر الى ارتياد بلاد الجوف الجنوبي في شرقي صنعاء واكتشف انقاض معين وقرأ اسمها عليها بالمسند ، وبلغت النقوش الكتابية التي اكتشفها هاليفي في سفرته الى بلاد الجوف وحدها ٣٠٣ نقوش ، ومن درسها وجد معيناً هي البلدة التي ينسب اليها المعينيون وان المدن التي اكتشفها في الجوف مدن معينية ولا سيما براقش .

واما ملوك هذه الدولة فقد عثر المنقبون في الآثار على اسماء كثير منهم ، وبلغ عدد الملوك الذين عثروا على اسمائهم في انقاض الجوف في معين وغيرها ٢٦ ملكاً يشترك كل بضعة منهم باسم واحد ويتميزون بالالقاب اذا كان لملوكهم نعوت تفخيم مثل قولنا الغازي والفاتح والناصر والمنتصر ونحو ذلك .

ووجد مولر (Müller) بعد درس النقوش المعينية ان الحكومة في هذه الدولة كانت وراثية تنتقل من الاب الى الابن وقد يتولى الاثنان معاً ، وان ملوك هذه الدولة كانوا يعرفون في صدرها الاول بلقب مزواد كما كان ملوك سبا في اوائل دولتهم يسمون « مكرب » [1] .

وذكر هنري ماسه (H. Massé) نفوذ دولة معين فقال : ربما شمل سلطان دولة المعينيين جميع بلاد شبه جزيرة العرب الجنوبية [2] .

ومع كثرة النقوش المعينية التي عثر عليها الباحثون وقرأوها فليس ثمة اثر تاريخي يساعد على تنسيق حوادثها او تقرير مبدأ امرها .

ويؤخذ من نقش اثري قرأه غلازر أن السبأيين افنوا المعينيين يوم كان ملوك السبأيين لا يزالون يلقبون « مكرب » والظاهر انهم غلبوهم على دولتهم وظل القوم يتعاطون اعمالهم التجارية ، فقد جاء ذكرهم مع القريين في اواسط القرن الثاني ق.م والسبأيون يومئذ في ابان دولتهم .

ولغة المعينيين كثيرة الشبه باللغة السبأية وحروفهما واحدة تقريباً لكنها تختلف

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

(٢) الاسلام لهنري ماسه . H. Massé - l'Islam

عنها اختلافاً واضحاً في ضمير الغائب فانه في المعينية « السين » بدل الهاء في السبأية وسائر اللغات السامية الا البابلية والحبشية .

ومن النقوش التي عثر عليها غلازر وهاليفي في جنوبي شبه الجزيرة يتبين ان دولة معين كانت دولة تجارية اكثر منها حربية لها علاقات تجارية مع كثير من بلاد المعمور .

* * *

دولة سبأ

انشأ السبأيون في اليمن دولة كبرى ورد ذكرها في الآثار الاشورية في القرن الثامن ق.م. مما ساعد الباحثين ان يجعلوا مبدأ هذه الدولة من ذلك التاريخ .

هذا ولايمكن تحقيق طول هذه الدولة لان كثيراً من الآثار لا تزال تحت الرمال والانقاض واذا استنطقوها فيما بعد ربما اجابتهم غير جوابها اليوم .

وقد دقق غلازر في تحقيق الزمن الذي انتقلت الدولة السبأية الى الدولة الحميرية من مقابلة ما لديه من الأساطير المنشورة وغير المنشورة فترجح له ان دولة سبأ تنتهي سنة ١١٥ ق.م وبها تبتدئ دولة حمير [1] .

وخلاصة ما جاء في تلك الاخبار ان الامير السبأي المعروف باسم يثعمر (Iiti - Amara) كان يؤدي جزية للملك سرجون الثاني (Sargon II) حوالى ٧٢١ ــ ٧٠٥ .

وبلغ عدد الملوك الذين قرأوا اسماءهم على آثار هذه الدولة بمأرب وصرواح وغيرهما ٢٧ منهم ١٥ مكرباً و١٢ ملكاً ، ولهم القاب خاصة بهم غير القاب الدولة المعينية .

ويستدل من مقابلة اسمائهم والقابهم أن السبأيين تدرجوا في الحكم من الامارة البسيطة أو الكهانة الى الملك .

ودولة سبأ دولة قوافل وتجارة ولا تجد للحرب او الفتح ذكراً في آثارها

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

الا قليلاً خلافاً للآشوريين والمصريين معاصريها فانك لا تكاد تقرأ على آثارهم غير قولهم « فتحت وغلبت وضربت الجزية وحملت الغنيمة » ، وأما السبأيون فاكثر ما وصل الينا من أخبارهم قولهم « بُنيت ووُقفت ورُمت » .

ويستدل مما قرأوه على الآثار حتى الآن ان السبأيين مروا باربعة اطوار تتميز بالقاب ملوكها فكان ملكهم في الطور الأول يسمى « مكرب سبا » ثم قالوا « ملك سبا » ، ثم « ملك سبا وريدان » ، وكان ريدان محفداً من محافدهم الكبرى سمي بعد ذلك ظفار ثم قالوا « ملك سبا وريدان وحضرموت وغيرها » .

* * *

دولة حمير

تقدم ان الملك في جنوبي الجزيرة قد انتقل من السبأيين الحقيقيين الى السبأيين الحميريين في القرن الثاني ق.م. وكان من جراء هذا الانقلاب ان اكتشف امراء الاساطيل البطليميوسية خططاً في المحيط الهندي عادت على البلاد بالخير الجم ورفعت من شأن سبأ وعظمتها واضحت من اكبر المراكز التجارية في العالم ، فامتد سلطانهم الى ما جاورهم من الأصقاع فقطنوا في اعظم اقسام جنوبي الجزيرة واقاموا على شواطىء البحر الاحمر وشواطىء المحيط الهندي حتى حدود حضرموت وعلى بعض شواطىء افريقية الشرقية .

واذا نظرنا الى ما دونه المؤرخون اليونانيون والرومانيون نجد اكثر ما كتبوه كان بعد القرن الثالث م. واذا استنطقنا النقوش الاثرية التي عثر عليها المنقبون حتى اليوم نجدها تذكر لنا اسماء كثير من ملوك هذه الدولة ولكنها مع الاسف لا تذكر غالباً تاريخاً كافياً يركن اليه من اراد أن يبحث على النمط العلمي الحديث .

دخلت النصرانية بلاد حمير في زمن كونستانس الثاني (Constance II) ــ٣٣٧ــ ٣٦١ م . بواسطة تيوفيليوز (Théophilios) ، فبنى كنائس في عدن وغيرها ومن ثم اخذ دعاة النصرانية يدعون اليها حتى دخل فيها الحميريون في عهد انستاس (Anstace) ٤٩١ ــ ٥١٨ .

واستولى الحبشيون (الأكسوميون) على اليمن وامتد سلطانهم في جنوبي الجزيرة وولي عليها اكسوم الذي عاصر الامبراطور قسطنطين الثاني .

يقول الجغرافي ماركيانوز (Markianos) من جغرافيي القرن الرابع م: ان الحميريين هم شعب كأحد الشعوب الحبشية وان هناك ادلة أخرى تنبىء بان غزو الحبشة لليمن اقدم من التاريخ الذي عينه المؤرخون (١) .

وكان للامبراطورية الرومانية علاقات منظمة بالحميريين والباعث على وجود تلك العلاقات بين الدولتين اما مصلحة الرومانيين التجارية قضت عليهم ان يتصلوا بهم او رغبة في توطيد دعائم الاتحاد مع الحميريين حذراً من الساسانيين الذين طالما تاقت انفسهم لان يستولوا على جنوبي الجزيرة ويدخلوها مستعمرين .

وقد وقع ما كان يخشاه الرومانيون فثار رؤساء الحميريين سنة ٥٢١ ، وفي مقدمتهم ذو نواس الذي انتحل الديانة الموسوية وصار من اكبر دعاتها وحماتها ، فاخذ يدعو للخلاف على الحبشة والنصرانية واضطهد نصارى نجران أي اضطهاد كان من عواقبه أن استعرت نار الحرب بين الحميريين والحبشيين وانتهت باخراج الحبشة من بلاد حمير واستيلاء الفرس عليها بعد أن حكمها الحبشيون بضع سنين بعد ابرهة ، ثم الاكسوميون الذين عاملوا في خلال حكمهم الفرس والحبشة وامراء الغساسنة وغيرهم من امراء العرب .

وليس لدينا معلومات صحيحة تبين لنا ما خلفه الحبشيون من الآثار العمرانية في اليمن وجل ما علم من قراءة نقوش مأرب ان اصلاحات جرت لسد مأرب عام ٥٤٠ وفي هذا التاريخ تقريباً سنت الشرائع الحميرية .

واما استيلاء الفرس على اليمن فاستنصر امراء حمير الفرس عام ٥٧٠ م. ودعوهم الى بلادهم فدخلوها وانهزم الحبشيون وقتل مسروق آخر امراء امارة ابرهة واحتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً وتركوا ادارة الحكم الى امراء حمير ، واقام الفارسيون عنهم نائباً جعلوا مقره في صنعاء .

ولما بعث محمد بن عبد الله (ص) وبلغت دعوته اهل اليمن بواسطة اصحابه كانت امارة حمير في اضمحلال ، واجاب نواب فارس في صنعاء دعوة الداعي وآمنوا بالاسلام .

---

(١) معلمة الاسلام مادة عرب . Encyclopédie de l'Islam - art. Arabie

العرب في شمالي الجزيرة

امارة الحيرة

كانت الحيرة على ثلاثة اميال من مكان الكوفة في موضع يقال له النجف على ضفة الفرات الغربية في حدود البادية بينها وبين العراق وتقع الآن في الجنوب الشرقي من مشهد علي ، واشتهرت الحيرة بصحة هوائها لقربها من هواء البرية النقي ، ولما كانت الحيرة على طرف العراق في الغرب وليس بعدها غير البادية رغب فيها البدو فكان يؤمها البدوي لابتياع بعض الحاجات ثم لا يلبث ان يقيم فيها ، وكان يأتيها جماعات من مدن العراق والجزيرة فراراً من حكم أو تنحياً عن عمل كأن يحدث احدهم حدثاً في قومه أو تضيق به المعيشة في بلده فيخرج الى ريف العراق وينزل الحيرة ولذلك كان سكانها اخلاطاً من امم شتى اكثرهم من العـرب .

أسست امارة الحيرة عام ٢٤٠م وولي عليها عمرو بن عدي ورغبت الفرس بانشائها حذراً من اغارة عرب البادية وغيرهم ممن جاورهم على املاكها فجعلوا هذه الامارة بمثابة حامية تحميهم من اغارة الاعداء ، وكان النظام المتبع بين فارس وعرب الحيرة ان هؤلاء يقدمون الطاعة لملك فارس وهو يولي عليهم اميراً مـن انفسهم وعليهم ان يحموا فارس من كل مغير من نواحيهم ، والفرس مقابل ذلك يعفونهم من دفع الإتاوة ، وكان نظام الفرس اذ ذاك نظاماً اقطاعياً يكاد يستقل كل وال بامر مقاطعته ويستمر والياً عليها مدى حياته غالباً ويراعـي الملك رغبة المقاطعة فيمن يولي عليها على عكس النظام الروماني فقد كان نظاماً مركزياً .

وتسابق اللخميون والغساسنة وملوك كندة التي كانت تتنازع السيادة على عرب الشمال واكثرهم من عدنان يتولاهم امراؤهم او شيوخهم بلا دولة ولا جند ولا حصون ولا قلاع الا نادراً وانما قلاعهم شجاعتهم وبداوتهم ولما كان هؤلاء

اشد رغبة في الانضمام لدولة اللخميين والدخول في رعايتها اتسع سلطانها ولا سيما في ابان سطوة الفرس وضعف الروم ٠

وكان عرب الحيرة اكثر استقلالاً من غيرهم فهم لا يرتبطون بفارس الا بما توجبه المعاهدات عليهم وكانوا اذ ذاك في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب لخصب ارضهم وغنى اقليمهم وكانوا هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة يحملون التجارة الفارسية ويبيعونها في اسواقهم ويبشرون بالفرس ومدنيتهم ٠

قال سيديو (Sedillot) وكان الفرع الأصلي من بني قضاعة الذين هم ملوك الحيرة التنوخية متوطناً بتهامة والبحرين ملكوا الحيرة واغاروا على العراق سنة ١٩٢ بعد الميلاد ثم على بلاد الانبار وكان رئيسهم سنة ٢٢٨ جذيمة الابرش المعترف بتبعيته لاردشير بن ساسان ملك الفرس خلفه في الملك عمرو بن عدي اول العائلة الملوكية اللخمية او النصرية التي امتد حكمها الى سنة ٦٠٥ بعد الميلاد ٠

وكان بين الفرس واليونان في حكم الفرات تنازع ادى الى اتقاد نار الحرب بينهما كما كان بين البرطيين والرومانيين مع عناد شديد اغتنم به ملوك الحيرة اتساع مملكتهم بسواحل الفرات وكانوا لجيوش الفرس طلائع تغلبوا سنة ٢٧٢ بعد الميلاد على جزيرة دجلة والفرات وتوغلوا في التغلب حتى بلغوا مدينة انطاكية لكن تعذر عليهم ادارة الحكومة فيما فتحوه من البلاد فلزموا المقاتلة للنهب والسلب وكانوا مدبرين في الحروب يطمعون العدو بفرار يعود منه في الغالب الظفر بسبب رخاوة اليونان واستقلوا بمحاربتهم حتى حولوا جميع خزائن الاناضول الى تخت ملوك الحيرة فساغ لهم ان ينافسوا بالزينة والزخرفة ملوك المدائن وقياصرة القسطنطينية الذين انتقموا من عرب شمال الجزيرة فقد قاتلوهم في سني ٢٨٩ و٣٥٣ و٣٦٣ م واستولوا على الانبار وهزموا المنذر الاول سنة ٤٢١م هزيمة سفكت فيها دماء كثيرة ٠ وانهزم انسطاس سنة ٤٩٨ وجدد العداوة والحرب مع الفرس فكادت جزيرة دجلة والفرات تذهب منه باسرها سنة ٥٠٢ م٠ وشارك النعمان الثالث الفرس في محاربة الرومانيين وصد عنهم من وسط بلاد العرب سنة ٥٠٣ القبائل التغلبية أو البكرية مع رئيسهم الحرث بن عمرو المقصور على ملك الحيرة المتظاهرة بنصرة

ديانة مزدك المانوي الذي عزل المنذر الثالث من السلطنة سنة ٥١٨ م. ثم قتله كسرى بعد خمس سنين واعاد المنذر الثالث الى سلطنته وسائر حقوقه الملوكية ، ثم مكث نافذ الكلمة على العرب التابعين للفرس يشن الغارات من سائر الجهات على اليونان فلا يستطيعون رده فكان عصره ازهر اعصر المملكة الحيرية وما زالت كذلك حتى ملك النعمان الخامس ٥٨٣ ــ ٦٠٥ م فكان آخر ملوك العائلة اللخمية. وولي بعدئذ مملكة الحيرة عمال من قبل ملوك الفرس حتى ظهور النبي (ص) [١] .

قال هنري ماسه ما خلاصته ان بعض قبائل الجنوب هاجرت الى الشمال واسست امارات تختلف باختلاف الامبراطورية التي امتزجت بها ، فانشئت في اطراف الشام امارة الغساسنة لحماية حدود الامبراطورية البيزنطيـة ، وامارة اللخميين في الحيرةلحماية حدود الامبراطورية الساسانية ، ولهذا كانتا في حـرب مستمر . فكانت الحيرة عاصمة اللخميين ومن سكانها العباد وهم نصارى واصبحت الحيرة مركزاً علمياً . فاول ملك من ملوك اللخميين عرف تاريخ وفاته من قبره وذلك في ٣٢٨ م. ولم تصدهم محالفتهم مع الفرس عن الدخول في النصرانيـة النسطورية [٢] .

* * *

امارة الغساسنة

نزل الغساسنة مشارف الشام وفيها الضجاعم من قضاعة فغلبوهم على ما في ايديهم وانشأوا لانفسهم دولة تحت رعاية الروم عُرفت بدولة الغساسنة فتحضروا بتوالي القرون وعمروا المدن وشادوا القصور والقلاع وكانت عاصمتهم بصرى في حوران وتعرف انقاضها الان ببصرى اسكي شام أو بصرى الشام .

دخلت الشام في حوزة الرومان في القرن الاول ق.م وبادية الشام في حوزة الأنباط ومن والاهم وحالفهم من العرب ، فكان هؤلاء البدو يضايقون دولة الروم فينزلون اطراف المدن للغزو ويتعرضون للقوافل بالنهب ، ويئس الروم منهم فعمدوا الى مسالمتهم لاتقاء شرهم واشهرهم يومئذ الضجاعمة بنو سليح من قضاعة .

---

(١) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

(٢) الاسلام لهنري ماسه . H. Massé - L'Islam

وكانت العراق وفارس يحكمهما ملوك الطوائف بعد الاسكندر يستبد كل منهم بقسم منها يشتغلون بذلك عن مناوأة الروم اعدائهم القدماء حتى اذا نشأت الدولة الساسانية في أول القرن الثالث م وجمعت كلمة الفرس تحت لوائها اصبح الروم يخافونها على بلادهم لما بينهما من المنافسة القديمة فازدادت رغبتهم في تقريب العرب لا لاتقاء شرهم فقط بل للاستعانة بهم على أولئك المنافسين .

واتفق نزوح الغسانيين نحو الشمال كما تقدم وقد نزلوا البلقاء وفيها الضجاعمة وغيرهم من قبائل العرب وتنازعوا على المقام هناك وتنافسوا في النفوذ على اهل البادية فظهر الغسانيون ، فلما احتاج الروم الى نصرتهم استنصروهم وقربوهم فتنصروا بتوالي القرون واصبح لهم شأن في حروب الروم والفرس .

ولما نزل آل غسان الشام خيموا في باديتها من جهة حوران ثم سكنوا البلقاء وأذرح واتسعت مملكتهم باتساع سلطانهم فبلغت معظم اتساعها في أيام الحارث ابن جبلة واولاده واصبحت كلمة الغساسنة نافذة في حوران وسائر مشارف الشام وفي تدمر وامتد سلطانهم على سائر عرب سورية وفلسطين ولبنان وبدوهم وحضرهم . فشاد الغسانيون كثيراً من القصور والاديار وانشأوا المدن والقرى وبنوا القناطر واصلحوا الصهاريج فينسب اليهم بناء قسطل بالبلقاء وأذرح من أعمال الشراة والجرباء بجانبها ، ومما ينسب اليهم من القصور صرح الغدير والقصر الأبيض والقلعة الزرقاء وقصر المشتى وقصر الفضا وقصر منار وقصر السويداء وقصر بركة وقصر ابين ، وغيرها ومن الاديار دير حالي ودير الكهف ودير هناد ودير النبوة . ومن الابنية الاخرى القناطر وجسر عاملة واصلاح صهاريج الرصافة .

وآخر من عنى بالتنقيب عن تلك الآثار دوسو فارتاد جبال حوران ووعورها في اللجاه والحراء والرحبة وجبل الصفا واطلع على كثير من الآثار والانقاض فاستدل من ذلك على خط دفاع كان في اطراف حوران يفصل بينها وبين البادية ، وهذا الخط كان مؤلفا في الأصل من عدة حصون في جملتها القصر الأبيض والنمارة ودير الكهف والقلعة الزرقاء وقد شاهد انقاضها فرأى القصر الابيض مبنيا في منبسط من الارض مربع الشكل حوله سور فيه برج عال ، ووصف قصور النمارة ودير

الكهف وغيرها كما شاهدها وليست كلها من بناء الغسانيين وان كنا لا نعلم بانيها ، وعلى كل حال فالقصر الابيض يمتاز عنها بنقوش جميلة ، فيها صور طيور وخيول وفهود واسود وبقر وافيال حتى السمك ، وفيه شيء من الطرز الفارسي الساساني ، والمظنون ان الغسانيين بنوه في ظل ليقيموا فيه على حدود البادية لدفع العرب المهاجمين . ويرى دوسو خلاف ذلك مجاراة لنولدكه بقرب عهد الغساسنة وتلك الابنية اقدم منهم عهداً لا سيما وانهم عثروا في انقاض النمارة على اثر عربي مكتوب بالحرف النبطي سنة ٣٢٨ م. عن امير لخمي ولم يجدوا فيه ذكراً لامير غساني [١] .

قال سيديو : واما الأزد اليمنيون فرحلوا من اليمن ونزلوا سنة ١١٨ م. ببطن مرّ قرب مكة ثم تمزق شملهم بعد مئة سنة وسكنت عدة قبائل منهم قرب عين ماء تسمى بركة غسان فسموا الغسانية ثم توالت عليهم نصرات اتسع بها حكمهم فتوطنوا في برة وتقلد منهم ثعلبة الامارة على عرب تلك الجهة من قبل الرومانيين وخلفه في الحكم جفنة الاول اصل العائلة الغسانية التي آخرها جبلة السادس الذي امتد حكمه الى سنة ٦٣٧ م. وكان الغسانيون في تلك المدة مساعدين لقياصر القسطنطينية على الفرس [٢] .

قال هنري ماسه : لم يكن للغسانيين مقر معين فكانوا يتنقلون بين المقاطعات الفينيقية الفلسطينية وفي قسم من ارض النبطيين القدماء ، ولكنهم كانوا يفضلون غالباً الاقامة في المنطقة الواقعة في جنوبي دمشق تحت سلطة البيزنطيين ومن امتزاجهم بالبيزنطيين قد تنصروا وكان لهم القدح المعلى في الحضارة . وأول من يثق المؤرخون بامارتهم الحارث بن جبلة وقد عينه الامبراطور جوستنيان (Justinien) عام ٥٢٩ م. ومنحه لقب فيلارك وبطريق (Phylarque & patrice) « وهو اعلى لقب بعد الامبراطور أو رئيس القبائل العربية في الشام » . وفي اواخر القرن السادس م اخذت تعمل عوامل التقهقر والانحطاط في كيان الغسانيين ، وغدت

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

(٢) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

الاختلافات التي وقعت بين اللخميين والغسانيين تقع بين الروم والغساسنة ، ولما فتح المسلمون الشام كانت هذه الامارة قد تلاشت منذ بضع سنين [1] .

* * *

نجد والحجاز

كانت بلاد العرب في القرن السابع من الميلاد في اخطار عظيمة من الامبراطوريتين البيزنطية والساسانية المتمكنتين بحدودهما فقد أخذت كل منهما اقليما الحقته بمملكتها ، فالتجأت الامة العربية الى نجد والحجاز السالمين من تغلب الاجانب عليهما . هذان الاقليمان ليس فيهما دولة منظمة بل هما في ذلك الوقت وما قبله في قبضة قبائل متحدة الاخلاق والعوائد تخاطر باتلاف اموالها وانفسها حفظا لحريتها فبقي تاريخ هؤلاء الاقوام مدة قرون كتاريخ جماعات قليلة متحدة الكلمة لما بينهم من الترتيب السياسي المؤدي الى اتحادهم على غيرهم وان كان بعضهم منفصلاً عن بعض بما يقع من المنافسات والمشاجرات المقرونة بسفك الدماء وكانوا متساوين تقريباً في الاموال لتماثلهم في وسائلها الحربية ، ومن استغنى منهم بالتجارات فتلجئهم العلائق والمخالطات الى امور يعادلون بها غيرهم في الغنى .

واعظمهم سلطة الكنديون الذين هاجروا من الجنوب الى الشمال كغيرهم واقاموا في داخل الجزيرة حتى شادوا في اواخر القرن الخامس م امارة دعيت بامارة كندة وجاوروا اللخميين ولهم معهم وقائع انتصروا في اكثرها ، ولكن لم يطل هذا الانتصار حتى اجتمع عليهم الغساسنة واللخميون وانتقموا منهم شر انتقام ٥٢٩ م، ومن ثم اخذ يتقلص ظلها شيئاً فشيئاً امام الذين كانوا يستعينون بالروم والفرس على الكنديين .

وكان يلي امر مكة ولاة من جرهم قحطان وهي جرهم الثانية ولما جاء اسماعيل مكة مع ابيه ابراهيم صاهرهم ، وكان لاولاد اسماعيل بعد ابيهم مركز محترم لما لأبيهم من بناء البيت وان لم يكن لهم من الحكم شيء ، ولما ارتحل الأزد من مأرب

(١) الاسلام لهنري ماسه . Massé - L'Islam .

بعد السد كان منهم من عرج على مكة وهو حارثة بن عمرو الملقب بخزاعة وحارب جرهم فانتصر عليهم واجلاهم من مكة .

ووليت خزاعة امر مكة حيناً من الزمن وفي حكمهم تناسل العدنانيون وكثوا وانتشروا في نجد واطراف العراق والبحرين وبقي بمكة اولاد فهر بن مالك وهو قريش وليس لهم من امر مكة ولا البيت الحرام شيء حتى جاء قصي بن كلاب وهو الاب الخامس لمحمد بن عبد الله (ص) فجمع اشتاتهم ووحد كلمتهم فكانت لهم بذلك قوة استطاعوا ان يزاحموا بها خزاعة ويتغلبوا على امر مكة ، ولما لم يبق الا أمر ولاية البيت أخذه قصي من سادنه المكنى بابي غبشان وهو صهر قصي ، وبهذا كانت له السيادة التامة والامر النافذ وصار الرئيس الديني لذلك البيت الذي كانت تفد اليه العرب من جميع انحاء الجزيرة .

ومن مآثر قصي تأسيس دار الندوة بمكة وكانت مجمع قريش وفيها تفصل مهام امورها ولهذه الدار فضل على قريش لانها ضمنت لهم اجتماع الكلمة وفض المشاكل بالحسنى ، وكان لقصي من مظاهر الرئاسة والتشريف :

(١) رئاسة الندوة ففيها يتشاورون فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم .

(٢) اللواء فكانت لا تعقد راية الحرب الا بيده .

(٣) الحجابة وهي حجابة الكعبة لا يفتح بابها الا هو ، وهو الذي يلي امر خدمتها .

(٤) سقاية الحاج ورفادته ومعنى السقاية انهم كانوا يملأون للحاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب فيشرب الناس منها اذا وردوا مكة ، والرفادة طعام كان يصنع للحاج على طريق الضيافة ، وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة .

كان كل ذلك لقصي بن كلاب وكان ابنه عبد مناف قد ساد في حياة ابيه فاراد ابوه أن يلحق به ابنه عبد الدار الذي كان اسن من عبد مناف فاوصى له بما كان يليه من مصالح قريش فلم ينازع عبد مناف اخاه لاحترامه وصية ابيه .

ولما مات كان له اربعة من الولد وهم هاشم وعبد شمس وعبد المطلب ونوفل فنافسوا بني عمهم عبد الدار في هذه المصالح التي رأوا انفسهم احق بها لشرفهم وسيادتهم وكثرة عددهم ، وبذلك ابتدأ النزاع بين بني العم سببه المنافسة في الشرف ، وافترقت قريش فرقتين فرقة تساعد بني عبد مناف وفرقة تساعد بني عبد الدار ، وكاد يكون بينهم قتال لولا انهم الهموا الصلح على طريق لا يغض من الطرفين ، وهو اقتسام هذه المصالح فجعلوا لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ، ولبني عبد مناف السقاية والرفادة . ثم حكم بنو عبد مناف القرعة فيما اصابهم فخرجت لهاشم ابن عبد مناف فكان هو الذي يليهما ومن بعده بنوه حتى جاء الاسلام والامر على ذلك .

وكانت لقريش مصالح أخرى لا تساوي هذه في العظم وزعت بين قبائل قريش ، وبذلك كانت مصالح الحكم والولاية موزعة بين رؤساء القبائل المختلفة من قريش حتى لا يكون هناك مجال للنزاع وهذا ما حفظ قريشاً مما اصاب سائر العرب من التنازع والقتال ، الا انهم وان لم يصابوا بمصيبة الحروب لم يسلموا من المنافسة التي تكون حتماً بين كبراء البيت الواحد اذا كان لكل واحد ما يساعده على الشرف والرئاسة ، وقد حدث ذلك بين هاشم بن عبد مناف وابن اخيه أمية بن عبد شمس ، فقد كان هاشم سيداً بما له من المصالح الكبرى في قومه ، وكان أمية مثرياً من المال والولد ولذلك كان ينافس عمه رئاسة قريش ، فكان بذلك جفاء بين البيتين واعقابهما حتى جاء الاسلام ولكن لم يصل هذا النزاع يوماً الى حد شبوب القتال بينهم لأن البيت القرشي كان يحافظ على احترام البيت ومنع الحرم من سيلان دم فيه ولو وقع ذلك لأنحط المركز السامي الذي نالوه لولايتهم البيت ، فان مكة كانت معروفة عند العرب بأنها حرم آمن من لجأ اليه فقد نجا من عدوه ، وكانت اشهر الحج عندهم اشهراً حرماً يعقدون فيها اسواقهم التجارية بجانب ذلك البيت العظيم وداخل حدود الحرم ، والناس تهرع الى هذه الاسواق من جهات العرب كافة لأنهم آمنون على انفسهم واموالهم ، فاذا اخل ولاة الحرم بهذا العهد الوثيق قل احترامه من القلوب وسقطت هيبته فيجترىء عليه غيرهم ، وبذلك يزول عنهم نفع عظيم كان ينالهم ، فمن هنا كان التحكيم في الامور العظيمة من مألوف عاداتهم .

ولما حصلت الحرب بين قيس وكنانة واضطرت قريش اليها اضطراراً سمتها العرب حرب الفجار لما كان فيها من انتهاك حرمة الحرم والقتال على حدوده .

ومما امتازت به قريش حلف الفضول ، ومداره على ان ترد كل مظلمة بمكة الى صاحبها لا فرق في ذلك بين قرشي وغيره ، وهو روح ينافي الحمية الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها .

جاء الاسلام وقريش على هذه الحال من السيادة والاحترام تعترف لها بذلك جميع العرب .

وكانت المدينة في حوزة اقوام من اليهود منهم بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع ، ثم نزلها قبيلتان من الازد سنة ٣٠٠ م واخذاها سنة ٤٩٢ م وقاوما تابعة اليمن حين هجموا عليهما ، ثم فشلا وضعفا بحروب داخلية بين سنة ٤٩٧ ــ ٦١٥ م .

كانت قبائل اليهود تشتغل بالتجارة بجد واهتمام حتى كانت المدينة منافسة في ذلك العصر لمكة التي حجت اليها العرب واحترمتها لاختصاصها بالبيت المقدس .

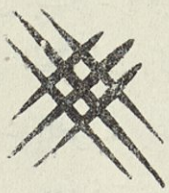

غزو الفاتحين

بلاد العرب

أقدم من غزا بلاد العرب من الدول المجاورة المصريون ، وأول من فعل ذلك منهم احمس مؤسس الدولة الثامنة عشرة ومنقذ مصر من دولة الهيكسوس ، فانه بعد ان اخرجهم من القطر المصري طاردهم الى اواسط شبه جزيرة سينا نحو سنة ١٧٠٠ ق٠م، ثم اضطر الى الرجوع لرد هجمات الاثيوبيين والنوبيين عن بلاده ٠

ثم حمل تحوطمس الثالث بجيشه على الشرق في القرن السادس عشر ق٠م فقطع برزخ السويس واكتسح اعالي جزيرة العرب ٠

وحول رعمسيس الثالث اعنة خيله عام ١٢٠٠ ق٠م نحو البلاد التي كانت تهدد مصر براً وبحراً وانشأ اسطولاً كبيراً انزله البحر الاحمر وسافر فيه لارتياد بلاد الحبشة والصومال وبلاد العرب ، وغرضه الرئيسي تسهيل سبل التجارة البحرية بين مصر واقصى الشرق ، ولم يكن له بد من توطيد العلائق الودية بين مصر وشواطىء ذلك البحر واليمن في جملتها ، وانشأ ايضاً طريقاً للقافلة منتظماً من القصير على البحر الاحمر الى قفط على النيل ، وانشأ خطوطاً تجارية منتظمة بين المحيط الهندي والنيل بطريق بلاد العرب ، وبعث الى جزيرة سينا وفداً لاكتشاف معدن الذهب وغيره من الخيرات التي كان اسلافه يعرفونها ، وكثيراً ما كانت الدول القديمة تطمع ببلاد العرب رغبة في ذهبها ، واقتدى برعمسيس الثالث رعمسيس الرابع عام ١١٦٦ ق٠م فافتتح طريقاً مختصراً الى بلاد العرب وكان الطريق اليها طويلاً ٠

وأول من حمل على بلاد العرب من الآشوريين تغلات بلاسر الثاني ، فقد غزاها في القرن التاسع ق٠م على أثر حربه في سورية فأصاب قبيلة من العرب على حدود مصر ٠

واتفق حوالى القرن الثامن ق٠م ان العرب في اعالي الحجاز غزوا السامرة ونهبوها وكانت في حماية الآشوريين ، فعمل سرجون الثاني على الانتقام بالشدة والعنف ، وعزم على اكتساح بلاد العرب كلها فأوغل فيها سنة ٧١٥ ق٠م حتى قطع البوادي الى اقصى البلاد العامرة وهو أول من بلغ الى هناك من الفاتحين ٠

وجاء بعد سرجون الثاني سنحاريب (٧٠٥ ــ ٦٨١ ق٠م) : بعد فتح صيدا وقبرص وارواد وعسقلان وغيرها بلغ غربي بلاد العرب وشماليها أي حوالى جزيرة سينا ٠

واقتفى اسر حدون اثر اسلافه في الفتوح ٦٨١ ــ ٦٦٨ ق٠م ، فحارب مصر وفينيقية واوغل في بلاد العرب ٠

وغزا اشور بانيبال (٦٦٨ ــ ٦٠٥ ق٠م) قبيلة من العرب كانت قد اعانت عدواً نازعه الملك ، فجرت معارك كبيرة بين الفرات وخليج فارس الى الشام فغلبهم الآشوريون واستولوا على البتراء وموآب ٠

وحارب بختنصر العرب وغزا بلادهم (٦٠٥ ــ ٥٦٢ ق٠م) فلقي جموع العرب فقاتلهم وهزمهم واكثر القتل فيهم وسار الى الحجاز ٠

واوقع سابور الفارسي في العرب وقتل واسر وقطع الخليج الى البحرين واليمامة والقطيف ٠

واما اليونان فقد حاولوا فتح بلاد العرب ولم يظفروا أو نوى أحدهم ولم يشرع كما اصاب الاسكندر الكبير ٠

فقد أغار اسكندر المذكور على مملكة دارا فانتصرت العرب لدارا فسار بجيوشه الى بلاد كنعان ومر منها الى وادي مصر مشاطئاً ساحل البحر الأبيض ثم رجع الى بابل وفكر بعد وصوله الى خلف نهر السند فيما صنعه العرب معه ورأى أن فتحه جزيرة العرب يحقق له السلطنة على سائر الممالك الغربية من آسيا فبعث ضباط اساطيله لاستكشاف سواحل الخليج الفارسي والبحر الأحمر فعاجله الموت فنجت العرب منه ومن رؤساء عسكره لاشتغالهم بعده بمصالحهم الخصوصية ٠

ولم يطمع الرومان في بلاد العرب الا أيام اغسطس فانفذ تلك الحملة بقيادة اليوس غالوس فعادت بالفشل ٠

الفصل الرابع

تمدن العرب

قبل الاسلام

يختلف سكان الشمال عن سكان الجنوب من وجوه : فيغلب على الاولين البداوة وعدم القرار وعلى الآخرين الحضارة والقرار متأثرين بعوامل طبيعية واجتماعية متباينة في الأصل : فبيئة الجنوب صالحة لان يتحضر اهلها ويقروا في ارضهم متنعمين بخيراتها فاسسوا مدنية يشهد بها التاريخ .

واما بيئة الشمال فهي غير صالحة لان يتحضر سكانه كما تحضر اهل الجنوب فقضت عليهم غالبا طبيعة ارضهم وقلة موردها لئلا يقروا فيها الا قليلا ولا ينشئوا مدنية وعمراناً الا نادراً .

قال الآلوسي : اما قحطان وهم عرب اليمن فقد كانوا على احسن ما يكون من التمدن والغالب منهم سكن البلاد المعمورة وبنوا القصور المشهورة وشيدوا الحصون المذكورة ، وكانت لهم مدن عظيمة قد شرح حالها أهل الأخبار على اتم وجه . هذه (سبأ) قد ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم فقال عز اسمه (لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) وكان لهم ملوك وأفيال دوخوا البلاد واستولوا على كثير من اقطار الارض ، كل ذلك يدل على كمال وقوفهم على العلوم التي لا بد منها في حفظ النظام وعليها مدار المعاش والانتعاش وسياسة المدن وتدبير المنزل والجيوش وتأسيس المدن واجراء المياه وغير ذلك مما لا يمكن وجوده مع الجهل وعدم المعرفة ، وكانت لهم اديان مختلفة وقد ارسل الله تعالى لهم من بلغهم ما اراد من الاوامر والاحكام فآمن من آمن وكذب من كذب كحال غيرهم من الامم ،

وكانت لهم اليد الطولى في كثير من الصناعات وكان للتبابعة والجبابرة منهم مذاهب في احكام النجوم وغيرها : كل ذلك من المسلمات التي لا يمكن لأحد التوقف في قبولها ولا التردد في الاذعان لها وقد نطق متواتر الاخبار الصحيحة بها .

واما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن بعد ان فرقتهم حادثة سيل العرم فكانوا على شريعة موروثة وعلم منزل من السماء ، وهو ما جاء به ابراهيم واسمعيل عليهما السلام الى ان اختل امرهم وتغير حالهم بمرور العصور وتطاول الدهور فاهملوا ما كانوا عليه من الدين وتركوا سديد القوانين ودانوا بما وضع لهم الخزاعي وابتدعه لاغوائهم من الأحكام الباطلة واقتدوا باقواله وافعاله ، فمن ذلك اليوم فشا الجهل بينهم وقل العلم فيهم واضاعوا صنائعهم وتشتتوا في الاطراف والاكناف ، ووقع التنازع والتشاجر بين القبائل وتكاثرت البغضاء بينهم ، فلم يبق عندهم علم منزل ولا شريعة موروثة من نبي ولا هم ايضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطب والحساب ونحوهما انما علمهم ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب او ما حفظوه من انسابهم وايامهم او ما احتاجوا اليه في دنياهم من الانواء والنجوم أو من الحروب ونحو ذلك ، وكانوا يقال لهم الامة الامية ، قال تعالى (هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) [1] .

وقال غوستاف لوبون ما خلاصته : ان المؤلفين الذين عاصروا زمن التوراة ذكروا تجارة عرب المدن ولا سيما اليمن . ووصف هيرودتس في القرن الرابع ق.م جزيرة العرب السعيدة بانها من اغنى بلاد المعمور . وقال استرابون : ان مأرب كانت ناحية عجيبة . واخذت الوثائق الاثرية تبرهن على ان اليمن كانت عاصمة مدن زاهرة وانها كانت ذات حضارة قديمة تضارع حضارة مصر القديمة . وبالرغم من قلة الوثائق الاثرية التي طابقت ما جاء في كتب المؤلفين الاقدمين يمكننا ان نذكر

---

(١) بلوغ الارب للآلوسي ج ٣ .

لجزيرة العرب قبل الاسلام مدنية زاهرة نسيت اليوم والتي تنتظر تاريخها كما انتظرت نينوى وبابل وغيرهما . ومن القليل الذي علمناه عن مدنية العرب قبل الاسلام يمكننا ان ندفع زعم اولئك الذين يعدون العرب من المتوحشين لانهم ظهروا على مسرح العالم قبل الرومان بقرون وحملوا الى العالم فضائل كثيرة وكانوا باتصال مع اعظم شعوب المعمور [1] .

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون . G. Le Bon - La civilisation des arabes

تمدن العرب

في جنوبي الجزيرة

الدولة والامة

كانت المملكة عندهم غالباً مؤلفة من قصور أو محافد يملك كلاً منها شيخ او امير هو صاحب القصر او المحفد ، وفي المحفد هيكل أو معبود وينسب القصر الى صاحبه أو الى ذلك المعبود ، ونشأ من اصحاب تلك القصور أو المحافد رجال طمعوا بجيرانهم واخضعوهم وانشأوا الدول الكبرى كالمعينية والسبأية والحميرية ، على ان هذه الدول كانت غالباً تجارية فاذا مدت سلطتها الى خارج اليمن فللاستعمار التجاري الا نادراً .

ورأس الحكومة عندهم وهو مطلق الحكم لا يخرج من قصره في مأرب أو غيرها من قصباتهم الا نادراً ، وقلما يعتنون بتنظيم الجند لقلة الحروب والفتوح الا ما يدفعون به عن انفسهم عند الحاجة او لحماية القوافل في اسفارها وانما كانوا يجمعون الرجال لاستخدامهم في بناء المدن والقصور او في انشاء السدود أو ترميمها ، وكانت الحكومة عندهم وراثية تنتقل الى الابناء او الاخوة الا حضرموت قبيل النصرانية . فقد ذكر استرابون : ان الملك فيها لا ينتقل من الاب الى الابن أو احد أهله وانما هو ينتقل الى اول مولود من الاشراف ولد في اثناء حكمه ، وان من عاداتهم الاحتفال ببيعة الملك ان يرفعوا اليه قائمة باسماء نساء الاشراف الحوامل فيعين لكل منهن من يخدمها ويراقب وضعها ليعلموا السابقة الى الوضع وهل وضعت غلاماً أو جارية فاذا كان غلاماً امر الملك بمن يعتني بتربيته واعداده للملك كما يربى ولاة العهد اليوم [1] .

وكان لملوكهم القاب مثل يثع وريام في الدولة المعينية وبيين وينوف ووتار

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

في الدولة السبأية ، وقد ضرب اليمنيون نقوداً نقشوا عليها صور الملوك واسماءهم واسماء المدن التي ضربت فيها بالحرف المسند وزينوها برموز سياسية أو اجتماعية كصورة البومة أو الصقر أو رأس الثور رمز الزراعة والفلاحة أو صورة الهلال وهو رمز ديني عندهم .

ويؤخذ من صورهم على النقود التي وصلت الينا ان ملوك اليمن كانوا يضفرون شعورهم جدائل يرسلونها على أقفيتهم أو على جانبي رؤوسهم أو خديهم ويظهر أنهم لم يكونوا يرسلون لحاهم ولا شواربهم لاننا لا نجد لها صورة على النقود ولا غيرها من الصور التي اكتشفوها في اليمن حتى الآن .

وكانوا يركبون الافراس أو المركبات تجرها الخيول او الافيال ولا سيما بعد اختلاطهم بالاحباش على عهد الدولة الحميرية . ذكر ثيوفاتس : خبر الوفد الذي ارسله جوستنيانوس قيصر القسطنطينية في اوائل القرن السادس م الى ملك حمير ، ورئيس الوفد اسمه يوليانوس قال : انه رأى الملك واقفاً على مركبة يجرها اربعة افيال وليس عليه من الالبسة الا مئزر محوك بالذهب حول حقويه واساور ثمينة في ذراعيه يحمل بيده ترساً ورمحين وحوله رجال من حاشيته وعليهم الاسلحة يتغنون باطرائه وتفخيمه فلما وصل السفير وقدم له كتاب القيصر تناوله الملك وقبله ثم قبل السفير نفسه وقبل الهدايا التي حملها ، وفحوى الكتاب ان يرسل رجاله لدفع الفرس عن حدود بلاده ويحفظ طريق التجارة مفتوحاً لتجار الاسكندرية فوعد السفير انه فاعل ذلك [1] .

واما الامة في دول اليمن فهي مؤلفة من اربعة طبقات أو طوائف : (١) الجند المسلح لحفظ النظام وحماية القلاع وحراسة القوافل (٢) الفلاحون لزراعة الارض واستغلالها (٣) الصناع (٤) التجار .

* * *

الزراعة

من يجوب بلاد العرب حتى يأتي حيث كانت مدائن معين وسبأ وحمير لا يرى

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

الا رمالاً محرقة وجبالاً جرداء يستغرب ما يسمعه عن ثروة تلك الامم وسعة سلطانها ، والحقيقة ان تلك البادية المحرقة كانت على عهد ذلك التمدن بساتين وغياضاً فيها الاغراس من الاشجار والرياحين والحنطة والازهار ، وكانت الزراعة في رقي حسن مع مشقة الري في بلاد لا نيل فيها ولا فرات وانما هي تسقى من السيول في الشتاء فاذا اقبل الصيف شحت المياه ويبس الزرع ، فبلغ من رغبتهم في العمارة انهم انشأوا سدوداً يحجزون بها المياه في الاودية حتى ترتفع ويسقوا بها المرتفعات يصرفون الماء اليها من نوافذ حسب الحاجة كما يفعلون بخزانات هذه الايـام .

ذكر استرابون : ان بلاد سبأ اخصب بلاد العرب وذكر من محصولاتها البخور والبلسم والقرنفل وسائر العطريات فضلاً عن النخيل وغيره [1] .

* * *

عمارة اليمن

انشأ العرب في اليمن مدناً اندثر اكثرها ولم يبق الا خبره مثل مأرب ومعين وبراقش وظفار وشبوة وناعط وبينون وصنعاء وغيرها ، واصل العمارة في مدن اليمن القصور والمحافد وهي اشبه بالقلاع أو الهياكل يقيم فيها الاذواء . وربما احتوت المدينة الكبيرة على عدة قصور وهياكل فخمة البناء كثيرة الزينة . وقد اطرى استرابون زخرف تلك القصور وقال : انها تشبه بشكلها القصور المصرية [2] .

واشهر مدائن اليمن مأرب وتسمى سبا ويؤخذ مما وقفوا عليه من انقاضها انها كانت مستديرة الشكل قطرها نحو كيلومتر يحدق بها سور له بابان احدهما شرقي والآخر غربي وبجانب الباب الغربي كتابة تفسيرها انه من بناء يثعمر بيين ابن سمهعلي ينوف مكرب سبا .

ومن مدن اليمن القديمة معين وبراقش وشبوة وظفار وصنعاء وقد اندثر اكثرها ولم يبق لها اثر ، اما معين فقد خربت وغطتها الرمال حتى خفيت عن اهل اليمن

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .
(٢) تاريخ العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

انفسهم فكشفها هاليفي ، واما صنعاء فكانت أحدث عواصم اليمن قبل الاسلام نزلها الاحباش بعد فتح اليمن وفيها عدة قصور اشهرها غمدان .

قال الهمداني : ومن محافد اليمن براقش ومعين وهما باسفل جوف أرحب في اصل جبل هيلان وهما متقابلتان ، فمعين بين مدينة ريشان وبين درب سراقة موضع آل يونس بن سعيد بن مراد وهي خراب خاوية على عروشها . واما براقش فقائمة وهي في اصل جبل هيلان .

وبالجوف سوى براقش ، ومعين ، والبيضاء ، والسوداء مآثر فيها آثار عجيبة وقصور خربة بين الجوف ومأرب يعدن الناس منها الذهب القبوري ودنانيرهم ودراهمهم عليها صور [1] .

وقال الهمداني عند ذكر مأرب : وهي كثيرة العجائب ــ واما مقاسم الماء من مذاخر السد فيما بين الضياع فقائمة كأن صانعها فرغ من عملها بالامس . ورأيت بناء الصدفين باقياً وهو الذي يخرج منه الماء قاتماً تخاله على اوثق ما كان ولا يتغير ، وكان السيل يجمع من اماكن كثيرة ومواضع جمة باليمن . وكان بمأرب قصر سلحين والهجر والقشيب .

وقال الهمداني : قد نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها سوى غمدان فانه لم يبق منه سوى قطعة من اسفل جدار فلم ار مثل ناعط ومأرب وضهر ولناعط الفضل ، وهي مصنعة بيضاء مدورة منقطعة في رأس جبل ثلين وهو أحد جبال البون وهو جبل مرتفع مقابل لقصر تلفم وهو جبل في سرة همدان وهي ريدة [2] .

وقال : ومن قصور ناعط يعرق وقصر ذي لعوة المكعب وذلك بكعاب خارجة في معازب حجارته على هيئة الدرق الصغار وذرعت في معزب منه سبعة اذرع الا ثلثا بالذراع التامة وبها سوى هذين القصرين ما يزيد على عشرين قصراً كباراً سوى اماكن الحاشية وكان عليها سور ملاحك بالصخر المنحوت وما فيها قصر الا وتحته كريف للماء مجوف في الصفا مصهرج فما ينزل من السطح ابتلعه . وفيها

---

(١) الاكليل للهمداني ج ٨ .

(٢) الاكليل للهمداني ج ٨ .

الاسطوانات العظيمات طول كل واحد منها نيف وعشرون ذراعا مربعة ولا يحضن الواحدة منها الا رجلان . وفيها بقايا مسامير حديد قيل انها كانت مراقي الى رؤوسها .

ووصف ريدة أو تلفم فقال : وليس من قصور اهل اليمن قصر في اصل جبله بئر سوى تلفم وهي بئر فليس في اليمن اغزر منها مجرى ولا أعذب منها ماء ــ الى أن قال : فاما حجارتها وبناؤها فتدلان على القدم .

ومن قصور اليمن واقدمها غمدان قال الهمداني : أول قصور اليمن وأعجبها ذكراً وابعدها صيتاً قصر غمدان وهو قصر أزال وهو في صنعاء وكان غمدان عشرين سقفاً غرفاً بعضها على بعض ــ ولما بنى غمدان صاحب غمدان وبلغ غرفته العليا اطبق سقفها برخامة واحدة وكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر بها الطائر فيعرف به الغراب من الحدأة من تحت الرخامة وكانت حروفه اربعة تماثيل أسود من نحاس مجوفة [1] .

ثم عدد قصور اليمن ووصفها وصف عيان ومشاهدة شاهد واكثرها خاوية على عروشها وذلك في القرن الرابع هـ ، واخذ يورد ما كانت عليه هذه القصور من ضخامة البناء ومتانته حتى كاد الباحث لا يصدق كثيراً مما اورده ويحسبه من المبالغات في مكان سحيق حتى ذهب ارنو وهاليفي وغلازر وشاهدوا آثار تلك العمارة فوجدوا الرجل صادقاً في ما ذكره .

ومن علامات العمارة في اليمن الاسداد التي كان يقيمها العرب لحجز السيول ورفع المياه لري الارضين المرتفعة كما يفعل اهل هذا العصر في بناء الخزانات ومن الاسباب التي دفعت العرب لاقامة هذه الاسداد قلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في احياء زراعتها فلم يتركوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء الا وحجزوا سيله بسد فتكاثرت الاسداد بتكاثر الاودية .

* * *

التجارة

ان توسط بلاد اليمن بين امم العالم القديم جعلها واسطة التجارة بينها من

(١) الاكليل للهمداني ج ٨ .

اقدم ازمنة التاريخ ، فكان بينها وبين الهند علائق تجارية لا يعرف اولها . فكان للهنود محصولات ومصنوعات يحتاج اليها المصريون والاشوريون والفينيقيون ينقلون هذه المتاجر الى تلك الامم في سفن البحر او قوافل البر .

اما الاصناف التي كانوا يحملونها من الهند فهي الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والافاوية كالبهار والفلفل ونحوهما والقطن .

وكانوا يحملون من شواطىء افريقية الشرقية العطور والاطياب وخشب الابنوس وريش النعام والذهب والعاج ، ويحملون من الحاصلات البخور واللبان والمر واللادن وبعض الاحجار الكريمة كالعقيق واليشب ، ويحملون من سوقطرة العود والند ، ويحملون اللؤلؤ من البحرين .

فكان يحمل الهنود والافريقيون هذه الاصناف الى اليمن او يذهب اليمنيون انفسهم لاستجلابها ، ثم يحملونها الى مصر والشام والعراق ، وكانوا يفضلون حملها بالبر على القوافل فراراً من اخطار الانواء في البحر الاحمر أو خليج فارس لانهما اشد خطراً عندهم من بحر الهند .

وكانت علائقهم التجارية وثيقة مع اخوانهم الفينيقيين يحملون اليهم اصناف الهند وغيرها على القوافل الى صور وغزة وغيرهما من شواطىء البحر المتوسط لتحمل من هناك الى سائر الشواطىء ، وكان السبأيون يحملون من الجهة الاخرى مصنوعات صور ومحصولات الشام الى بلادهم وغيرها بطريق المبادلة قبل سك النقود اهمها الحنطة والزيت والخمر ومصنوعات فينيقية او ما يحمل من آسيا الشرقية كالمنسوجات الكتانية والقطنية والارجوان والزعفران والآنية من الحديد وسبائك الفضة ، والفينيقيون انفسهم كانوا ينقلون بعض هذه المتاجر من الجنوب وان كان اكثر اسفارهم الى الشمال وكان لهم على شواطىء خليج العجم مستودعات .

* * *

أديانهم

تبين من النقوش الاثرية التي عثر عليها الباحثون في جنوبي الجزيرة ان سكانها

كانوا يعبدون القمر والشمس على صور شتى وتحت اسماء مختلفة ، ولما كانت الشمس هي النير العظيم فان عبادتها بينهم تغلبت على سواها .

وكانوا يدلون على آلهتهم بنقوش شتى فان اصحاب الاسفار الحديثة وجدوا في الكتابات الحميرية ذكراً لآلهتهم فمنها للاله مالك والاله رحمان والاله رحيم واله عزيز . وربما نسبوا آلهتهم الى بعض الامكنة التي كانوا يكرمون فيها مثاله .

وقد خصصوا لديانتهم امكنة كانوا يفردونها لذلك اما بمضارب يزينونها باصناف الجلود والاقمشة او بتشييد بعض الابنية لهذه الغاية ، وكان بعضها فخماً كغمدان ، وبيوت الاصنام التي كانت لهم فهي البيوت المعروفة على اسم الكواكب السبعة .

وعمل اليهود على نشر ديانتهم في جنوبي الجزيرة حتى تهود كثير من قبائل اليمن ومن اشهر هؤلاء المتهودين ذو نواس وقد اشتهر بتحمسه لليهودية واضطهاده لنصارى نجران ، فنشر اليهود في البلاد تعاليم التوراة وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار ، ونشروا تفاسير المفسرين للتوراة .

دخلت النصرانية الى اليمن من جهة الجنوب ومن بلاد الرومان ، ونفذت اليها ايضاً من جهات الشمال وخصوصاً من العراق لان ملوك الفرس كانوا يسعون في محالفة ملوك اليمن ويتقربون الى اهلها ليستعينوا بهم على رد غارات الرومان ، وكذلك ملوك اليمن والحبشة ربما اوفدوا الوفود الى ملوك العجم ليبرموا معهم المعاهدات .

وكانت القوافل تسير ذهاباً وايباً من العراق الى اليمن ومن اليمن الى العراق ، فالنصرانية التي كانت بلغت في الشمال مبلغاً حسناً ما كانت لتهمل هذه الوسائط لنشر الدين المسيحي في الجنوب .

وارتأى دي ساي : ان نصارى الشمال من اهل العراق كانوا يترددون الى اليمن وانهم ادخلوا بين اخوانهم في الدين الكتابة السريانية [1] .

---

(١) النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ـ القسم الاول ـ للويس شيخو .

واهم موطن للنصرانية في الجنوب نجران وكانت مدينة خصبة عامرة بالسكان وكان يتولى امرها رؤساء ثلاثة السيد والعاقب والاسقف ، ويظهر ان السيد كان اختصاصه كأختصاص رؤساء القبائل فهو رئيسهم في الحرب وهو الذي يدبر امورهم الخارجية ويتولى امور العلاقات بينهم وبين القبائل الاخرى ، والعاقب يتولى الامور الداخلية الدنيوية ، والاسقف الامور الدينية .

قال ياقوت : وفد على النبي (ص) وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب والعاقب واسمه عبد المسيح والاسقف وهو ابو حارثة واراد الرسول (ص) مباهلتهم فامتنعوا وصالحوا النبي (ص) فكتب لهم كتاباً فلما ولي ابو بكر انفذ ذلك لهم فلما ولي عمر اجلالهم واشترى منهم اموالهم .

وكان بنجران كعبة قال ياقوت : وكعبة نجران هذه يقال ـ بيعة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة وسموها كعبة نجران وكان فيها اساقفة معتمون وهم الذين جاؤا الى النبي (ص) ودعاهم الى المباهلة [1] .

وكان نصارى نجران على ما يستظهر أوليري على مذهب اليعاقبة وهذا يعلل اتصالهم بالحبشة لانهم كانوا يعاقبة ايضاً اكثر من اتصالهم بالرومان [2] .

وقد نشرت المسيحية تعاليمها بين العرب واوجدت فيهم من يميل الى الرهبنة ويبني الاديرة ، وكان القسس والرهبان يردون اسواق العرب ويعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار .

* * *

لغتهم

ولغة عرب الجنوب في دورها الاخيرة (أي الحميرية) تختلف عن لغة سائر العرب في اصطلاحاتها واكثر الفاظها ولا سيما كتابتها فان خطهم كان يعرف بالقلم المسند وهو مخصوص بهم ، وكانت اقرب لغة عربية الى السريانية على ما يظهر

(١) معجم البلدان مادة نجران لياقوت طبعة ليبيسك .

(٢) فجر الاسلام لاحمد امين .

من آثار كتاباتهم بالمسند تتمشى مع اللغة العربية بنظام الاصوات اللطيف ونواميس تبديل الاصوات وعدة خاصيات للفعل ، ومع الحبشية بكتابتها الخاصة وليس فيها اداة التعريف ولها كلمات كثيرة لا توجد في اخواتها من اللغات ، وتختلف عن العربية والحبشية بنهاية الماضي بنون وبصيغة المصدر وخاصيات اخرى صرفية ونحوية وعدة خاصياتها تشترك فيها فقط مع العبرانية والآشورية ، وتشبه في اخرى منها اللغة الآرامية ولذلك لا يحسب بعض الباحثين اللغة الحميرية فرعاً من العربية بل يعدونها لغة قائمة بنفسها ، وذهب قوم ان الخط الحميري مشتق من الابجدية الفينيقية وانه يرتبط قليلاً بالخط الحبشي وذلك بعد ان قابل المحققون ما اكتشف من الكتابات في بلاد اليمن على الخط الحبشي والكوفي والفينيقي والعبراني .

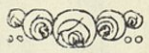

تمدن العرب

في شمالي الجزيرة

علمنا فيما مضى ان عرب الشمال تغلب عليهم البداوة وعدم القرار خلافاً لعرب الجنوب الذين يغلب عليهم الحضارة والقرار فلا غرو اذاً ان نجد تبايناً بين الفريقين من حيث الثقافة على اختلاف أنواعها .

* * *

لغتهم

تعرضت اللغة العربية لطواريء كثيرة مثل سائر اللغات الحية وتقلبت عليها احوال شتى فتنوعت الفاظها بالنحت والابدال والقلب ودخلها كثير من الالفاظ الاعجمية في اعصر مختلفة قبل ان تدون وتضبط في ازمنة لم يدركها التاريخ .

قضت لغة عرب الشمال ثلاثة ادوار رئيسية : ففي الدور الاول كانت لغة العمالقة وغيرهم من العرب البائدة سائدة ، والدور الثاني لما اصهر اسماعيل بن ابراهيم الى قبيلة جرهم ادخل تنقيحاً ثانياً في اللغة وجرت على اثره القبائل من اولاده كربيعة ومضر وكنانة ونزار وقيس ، والدور الثالث نقحت قريش بالتدريج انتخاباً من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم في كل عام وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوماً منها ثلاثة ايام بسوق ذي المجاز وسبعة بسوق مجنة وثلاثون بسوق عكاظ وعشرة في مناسك الحج .

ولما كانت تجارة قريش تقتضي تجشم الاسفار فقد شدوا رحالهم الى اليمن فالعراق فحوران فالحبشة فبلاد الفرس والهند وقد تذوقوا انواع العذوبة في ابلغ الالفاظ وافضل اللهجات وادق الاساليب والتراكيب والاصطلاحات من السنة تلك الامم ، وقد استعاروا من لغة الفرس اكثر مما اقتبسوا من سواها .

ذكر صاحب المزهر من الالفاظ الفارسية : الكوز والجرة والابريق والقصعة والسندس والياقوت والعنبر . ومما نقلوه عن اليونانية واللاتينية الفردوس والقسطاس والترياق ، ومن الحبشية المشكاة والهرج والمنبر والنفاق والبرهان ، ومن العبرانية الحج والكاهن [1] .

والخلاصة ان قريشاً كانت بمثابة مجمع لغوي يسمعون لغات مختلف القبائل وينتقون ما يفضلون فيحركون به السنتهم وقد ساعدهم وجودهم في جوار الكعبة وهي بيت حج الأعراب فارتفعت لغتهم على سائر اللغات واللهجات لانهم صاروا اقدر العرب على انتقاء افصح الالفاظ والينها واظهرها .

ومن ناحية اخرى فان اللغة تدل على حياة عقلية الامة التي تتكلم بها ، قال نولدكه : انا ليتملكنا الاعجاب بغنى معجم اللغة العربية القديم اذا ذكرنا مقدار بساطة الحياة العربية وشؤونها وتوحد مناظر بلادهم واطرادها اطراداً يدعو الى السآمة والملل ، وهذا يستتبع حتماً ضيق دائرة التفكير ، ولكنهم في داخل هذه الدائرة الضيقة وضعوا لكل تعبير ــ وان قل ــ كلمة تدل عليه ــ ويجب ان نقر بأن معاجم اللغة العربية قد تضخمت كثيراً بكلمات استعملها الشعراء وصفاً لاشياء فذكرها اللغويون على انها اسماء لتلك الاشياء ، فمثلاً اذا اطلق شاعر كلمة « الهيصم » على الاسد من الهصم وهو الكسر ، واطلق عليه آخر «الهرّاس» من الهرس وهو الدق ، وضع اصحاب المعاجم الكلمتين على انهما اسمان مرادفان للاسد وقد ادخل باب الهجاء ــ على الاخص ــ في اللغة وفي الادب العربي ــ وهو باب ذهب اكثر ما قيل فيه ــ تعبيرات كثيرة صاغها قائلوها في صورة مبتكرة واحياناً غريبة ــ وقد انتقص اللغويون ــ على ما يظهر ــ كلمات وردت في بعض الاشعار على قلة ، ولم تكن مستعملة الا في قبائل معينة ــ ولكن رغماً عن هذا كله يجب ان نعترف بان معجم اللغة العربية غني غنى رائعاً وسيبقى دائماً مرجعاً هاماً لتوضيح ما غمض من التعبيرات في جميع اللغات السامية الاخرى . وليست اللغة العربية

---

(١) الشهاب الراصد لمحمد لطفي جمعة .

غنية بكلماتها فحسب ، بل بقواعد نحوها وصرفها ايضاً فجموع التكسير واحياناً اسماء الافعال كثيرة كثرة زائدة عن الحاجة [1] .

ثم عقب احمد امين على قول نولدكه فقال : ونحن نوافقه في غنى اللغة العربية غنى مفرطاً في الحدود التي ذكرناها من قبل وهي الحدود التي رسمتها لهم بيئتهم ، فهم اغنياء في الجمل وما اليه ، والصحراء وما فيها ، والفاظ العواطف المحدودة التي تجيش في صدورهم ــ ولكن ليست غنية فيما خرج عن هذه الحدود كالبحر وعالمه ولا بأنواع الترف التي ينعم بها المنغمسون في الحضارة يعرفون القبيلة وما تفرع منها ويضعون لكل اسماً لان نظام القبيلة نظامهم ولكن لا يعرفون نظام الحكومات ولا انواع الدواوين فلم يضعوا لها بالضرورة اسماً ، فلما عرفوا معنى الديوان اخذوا اسمه عمن يعرفه وهكذا ، ولم يكن يتطلب منهم في الجاهلية ان يضعوا كلمات لما لم يمس حياتهم ــ فذلك محال ــ وحسب الامة فضلاً ان تسمي ما تشعر به الاسم والاسماء ، ولكن حسبها مذلة ان تتحضر وتتسع حياتها من جميع نواحيها ثم لا تريد الا ان تبقى ــ من حيث اللغة ــ في حدود الدائرة الضيقة التي رسمها لهم آباؤهم الاولون .

كذلك مما لا شك فيه ان اللغة العربية غنية باشتقاقها وتصريف كلماتها فوضع صيغة فعلية لكل زمن والمشتقات العديدة للدلالة على أنواع مختلفة من المعاني والاشخاص ، كل هذا يشعرنا شعوراً تاماً بغنى اللغة وصلاحيتها للبقاء [2] .

* * *

أمثالهم

كانت العرب تكثر من ضرب الامثال التي كثيراً ما كانت تنبع من افراد الشعب نفسه وتعبر عن عقلية العامة خلافاً للشعر الذي يعبر غالباً عن شؤون القبيلة التي ارتسمت في اذهانهم الراقية نوعاً من الرقي .

وامثال كل أمة تختلف عن الاخرى فالامة الزراعية لها امثال مشتقة غالباً من زراعتها ، والتجارية لها أمثال مشتقة من تجارتها ، وهكذا وانك لتستطيع ان

(١) فجر الاسلام لاحمد أمين .
(٢) فجر الاسلام لاحمد امين .

تطبق ذلك على العرب بعرضك امثالهم فتجدهم قد اكثروا من الامثال المتعلقة بالابل واللبن والجزور كقولهم أغدة كغدة البعير الخ . وان عرضت لامثال قريش رأيت فيها ما يدل على انهم قبيلة تجارية كقولهم : لا في العير ولا في النفير ونحو ذلك ، وبعبارة اتم بما يتعلق بالبيئة التي يعيشون فيها .

* * *

شعرهم

انصرف عرب الشمال غالباً الى نظم الشعر وتقديس الشعراء فكان الشعر وسيلة لانتشار فخارهم واعمالهم العظيمة ووقائعهم الجسيمة ، فكان الشاعر ينشد شرف قبيلته وطوراً يصف لذائذ الانتقام وتارة لطائف اكرام الضيف وطوراً الشجاعة واخرى يمدح شرف النفس والعرض وقد يقتصر على وصف العجائب المشاهدة والعزلة عن الناس في الصحارى وخفة عدو الظباء .

ويتخيل الشاعر انه راحل على جمل ومعه صاحب أو أكثر وقد يعرض له في طريقه اثر احبة رحلوا فيستوقف صحبه ويبكي معهم على رسم دارهم ويذكر اياماً هنيئة قضاها معهم وان العيش بعدهم لا يحتمل ، ثم يصف محبوبته اجمالاً او تفصيلاً ويخرج من هذا الى وصف الصيد ومنظره ومنازلته ــ وبعد هذا كله يتعرض للموضوع الذي من اجله انشأ القصيدة فيمتدح بشجاعته أو يتغنى بفعال قبيلته أو يعدد محاسن ممدوحه ويصف كرمه ، أو يفتخر بموقعة انتصر فيها قومه ، أو يهجو قبيلة عدت على قبيلته ، أو يحمل قومه على الاخذ بالثأر أو يرثي راحلاً الخ من الموضوعات التي تكون غالباً محدودة ضيقة ، أو بعبارة اخرى صورة صادقة لعيشة البداوة ، والحق انهم في البيان واللعب بالالفاظ كانوا أقدر منهم على الابتكار وغزارة المعنى فترى الواحد قد توارد عليه الشعراء فصاغوه في قوالب متعددة تستدعي الاعجاب ، ولكن لا يستدعي اعجابنا خلقهم للمعاني وابتكارهم للموضوعات .

فتراهم قد ضيقوا على انفسهم أو ضيقت عليهم بيئتهم فلم يجدوا الا أن يقولوا معاداً أو معاراً ، اللهم الا ابياتاً قليلة مبعثرة تشعر فيها بمعنى جديد ، وترى

فيها اثر الابتكار واضحاً ، والا شعراء نادرين كانت لهم مناح خاصة ، وشخصية واضحة وتسمع لقولهم نغمة جديدة ، كالذي تراه في زهير ، فقد عنى باخلاق قومه وعبر عنها تعبيراً صادقاً .

ولاعتماد اخبار الشعراء وسداد رأيهم كانوا المدونين لتاريخ بلادهم قبل البعثة والرافعين أو الخافضين شأن القبائل المختلفة كما يستصوبون ولذا كانوا مهابين محترمين عند الجميع وكان المقبول من قصائدهم يكتب بالذهب على نفيس القماش ثم يعلق على الكعبة ليحفظ حتى تطلع عليه الذرية فوصل الينا المعلقات السبع لامريء القيس المتوفى سنة ٥٤٠ م والحرث بن حلزة المولود في هذه السنة وطرفة المتوفى سنة ٥٦٤ م وعنترة بن شداد المتوفى سنة ٦١٥ وعمرو المتوفى سنة ٦٢٢ م ولبيد المتوفى سنة ٦٦٢ م .

وكانت العرب تجتمع كل ليلة تحت خيامهم ليسمعوا هذه المعلقات الجامعة بين محاسن الترنم وحلاوة التوقيع بلا تكلف مع اشتمالها على السجايا العربية المثيرة للحماسة .

وكانت القبائل تحتمي بشعرائها فكانت القبيلة منهم اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الاطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن بالاعراس وتباشروا به لانه حماية لاعراضهم وذب عن اجسامهم وتخليد لمآثرهم واشادة بذكرهم .

وكان الشاعر في مبدإ الامر ارفع منزلة من الخطيب لحاجتهم الى الشعر في تخليد المآثر وشدة المعارضة وحماية العشيرة وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل فلا يقدر عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته فلما تكسبوا به وجعلوه طعمة وتولوا به الاعراض وتناولوها صارت الخطابة فوقه .

* * *

خطبهم

كانت العرب في ايام جاهليتهم من الانفة والتفاخر بالاحساب والانساب والمحافظة على شرفهم وعلو مجدهم وسؤددهم حتى حدث ما حدث بينهم من

الوقائع والايام والخطوب والمهام ولا شك ان كل قوم يتفق لهم مثل ذلك هم احوج الناس الى ما يستنهض هممهم ويشجع جبانهم ويثير اشجانهم ويستوقد نيرانهم صيانة لعزهم ان يستهان ولشوكتهم ان تستلان وتشفياً بأخذ الثأر وتحرزاً من عار الغلبة وذل الدمار ، كثر فيهم الخطب والخطباء حتى كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب كما كان لكل قبيلة شاعر .

فكان الخطباء يتخيرون للخطب اجزل المعاني وينتخبون لها أحسن الالفاظ تحصيلاً لغرضهم ونيلاً لمقصدهم . وكان الخطيب اذا خطب في تفاخر وتنافر وتشاجر رفع يده ووضعها وادى كثيراً من مقاصده بحركات يده . ومن عوائد الخطباء اخذ المخصرة بأيديهم وهي ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها فلا يخطبون الا بالمخاصر وكانوا يعتمدون على الارض بالقسي ويشيرون بالعصا والقنا . ومنهم من كان يأخذ المخصرة في خطب السلم والقسي في الخطب عند الخطوب والحروب . وكانت العرب تستحسن في الخطيب ان يكون جهير الصوت ولذلك مدحوا سعة الفم وذموا صغره .

* * *

اديانهم

لعرب الشمال معتقدات مختلفة فكان منهم على دين ابراهيم وعبدة الاصنام وعبدة الكواكب والدهريون والزنادقة وعبدة الملائكة والجن والنار واهل الكتاب اليهود والنصارى .

اما الذين اتبعوا دين ابراهيم فكانوا يعظمون البيت ويحجون اليه ثم افترقوا فمنهم من بقي على اصل التوحيد ومنهم من اتبع من بقيت شريعته ولم تنسخ ملته كعيسى بن مريم وهذا الصنف نزر يسير لم يكونوا الا عدداً معلوماً في كل عصر الى زمن البعثة المحمدية .

واما عبدة الاصنام فهم الذين اقروا بالخالق وابتداء الخلق ونوع من الاعادة وانكروا الرسل وعبدوا الاصنام وحجوا اليها ونحروا لها الهدايا وقربوا القرابين وتقربوا اليها بالمناسك والمشاعر واحلوا وحرموا . وكانوا يعتقدون بعبادتهم

الاصنام عبادة الله تعالى والتقرب اليه لكن بطرق مختلفة . فرقة قالت : لسنا اهلاً لعبادة الله تعالى بلا واسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا اليه « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » . وفرقة قالت : جعلنا الاصنام قبلة لنا في عبادة الله كما ان الكعبة قبلة في عبادته ، وفرقة اعتقدت : ان على كل صنم شيطاناً موكلاً بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، والا اصابه بنكبة بأمر الله .

ومن اشهرها اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى قال ياقوت : اللات صنم كان لثقيف ، والعزى كانت لغطفان وكانوا بنوا عليها بيتاً واقاموا لها سدنة [1] .

فكانت قريش وسائر العرب تعظم اللات وسمت زيد اللات وتيم اللات ثم اتخذوا العزى وسمي بها عبد العزى بن كعب وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى فانهن الاصنام العلى وان شفاعتهن لترتجى وكانوا يقولون « بنات الله » وهن يشفعن اليه .

وزعم آخرون ان الشمس ملك من الملائكة لها نفس وعقل وهي أصل نور القمر والكواكب وتكون الموجودات السفلية كلها عندهم منها وهي ملك الفلك فتستحق التعظيم والسجود والدعاء فاتخذوا لها صنماً بيده جوهر على لون النار وله بيت خاص قد بنوه باسمه وجعلوا له الوقوف الكثيرة من القرى والضياع وله سدنة وقوام وحجبة يأتون البيت ويصلون فيه ثلاث كرات في اليوم ويأتيه اصحاب العاهات فيصومون لذلك الصنم ويصلون ويدعونه ويستشفون به ، واذا طلعت الشمس سجدوا كلهم لها واذا غربت واذا توسطت الفلك .

وذهب قوم ان القمر يستحق التعظيم والعبادة واليه تدبير هذا العالم السفلي فاتخذوا له صنماً على شكل عجل وبيد الصنم جوهرة يعبدونه ويسجدون له ويصومون له اياماً معلومة من كل شهر ثم يأتون اليه بالطعام والشراب والفرح والسرور ، فاذا فرغوا من الاكل اخذوا في الرقص والغناء واصوات المعازف بين يديه .

---

(١) معجم البلدان لياقوت مادة عزا طبعة ليبسيك .

وقوم عطلوا المصنوعات عن صانعها وقالوا « ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » وهؤلاء فرقتان : فرقة قالت : ان الخالق خلق الافلاك متحركة اعظم حركة دارت عليه فاحرقته ولم يقدر على ضبطها وامساك حركتها ، وفرقة قالت ان الاشياء ليس لها اول البتة وانما تخرج من القوة الى الفعل فاذا خرج ما كان بالقوة الى الفعل تكونت الاشياء مركباتها وبسائطها من ذاتها لا من شيء آخر ، وقالوا : ان العالم لم يزل ولا يزال ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله وهذا العالم هو الممسك لهذه الاجزاء التي فيه .

والصابئة يعتقدون في الانواء اعتقاد المنجمين في السيارات فلا يتحركون ولا يسكنون ولا يسافرون ولا يقيمون الا بنوء من الانواء ويقولون مطرنا بنوء كذا . واختلف في دين الصابئة اختلافاً كثيراً فقسمهم بعضهم الى قسمين صابئة حنفاء وصابئة مشركين ، والمشركون منهم يعظمون الكواكب السبعة والبروج الاثني عشر ويصورونها في هياكلهم ، ولتلك الكواكب عندهم هياكل مخصوصة وهي المتعبدات الكبار كالكنائس للنصارى والبيع لليهود ، فلهم هيكل كبير للشمس وهيكل لزحل وهيكل للمشتري وهيكل للمريخ وهيكل لعطارد ، ولهذه الكواكب عندهم عبادات ودعوات مخصوصة يصورونها في تلك الهياكل ويتخذون لها اصناماً تخصها ويقربون لها القرابين ولها صلوات خمس في اليوم والليلة ، وطوائف منهم يعظمون مكة ويحجون البيت ويحرمون الميتة والدم ولحم الخنزير ويحرمون من القرابات في النكاح ما يحرم المسلمون .

وافراد عبدوا الملائكة ، وطائفة من قريش تزندقت ، وشرذمة عبدت الجن ، واشتات من العرب عبدوا النار .

ودخلت اليهودية الى الحجاز لما طرد السريان واليونان اليهود من بلادهم فقابلهم بنو اسماعيل بالترحيب وتهود منهم كثير لما رأوه في كتب اليهود القديمة من التعظيم للاله الذي اهتدى الخليل الى عبادته واشتهر هذا الدين بالحجاز ولا سيما في خيبر والمدينة بين قبائل قريظة والنضير ذوات الشوكة المتأصلة من زمن مديد .

أضف الى هذا ان اليهودية حلت ببلاد العرب بعد ان تأثرت بالثقافة اليونانية تأثراً كبيراً لانها ظلت قروناً تحت الحكم اليوناني، ولانها كانت منتشرة في الاسكندرية وعلى شواطىء البحر الاحمر حيث الثقافة اليونانية وكان احبار اليهود من تعلم الفلسفة اليونانية وتأدب بآدابها فتسربت تلك الثقافة الى اليهودية .

ودخلت النصرانية غالباً الى شمال الجزيرة عن طريق الروم وعمالهم الغساسنة ممن كانوا يكثرون التردد الى هذه البلاد للتجارة وغيرها ، وانقسمت النصرانية في ذلك العهد الى جملة كنائس وان شئت فقل الى جملة فرق تسرب منها الى بلاد العرب فرقتان كبيرتان النساطرة واليعاقبة فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام .

كانت النصرانية من قبل دخولها جزيرة العرب تحمل في ثناياها شيئاً من الثقافة اليونانية كما هو الشأن في اليهودية فانها احدى الديانات التي ولدت في الشرق وانتشرت في الامبراطورية الرومانية ــ معهد الثقافة اليونانية ــ وكانت الاسكندرية هي المركز الجغرافي لمزج الدين بالفلسفة ، وفي العصور المسيحية الاولى كان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل ان يكونوا رجال دين لانهم رأوا من الضروري ان يؤيدوا انفسهم وعقائدهم امام الوثنيين فلجأوا الى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان فتسربت الى النصرانية فلسفة ارسطو وافلاطون وغيرهما وقد امتاز الشرق بأن انشئت فيه مدارس لاهوتية متأثرة بالفلسفة اليونانية تقليداً للاكاديميات اليونانية ، واشهر ذلك مدرسة الاسكندرية التي كانت في بدء القرن الثالث م ، وانشأ ملكيون سنة ٢٧٠ م مدرسة في انطاكية وانشئت في نصيبين مدرسة اخرى سنة ٢٩٧م وهذه كانت تعلم اللغة السريانية واليونانية معاً ، وكانت النساطرة على الاخص اكثر الماماً بعلوم اليونان ، وقد ترجموا كثيراً من الكتب اللاهوتية والفلسفية عن اليونانية كما اشتهروا بالطب والعلوم الطبيعية ، وكان من رجال الدين النساطرة اطباء بلاد فارس ومنهم كثيرون انتشروا في الحيرة ولعل هذا هو السبب في انه بعد ضعف شأن الحيرة وانتشار الاسلام في هذه البقاع كان اول حامل للواء العلم في الاسلام « البصرة والكوفة » لجوارهما الحيرة وكان اول كتب استخدمت لبث الثقافة اليونانية هي المكتوبة باللغة السريانية والتي خلفتها هذه

المدارس النسطورية وعلى العموم فقد كان هؤلاء النساطرة هم الصلة بين اليونان والعرب .

قال دوزي في كتابه تاريخ عرب اسبانيا : كان يوجد على عهد محمد (ص) في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية والعيسوية والوثنية .

فكان اليهود من بين اتباع هذه الاديان اشد الناس تمسكاً بدينهم واكثرهم حقداً على مخالفي ملتهم ، نعم كان يندر ان تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الاقدمين ولكن ما وجد فمنسوب الى اليهود وحدهم .

اما النصرانية فلم يكن لها اتباع كثيرون ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية ــ وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والاسرار بحيث يعز ان تسود على شعب حسي كثير الاستهزاء .

اما الوثنيون الذين كانوا هم السواد الاعظم من الامة فكان لكل قبيلة منهم آلهة خاصة وكانوا يصدقون بوجود الله ويعتبرون تلك الآلهة شفعاءهم لديه ، فقد كانوا يحترمون كهانهم واصنامهم بعض الاحترام ، ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان متى لم يتحقق اخبارهم بالمغيبات او لو عولوا على فضحهم عند الاصنام ان قربوا لها ظبية بعد ان نذروا لها نعجة ، وكان من العرب من كان يعبد الكواكب وخصوصاً الشمس فكنانة كانت تدين للقمر وللدبران ، وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للمشتري ، وكان الاطفال من بني عقد يدينون لعطارد ، وبنو طي يدعون سهيلاً ، وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعرى اليمانية ، وكان علمهم بما وراء الطبيعة على نسبة افكارهم الدينية [1] .

قال كوسان دوبرسفال : كان من العرب من يعتقد بفناء الانسان اذا خلعته المنون من هذا العالم ، وكان منهم من يعتقد بالنشوء في حياة بعد هذه الحياة ، فكان هؤلاء اذا مات احد اقربائهم يذبحون على قبره ناقة او يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً معتقدين ان الروح لما تنفصل عن الجسد تظهر بهيأة طير يسمونه الهامة او الصدى وهي نوع من البوم لا تزال تطير بجانب قبر الميت نائحة

(١) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي .

ساجعة تأتيه باخبار اولاده فاذا كان الفقيد قد مات قتيلاً تصيح صداه قائلة اسقوني ولا تزال تردد هذه اللفظة حتى ينتقم له اهله من قاتله لسفك دمه [1] .

ويقول هنري دي كستري (H. de Castries) : كان العرب قبل النبي (ص) امة وثنية على العموم ، وظل مذهب التوحيد يتردد في الخواطر ، فكان القائمون بهذا الاعتقاد يدعون بالاحناف وهم قوم تمسكوا بشريعة ابراهيم الخليل [2] .

* * *

علمهم بالانساب

كان للعرب مزيد اعتناء بضبط الانساب ومعرفتها لأنها احد اسباب الالفة والتناصر وهم كانوا احوج شيء الى ذلك اذ كانوا قبائل متفرقين واحزاباً مختلفين لم تزل نيران الحروب متسعرة بينهم والغارات ثائرة فيهم فحفظوا انسابهم ليكونوا متضافرين على خصومهم ومتناصرين على من شاققهم وعاداهم .

وطبقات انسابهم ست مراتب وهي شعب ثم قبيلة ثم عمارة ثم بطن ثم فخذ ثم فصيلة ، فالشعب مثل عدنان وسمي شعباً لان القبائل منه تشعبت ، ثم القبيلة وهي ما انقسم فيه انساب الشعب مثل ربيعة ومضر سميت قبيلة لتقابل الانساب فيها . ثم العمارة وهي ما انقسم فيه انساب القبائل مثل قريش وكنانة . ثم البطن وهو ما انقسم فيه انساب العمارة مثل بني عبد مناف . ثم الفخذ وهو ما انقسم فيه انساب البطن مثل بني هاشم . ثم الفصيلة وهي ما انقسم فيه انساب الفخذ مثل بني ابي طالب .

وكانت للعرب مذاهب في تسمية اولادهم فمنهم من سمى تفاؤلاً بالظفر على اعدائهم نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وغارم ومنازل ومقاتل ومعارك وطارق . ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد واسعد ومسعود وسعدي وغانم ونحو ذلك . ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الاجسام تفاؤلاً

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي .

(٢) الاسلام ــ خواطر وسوانح لهنري دي كستري H. de Castries - L'Islam - Impressions & études.

بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل • ومنهم من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمي ما تلده باسم اول من يلقاه كائناً ما كان من سبع أو ثعلب أو ضبع أو ظبي أو كلب أو نحو ذلك •

* * *

علمهم بالاخبار

من تتبع شعر العرب واستقرأه تبين له ما كان لهم من اليد الطولى في معرفة القصص وهي انواع منها ايام العرب : وهي تدور حول الوقائع الحربية التي وقعت في الجاهلية بين القبائل كيوم داحس والغبراء ويوم الفجار ويوم الكلاب او بين بعض العرب وامم اخرى كيوم ذي قار وكان بين بني شيبان والفرس وانتصر فيه العرب •

ومنها احاديث الهوى وهذا كثير في كتب الادب • ومنها قصص كثيرة عرفتها العرب عن الفرس وكانوا يروونها ويتسامرون بها •

* * *

علمهم بالكهانة والعرافة

هما لفظان لمعنى واحد تقريباً ، وفرق بينهما الاصفهاني فقال : الكهانة مختصة بالامور المستقبلة ، والعرافة بالامور الماضية [1] ، وعلى كل حال فالمراد بهما التنبؤ واستطلاع الغيب •

وعلى ذلك مدار فصل خصوماتهم ومنازعاتهم فكانوا يعتقدون في الكاهن القدرة على كل شيء فيستشيرونه في حوائجهم ويستطبونه في امراضهم ويستفتونه في ما اشكل عليهم ويستنبئونه عن مستقبلهم ، وبعبارة اخرى كانوا يعتقدون في الكهنة علم كل شيء وان ذلك يأتيهم بواسطة الارواح فمن كان منهم يعتقد التوحيد نسب ذلك الى استطلاع الغيب عن افواه الملائكة ، واذا كان من عبدة الاصنام اعتقد احتلال الارواح في الاصنام واباحتها أسرار الطبيعة للكهان والسدنة فيقول ان الاصنام تدخلها الجن (اي الارواح) وتخاطب الكهان وان الكاهن يأتيه الجن بخبر السماء •

---

(١) بلوغ الارب للآلوسي ج٣ •

فكل ما كان يصنعه الكاهن انما مصدره الغيب فاذا استطبه مريض من ريح أو صداع عالجه بالرقى ، واذا استشاره في معضلة خط له في الرمل او نفث في العقد ، واذا حكمه متخاصمان رمى لهما بالقداح ، واذا استطلعه سرقة اخذ قمقمة جعلها بين يديه ونفث فيها ونحو ذلك من الحركات الوهمية ، واذا استفسره برؤيا تمتم وتظاهر باستطلاع الغيب .

* * *

علمهم بالنجوم وكائنات الجو

كانت العرب تعرف حركات الكواكب وطلوعها وغروبها بقدر ما تمس اليها حوائجهم فقسموا الفلك الى اثني عشر قسماً وسموا كل قسم برجاً وهي :

الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة وهذه البروج الستة شمالية ، والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت وهذه الست جنوبية ، وجعلوا كل ثلاثة منها لفصل من فصول السنة الاربعة .

وللحمل ثلاثة عشر كوكباً ، وللثور اثنان وثلاثون كوكباً ، وللجوزاء ثمانية عشر كوكباً ، وللسرطان تسعة كواكب ، وللاسد سبعة وعشرون كوكباً ، وللسنبلة ستة وعشرون كوكباً ، وللميزان ثمانية كواكب وللعقرب احد وعشرون كوكباً ، وللقوس احد وثلاثون كوكباً ، وللجدي ثمانية وعشرون كوكباً ، وللدلو اثنان واربعون كوكباً ، وللحوت اربعة وثلاثون كوكباً .

واما مخايل العرب في الانواء ومهاب الرياح فلما كانوا في ضنك من العيش وكلف من الحاجة الحوا في تتبع مواقع القطر وأوغلوا في بطون الاودية وجابوا منابت الشجر فامتدت اعناقهم نحو السماء لمطالعة علائم الظفر بمقصودهم فكانت لهم مخايل في الانواء فعرفوا السحاب الممطر من غيره ووقفوا على الرياح وخواصها وادركوا ما يعقبها من الحوادث .

* * *

علمهم بالطب

كان التطبيب بالرقى شائعاً في العرب ، واما معالجتهم فكانوا يعالجون المريض

بالعقاقير البسيطة أو الاشربة وخصوصاً العسل فانه كان قاعدة العلاج في امراض البطن ــ على ان اعتمادهم في معالجة الامراض كان معظمه في باب الجراحة كالحجامة والكي وكثيراً ما كانوا يعالجون بالقطع او البتر والغالب ان يكون ذلك بالنار فان النار عندهم كانت تقوم مقام مضادات الفساد عندنا ، فاذا ارادوا فصل عضو احموا شفرة بالنار وقطعوه بها ، وكانوا يعالجون حول البصر بادامة النظر الى حجر الرحى في دورانه زاعمين ان العين تستقيم به ، ومن معالجتهم ان المجروح اذا شرب الماء مات واذا خافت المرأة حتى برد قلبها سقوها ماءً حاراً .

* * *

علمهم بالخيل والرمي بالسهام

اجادت العرب معرفة شؤون الخيل اكثر من غيرها لان البيئة قضت عليهم ان يتقنوها اتقاناً ربما تفردوا به فعرفوا فيها عيوباً ومحاسن جمة وحسبوا لكل عضو من اعضائها ما يعيبه أو يحسنه فسموا لها مائة عيب : في جريها اربعة وعشرون ، وفي خلقتها ستة وخمسون ، وعشرون حادثة .

واما الرمي بالسهام فقد اعتنت العرب اعتناءً عظيماً بتعلمه بالتلقي والعمل لان القسي والرمي بالسهام كانت من انكى اسلحتهم التي يستعملونها في حروبهم وغاراتهم فنوعوا في وصفها وتجزئتها وتسميتها .

فوصفوا للاصابات سبعة اوصاف : الخاضل (الذي يقرع الشن [1] ، ولا يخدشه ، والخازق الذي يخدشه ولا يثقبه ، والخاسق الذي يثقبه ويثبت فيه ، والحابي ان يدني الرامي يده من الارض فيرميه فيمر على وجه الارض فيصيب الغرض ، والمارق الذي يمرق الشن اي يثقبه وينفذ فيه ، والخارم الذي يخرم طرف الشن أي يقطعه ، والمزدلف الذي يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الغرض.

وجعلوا للنضال ثلاثة انواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة : فالمبادرة ان يشترط المناضلان اصابة عشرة من عشرين فيبتدر أحدهما الى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة ان يقولا نرمي عشرين رشقاً على ان من فضل صاحبه بخمس

---

(١) القربة الخلق الصغيرة .

اصابات فقد نضله فاذا اشترطا ذلك ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً واصابا اصابات نظر ان استويا في الاصابة لم يحصل النضل وان تفاوتا في الاصابة حط الاقل عن الاكثر فان بقي لصاحب الاكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه وان بقي له اقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل ، والمناضلة ان يشترطا عشرة من عشرين على ان يستوفيا جميعاً فيرميان معاً جميع ذلك فان اصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل وان اصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها فقد نضل صاحبه .

ولما كانت القوس لدى العرب بما ذكرناه من المنزلة وضعوا لها ولاجزائها اسماء كثيرة ذلك شأن كل ما كان لهم به هوى ولحظوه بعين العناية ، فقالوا القوس وكبدها ما بين طرفي العلاقة والكلية تلي ذلك ثم الابهر يلي الكلية الخ .

* * *

عاداتهم

ومن عادات العرب في الجاهلية الوشم والنياحة على الهالك منهم والندب ونحو ذلك .

وانهم اذا اسروا اسيراً وكان شاعراً ربطوا لسانه بنسعة .

وحمل الامراء على الاعناق اذا مرضوا ، وتحريم الخمر على انفسهم الى أن يأخذوا بثأرهم .

والوأد فمنهم من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من اجلهن ، ومنهم من كان يئد من البنات من كانت زرقاء او شيماء او برشاء او كسحاء تشاؤماً منهم بهذه الصفات ، ومنهم من كان يقتل اولاده خشية الانفاق والاملاق ، ومنهم من كان ينذر اذا بلغ بنوه عشرة نحر واحداً منهم .

والميسر وهو ان يجتمع الفتيان منهم ذوو اليسار ويشترون جزوراً ويدعون الجزار فينحرها ويجعلها عشرة اجزاء فاذا قسمت الجزور على ما تقدم حضر الايسار وجيء بالقداح .

والاستقسام بالازلام وذلك انهم اذا أرادوا سفراً او تجارة او نكاحاً او اختلفوا

في نسب أو أمر قتيل أو تحمل دية المقتول أو غير ذلك من الامور العظيمة جاء الى هُبَل وهو اعظم صنم لقريش بمكة وكان في الكعبة ومعهم مائة درهم فاعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم وكانت ازلامهم سبعة قداح محفوظة عند سادن الكعبة وخادمها وهي مستوية في المقدار عليها اعلام وكتابة .

والمعاقرة وهو ان يتبارى الرجلان كل واحد منهما يجادل صاحبه فيعقر هذا عدداً من ابله ويعقر صاحبه ، فايهما كان اكثر عقراً غلب صاحبه ونفره ، واذا قال قائل منهم : هذا ابني قد خلعته كان لا يؤخذ بجريرته وذنبه ، وجز النواصي فكانوا اذا انعموا على الرجل الشريف بعد اسره جزوا ناصيته واطلقوه فتكون الناصية عند الرجل فيفتخر بها .

وانهم كانوا يرون ان اكل لحوم السباع يزيد في الشجاعة والقوة .

وانهم كانوا يوقدون النار للمسافر الذي لا يحبون رجوعه خلفه ، وكانوا اذا خرجوا الى الاسفار اوقدوا نارا بينهم وبين المنزل الذي يريدونه ولم يوقدوها بينهم وبين المنزل الذي خرجوا منه تفاؤلاً بالرجوع اليه ، ولهم نيران كثيرة غير هذه .

والاستعاذة بالجن فكان الرجل منهم اذا ركب مفازة وخاف على نفسه من طوارق الليل عمد الى واد ذي شجر فاناخ راحلته في قرارته وهي القاع المستديرة وعقلها وخط عليها خطاً ثم قال : اعوذ بصاحب هذا الوادي .

وان المرأة منهم كانت اذا عسر عليها خاطب النكاح نشرت جانباً من شعرها وكحلت احدى عينيها مخالفة للشعر المنشور وحجلت على احدى رجليها ويكون ذلك ليلاً وتقول ابغي النكاح قبل الصباح .

والتشاؤم بالغراب ونحوه من الطيور وسائر الحيوان فكانوا يضربون الغراب مثلاً في الشؤم فقالوا فلان اشأم من غراب البين . والعدول عن الالفاظ المتطير بها الى غيرها فكانوا يتطيرون من ذكر البرص فتكنى عنه بالوضح ، وانهم اذا اوردوا البقر فلم ترد ضربوا الثور ليقتحم الماء فتقتحم البقر بعده ويقولون ان الجن تصد البقر عن الماء وان الشيطان يركب قرني الثور .

وان الرجل منهم كان اذا سافر عمد الى خيط فعقده في غصن شجرة أو في ساقها فاذا عاد نظر الى ذلك الخيط فان وجده بحاله علم ان زوجته لم تخنه وان لم يجده او وجده محلولا قال : قد خانتني الخ من العادات والاطوار التي كان يأتيها اولئك العرب .

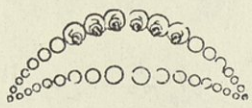

مصادر الباب الاول

العبر وديوان المبتدا والخبر ـ الجزء الثاني ـ لابن خلدون •

تاريخ الامم والملوك ـ الجزء الثاني ـ للطبري •

احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ـ للبشاري ـ طبعة ليدن •

مروج الذهب ـ الجزء الاول ـ للمسعودي •

سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ـ للسويدي •

مقدمة ديوان العبر وديوان المبتدا والخبر ـ لابن خلدون •

المختصر في اخبار البشر ـ الجزء الاول ـ لأبي الفداء •

معجم البلدان ـ مادة عرب وعزا ونجران ـ لياقوت ـ طبعة ليبسيك •

صفة جزيرة العرب ـ للهمداني ـ طبعة ليدن •

الاكليل ـ الجزء الثامن ـ للهمداني •

العمدة ـ لابن رشيق •

تاريخ اليمن لعبد الواسع اليماني •

بلوغ الأرب في احوال العرب ـ لمحمود شكري الآلوسي •

فجر الاسلام ـ لأحمد امين •

دائرة المعارف ـ مادة حمير ـ للبستاني •

دائرة معارف القرن العشرين ـ مادة بعث ـ لمحمد فريد وجدي •

تاريخ العرب قبل الاسلام ـ لجرجي زيدان •

تاريخ التمدن الاسلامي ـ الجزء الثالث ـ لجرجي زيدان •

تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الاول ـ لجرجي زيدان •

تاريخ الامم الاسلامية ـ الجزء الاول ـ لمحمد الخضري •

تاريخ الشعوب الاسلامية ـ لبروكلمان •
خلاصة تاريخ العرب ـ لسيديو •
الشهاب الراصد ـ لمحمد لطفي جمعة •
النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ـ الجزء الاول ـ للويس شيخو •
جغرافية شبه جزيرة العرب ـ لعمر رضا كحالة •

المعلمة الكبرى ـ مادة عرب — La grande encyclopédie - art Arabie & arabe

معلمة الاسلام ـ مادة عرب — Encyclopédie de l'Islam - art. Arabie

لاروس القرن العشرين ـ مادة عرب — Larousse du XXe siècle - art. Arabie.

لاروس المصور الجديد ـ مادة عرب — Nouveau larousse illustré - art. Arabie.

حضارة العرب لغوستاف لوبون — G. Le Bon - La civilisation des arabes.

الجغرافية العمومية ـ آسيا الغربية لبلنشار — R. Blanchard - Géographie universelle. Asie occidentale.

العالم ـ جزيرة العرب لدفرجه — M. Nœl Desvergers. L'univers - Arabie.

الاسلام ـ لهنري ماسه — H. Massé - L'Islam.

الحضارة الفينيقية لكونتنو — G. Contenau - La civilisation phénicienne.

الاسلام ـ خواطر وسوانح لهنري دي كستري — H. de Castries - L'Islam - Impressions & études.

المعلمة البريطانية ـ مادة عرب — Encyclopedia britannica - art Arabia & arabs

الباب الثّاني

البعثة المحمّدية

الفصل الأول

حال العالم قبل البعثة

الامبراطورية الرومانية الشرقية

كانت حدود الامبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الخامس للميلاد في الغرب بالبحر الادرياتيكي وفي الشرق بضفاف دجلة ، وتمتد حدودها الشمالية الى اعالي بلاد التتر ، وتنتهي في الجنوب الى بلاد الحبشة .

وارقى عصور هذه المملكة بعد قسطنطين الكبير عصر جوستنيان [1] سنة (٥٢٧ ــ ٥٦٥ م) تولاها ٣٧ سنة ، فاراد ان يقتفي اثر عظمة رومة القديمة ويعيد للامبراطورية البيزنطية سيرة العالم الروماني القديم فارسل قواده للفتح ففتحوا افريقية الشمالية وقسماً من اسبانيا بعد حروب طويلة دامت اكثر من عشرين سنة ، فاستولى على اكثر من ٦٤ مقاطعة فيها اكثر من ٩٣٠ ناحية اعظمها من اخصب بلاد المعمور وانفعها لبني الانسان ، فازدهرت في مملكته الواسعة الزراعة والصناعة والتجارة ، وسن الشرائع والقوانين وبنى الكنائس والمعاقل والقصور .

ولكن هذه الحروب التي اشتعلت نيرانها بين البيزنطيين والفرس غالباً وحيناً بين البلقانيين والبربر السلافيين والبلغاريين ، قد انهكت قوى البيزنطيين فيما بعد وادت بهم الى احباط مسعى امبراطورهم المذكور .

وزد على ذلك ان بعد وفاة جوستنيان قد خلفه اناس لا يليقون للملك ، فخلفه ابن اخيه جوستين الثاني ، ثم طيباريوس ، ثم موريس ، ثم فوقاس ، وكان جاهلا فابغضته الرعية والتمسوا من ينقذهم منه ، وكان من جملة ولاة الروم يومئذ وال

---

(١) جوستنيان هو (يوستنيانوس) .

على افريقية اسمه هيراكليوس (هرقل) فاستنجده اهل القسطنطينية ، فانفذ اليهم عمارة بحرية ، فقتل فوقاس وتربع هو في دست الامبراطورية مكانه سنة ٦١٠ وفي ايامه ظهر الاسلام .

قال البستاني : وكان حكم فوقاس ظالماً فكرهه الاهالي وطلبوا حاكم ولاية افريقية الملكي لمساعدتهم فارسل الحاكم ابنه هرقل فأخذ القسطنطينية فمزق الجمهور فوقاس اربا ، وجعل هرقل امبراطوراً سنة ٦١٠ ــ ٦٤١م ، وغلبه الفرس على سورية وفلسطين وآسيا الصغرى وضايقوه جداً [١] .

وكان الروم حوالى القرن السادس للميلاد في منتهى التضعضع السياسي والاداري والاجتماعي والديني فتعددت الفرق وتشعبت المذاهب وخصوصاً في ما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئة والمشيئتين .

* * *

الانقسامات الدينية

كانت النصرانية قبيل البعثة جملة طوائف ، اشهرها في الشرق ثلاثة : اليعاقبة وكانوا في مصر والنوبة والحبشة ، والنساطرة انتشروا في الموصل والعراق وفارس ، والملكانية وكانت دعوتهم منتشرة في بلاد المغرب وصقلية والاندلس والشام ، فاليعاقبة كانوا يرون ان المسيح هو الله ، وان الله والانسان اتحدا في طبيعة واحدة هي المسيح ، والملكانية والنساطرة قالوا ان للمسيح طبيعتين متميزتين الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية .

قال أندرة (P. J. André) : كانت تتوزع آسيا الوسطى في اوائل القرن السابع للميلاد ثلاث كنائس : الكنيسة الامبراطورية الارثوذكسية ، وكنيسة المونوفيست (Monophysite) والكنيسة النسطورية واحتدم الجدل بين هذه الطوائف في شخصية المسيح ، فالمونوفيست اعتقدت في المسيح صفة الهية وناسوتية متحدة في طبيعة واحدة ، خلافاً للكنيسة الامبراطورية والنسطورية فقال اتباعهما ان للمسيح طبيعتين متميزتين : طبيعة الهية وطبيعة ناسوتية [٢] .

---

(١) دائرة المعارف للبستاني مادة بيزنطية .

(١) الاسلام والاجناس لاندره ج١ P. J. André - L'Islam & les races vol. I

واستمر الخلاف بين هذه الفرق في : هل اللاهوتية وما للناسوتية من ارادة وفعل متحدتان في المسيح أو مختلفتان ؟ قالت اليعاقبة بالاول ، وقالت النساطرة ان للمسيح ناسوتية لها ارادة ولها فعل يختلف كل الاختلاف عن العنصر اللاهوتي ، واختلفوا في تصوير اتحاد اللاهوت بالناسوت ، فقال اليعاقبة كاتحاد الماء يلقى في الخمر فيصيران شيئاً واحداً ، وقالت النسطورية كاتحاد الماء يلقى في الزيت فكل واحد منهما باق بحسبه ، وقالت الملكانية كاتحاد النار في الصفيحة المحماة .

ولم يقتصر النزاع بين النصارى على العقيدة في الله بل اختلفوا في مسائل اخرى كثيرة : هل ينزل المسيح قبل القيامة اولا ينزل ؟ وهل الحشر يكون للارواح والابدان او للارواح فقط ؟ وهل صفات الله زائدة عن ذات الله أو هي هي ؟ ومن النسطورية من كان يقول بالقدر خيره وشره .

وكان لهذه الانقسامات تأثير شديد في السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى آل ذلك احياناً الى خروج امم باسرها من حوزة الروم الى الفرس ، كما حصل بالارمن فانهم لما حرم المجمع القسطنطيني بدعة الطبيعة الواحدة جعل الامبراطور يشدد النكير على متبعيها والارمن منهم ، فافضت بهم الحال الى تسليم بلادهم الى الفرس ، وكذلك فعل القبط بمصر يوم جاءهم عمرو بن العاص فقد كانوا اعواناً له في فتحها للسبب عينه .

* * *

العداء بين الروم واليهود

ويضاف الى ما تقدم ما كان بين الرومان واليهود من التباغض فقد بلغ غاية عظيمة في ايام هرقل فثار اليهود في انطاكية فقتلوا بطريركها ومثلوا بجثته مثلاً قبيحاً ، فارسل اليهم هرقل فقتل منهم جمعاً غفيراً ، وثاروا في صور عاصمة فينيقية وقتلوا واليها ، وتآمروا يهود صور بل يهود فينيقية وفلسطين على ان يدخلوا مدينة صور ويقتلوا النصارى ، فاطلع مطران صور على المكيدة فاخبر الوالي بها فنبه الوالي الحامية والبوابين والحراس ان يكونوا تلك الليلة على حذر ، ولما جن الليل هجم اليهود من خارج الصور فردهم الجند على اعقابهم فرجع اليهود الى

الاديرة والكنائس بجوار المدينة فهدموها وسلبوا آنيتها وفعلوا مثل ذلك في ما جاورها من القرى ، فعاقبتهم الحكومة فقتلت كل يهود صور . وحدث مثل ذلك في قيسارية فلسطين فارسل الملك اخاه ثاودورس فقتل من كان فيها من اليهود ، فاشتد غيظهم على المملكة في كل انحائها ، ومما فعله اليهود من الفظائع نكاية في الروم انهم اشتروا من الفرس ثمانين الفاً من اسرى النصارى وذبحوهم .

* * *

الفرس

وافضى عرش الفرس في ايام جوستنيان الى كسرى انو شروان المشهور بالعادل، فلم تعجبه مصالحة الروم فحمل عليهم بخيله ورجله ، ففتح سورية واحرق انطاكية ونهب آسيا الصغرى ، فبعث جوستنيان اليه بليزاربوس فحاربه ورده على اعقابه ، ثم عاد وعادوا وتوالت الحروب بين الدولتين نحو عشرين سنة (٥٤١ ــ ٥٦١ م) وقد مل الملكان وشاخا فتوافقا على صلح قضي فيه على جوستنيان بجزية سنوية مقدارها ٣٠٠٠٠ دينار ، وظلت حدود المملكتين كما كانت قبل الحرب .

ثم ادعى برويز امبراطور الفرس انه يريد الانتقام من قتلة صديقه امبراطور الروم فزحف بجنده على سورية سنة ٦١٤م واليهود انصاره فيها ، ففتحها وفتح مصر واستولى على انطاكية ودمشق وبيت المقدس ومدن اخرى من سورية وفلسطين ، ثم اباح لجنده نهب اورشليم فنهبوها واحرقوا القبر المقدس وكنيسة القيامة وسلبوا خزائنها وحملوا بطريركها الى بلادهم وواصلوا القتل والنهب في سورية الى سنة ٦١٦م فكان عدد الذين قتلوا من المسيحيين ٩٠٠٠٠ نفس وارسلوا جنداً آخر الى آسيا الصغرى ففتحوها والنصر رفيقهم حيثما حلوا حتى كادوا يطأون شواطىء البوسفور .

كل ذلك والامبراطور هرقل معتزل في قصره وقد انغمس في اللهو والقصف والترف لا يبالي بما يهدد مملكته ، وكأنه لما تحقق وقوع الخطر نفض غبار الخمول عن عاتقه وخرج للدفاع ، ولم يكن عنده مال ينفقه في التجنيد فاقترض اموال الكنائس على ان يعيدها بعد الحرب مع رباها ، وحشد جنده وركب البحر الى

كيليكيا في آسيا الصغرى واحتل ايسوس فلقيه الفرس هناك فحاربهم وغلبهم سنة ٦٢٢ م .

وفي سنة ٦٢٧م تجددت الحرب بين الدولتين ، فانهزم الفرس مرة اخرى ، وبلغت جنود الرومان نينوى عاصمة الآشوريين قديماً ، ثم ظهرت امارات الانحلال السياسي على دولة الفرس ، فأصبحت حكومتهم فوضى ، حتى ادعى ملكها في خلال اربع سنين تسعة من ملوكهم .

وكانت حالة الفرس الاجتماعية في غاية الانحطاط قبل الاسلام بمدة طويلة لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب الدينية .

فكانت تعاليم زرادشت مبنية على اساسين : (١ً) ان لهذا العالم قانوناً يسير عليه وان له ظواهر طبيعية ثابتة . (٢ً) وان هناك نزاعاً وتصادماً بين القوى المختلفة ، بين النور والظلمة ، والخصب والجدب الخ . ووحد زرادشت الارواح الخيرة في اله واحد هو « أهورامزدا » وكذلك فعل في قوى الشر فحصرها في شيء واحد سمي «دروجأهرمن» وبذلك كانت عنده قوتان فقط : قوة الخير وقوة الشر .

ومن اشهر المذاهب الدينية التي كثر اتباعها المانوية ، وخلاصة مذهبها ان العالم كما قال زرادشت نشأ عن اصلين : وهما النور والظلمة ، ولكن مذهب ماني يخالف تعاليم زرادشت في امر جوهري ، وهو ان زرادشت كان يرى ان هذا العالم الحاضر عالم خير ، لما فيه من مظاهر نصرة الخير على الشر ، في حين ان ماني يرى ان نفس الامتزاج شر يجب الخلاص منه ، وزرادشت يرى ان يعيش الانسان عيشة طبيعية فيتزوج وينسل ويعنى بزرعه ونسله وماشيته ويقوي بدنه ولا يصوم ، وانه بهذه المعيشة ينصر إله الخير على إله الشر .

اما ماني فنزع منزعاً آخر هو اشبه ما يكون بالرهبنة فرأى ان امتزاج النور بالظلمة في هذا العالم شر ، ومن اجل هذا حرم النكاح حتى يستعجل الفناء ، ودعا الى الزهد وشرع الصيام سبعة ايام ابداً في كل شهر ، وفرض صلوات كثيرة ، يقوم الرجل فيمسح بالماء ويستقبل الشمس قائماً ، ثم يقوم ويسجد وهكذا ، اثنتا عشرة

سجدة ، يقول في كل سجدة منها دعاء ، ونهى اصحابه عن ذبح الحيوان لما فيه من ايلام .

قال كافيناك M. Cavaignac : ان مذهب ماني بدعة مزدكية تأثرت بتعاليم بني اسرائيل والنصارى [1] .

وامتاز مذهب مزدك بتعاليمه الاشتراكية فكان يرى ان الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء ، واهم ما تجب فيه المساواة المال والنساء ، قال الشهرستاني : وكان مزدك ينهي الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ، ولما كان اكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والاموال ، فأحل النساء واباح الاموال ، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ [2] .

وقد انتحل هذا المذهب آلاف من الناس ولكن قباذ نكل به وبقومه ، ودبر لهم مذبحة سنة ٥٢٣ م كاد يستأصلهم بها .

* * *

حال الفلسفة والعلم

اصبحت الاسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية ، فسهل الاتصال والامتزاج ، والتقى على ضفاف النيل رجال مختلفة آراؤهم متباينة مذاهبهم تبادلوا فيها الآراء المختلفة وكان من نتيجة ذلك ظهور روح جديد اسس على مبدأين متناقضين ممتزجين : احدهما الشك والنقد والثاني سرعة التصديق بالأشياء على علاتها .

تقابلت في الاسكندرية آراء الشرقيين والغربيين (اليونان) فامتزجت روح اليونان بروح المشارقة فانتجتا عقائد ونظماً دينية متأثرة بتأمل الاولين والهام الآخرين ، بما لليونان من علم وما للمشارقة من اساطير ، جاءت الروح اليونانية بما لها من ذكاء ودقة وقدرة على الشرح المبين فاصابتها شرارة من الشرق اشعلتها واحيتها ، كذلك اخرجت الروح الشرقية التي من خصائصها الطموح الى ما وراء

---

(١) العالم الاسلامي والبيزنطي حتى الحروب الصليبية لغودفرويه ديمومبين وبلاتونوف
Gaudefroy. Demombynes & platonov - Le monde musulman & byzantin jusqu'aux croisades.

(٢) فجر الاسلام لاحمد امين .

عالم الشهادة نظاماً ملتئماً ونظريات مرتبة لم تكن لتخرجها لولا مساعدة العلم اليوناني لها ، فانه رتب مأثور الشرقيين وحل من عقدة لسانهم فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التي بلغت الذروة في مذاهب الغنوسطية والأفلاطونية الحديثة ويهودية فيلون ومذهب الاشراك الذي وضعه يولبان الصابي ــ ان الشرقي بما له من ميل الى الغيب وخوارق العادات وما في طبيعته من تصوف وتدين ، واليوناني بما له من فحص دقيق وبحث عميق ، وان شئت فقل ان ما للاول من شعور وما للثاني من تحليل منطقي امتزجاوتنتج منهما فكرخاص انتشر في الاسكندرية في القرون الاولى للميلاد ، وقد صبغ ذلك الفكر بصبغتين مختلفتين : صبغة الكماليين والصوفيين وصبغة اهل البحث العلمي ولذا امتاز هذا العصر بميل الدين الى الفلسفة .

قال بلدوين في كتابه معجم الفلسفة : ان الشرق والغرب اختلطا في الاسكندرية وامتزجت آراء رومة واليونان والشام في المدنية والعلوم والدين بآراء الشرق الأقصى في ذلك ، فنشأت قضية جديدة عمل على ايجادها بحث الغرب والهام الشرق واتصال الدين بالفلسفة اتصالاً وثيقاً كان من نتائجه ظهور عقائد لا هي من الفلسفة المحضة ولا من الدين الخالص بل أخذت بطرف من كل ، وجاء ذلك من عاملين : احدهما ميل اليهود الى التوفيق بين معتقداتهم الدينية والعلم الغربي الذي كان متأثراً بالعلم اليوناني ، وثانيهما ان المفكرين الذين استمدوا آراءهم من الفلسفة اليونانية رأوا ان يوفقوا بين معتقداتهم الفلسفية والقضايا الدينية المحضة التي جاء بها المشارقة ، من أي الجهتين نظرنا رأينا ان النتيجة كانت فلسفة دينية لا هي فلسفة محضة ولا هي دين خالص [1] .

وفي العصور الاولى للمسيح ظهر في الاسكندرية المذهب المعروف بالأفلاطونية الحديثة ــ وكان هذا المذهب الاسكندري في أول امره يميل الى البحث والتفكير العقلي المحض ، ثم اخذ يناصر الوثنية اليونانية ويقاوم النصرانية ، ثم انحدر الى ان اقتصر على الشغف بالاطلاع على المغيبات وخوارق العادات والاعتناء بالسحر والتصرف بالاسماء والطلاسم والكهانة والتنجيم والدعوات والعزائم ونحو ذلك .

---

(١) مبادي الفلسفة لرابوبرت .

ومما اختصت مدرسة الاسكندرية في ترقيته من العلوم : أولاً التشريح لان المصريين كانوا يفتحون الجثث لاجل تحنيطها فسهل عليهم درس فن التشريح بها ، ثانياً علم الكيمياء لانه كان في مصر قبل دخولها في سلطة اليونان ، ولما انشئت هذه المدرسة اشتغل علماؤها بدرس هذا العلم وجمعوا ما كان عند الامتين في علم واحـد .

ولما سقطت الدولة الرومانية في ايدي امم الشمال المتبربرة قوضت الحضارة الرومانية اليونانية القديمة وطغى سيل القوط ـ والبرجنديين والوندال والسويفيين والالنيين والكلتيين والسكسونيين ولا سيما قبائل المغول والهون ـ على الدولة الرومانية العتيقة الواسعة وكانت قد بلغت من ضعفها الناتج من انحلالها الاخلاقي وانحطاطها الاجتماعي حداً اصبحت لا تستطيع معه مقـاومة هذه الامم القويـة المتبديـة .

وكانت الكنيسة الاوربية عامة تضطهد آداب اليونان والرومان وعلومهـا وتحارب من اشتغل بها ، وتعارض نشر الحياة العقلية والمدنية القديمتين ، وتحدد دائرة يجول فيها الفكر ، ذلك لانها اعتقدت ان الحقيقة قد وصلت اليها من الوحي المعصوم فلا معنى بعد ان تسمح للناس بالبحث عنها لذلك كانت الكنيسة عدوة الفلسفة والعلم فخمدت الحياة العقلية ولم تسترد نشاطها الا بعناء لما أن انبعثت اشعة (النهضة) ممتزجة بأشعة من الشرق ـ فأضاءت سماء القرون الوسطى المظلمـة .

وكان الخلاف على طبيعة المسيح مبدأ مناقشات تناولتها الشيع الكنيسية ، وكان لاختلاف المذاهب في تلك المسألة اكبر الاثر في النظر في المعقولات وفي التأمل الفلسفي ، فأخذوا يستعينون على بث افكارهم باقوال منتزعـة من الفلسفـة اليونانية ، وترجموا الكتب الفلسفية ، غير أن كثيراً من تلك التراجم قد صب في قالب لم يراع فيه نقل الفلسفة اليونانية لذاتها ، بل اتخذت التراجم ذريعة لبث مذهبي ديني .

وقام السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية وخاصة مذهب الافلاطونية الحديثة

في العراق وما حوله واخذوا ينقلون الكتب اليونانية الى لغتهم السريانية التي كانت لغة الادب والعلم لجميع كتاب النصرانية في انطاكية وما حولها، وللنصارى الخاضعين لدولة الفرس ، وانشئت في هذه الاصقاع مدارس دينية متعددة في الرها ونصيبين وجنديسابور .

وخدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا اكثر مما الفوا ، فلم يبتكروا كثيرا ، بل كانوا ينقلون العلوم اليونانية ، كالمنطق والطبيعة والطب والرياضة ، ولم يقتصروا على الترجمة من اليونان بل ترجموا كذلك من الفهلوية لغة الفرس القديمة .

وابتدأ السريان يشتغلون بفلسفة ارسطو في القرن الخامس للميلاد ، وبعد ان تعلموها اخذوا في نقلها الى لسانهم فنقلوا المنطق في اواسط القرن المذكور .

واما الطب فقد كان لهم فيه حظ وافر على أثر انشاء بيمارستان جنديسابور واشتهر فيهم من اهل هذه الصناعة كثيرون منهم سرجيس الرأس العيني المتوفى سنة ٥٣٦ م وغيره .

ولهم في النجوم مؤلفات كثيرة لتسلسل هذا العلم فيهم عن آبائهم الكلدانيين فألف الرأس العيني في تأثير القمر وحركة الشمس ، وألف السبكتي في صور الابراج .

واشتغل السريان ايضاً في الكيمياء والحساب والرياضيات والاقاصيص التاريخية والتاريخ العام والفلسفة والعلوم وكلها غالباً مصبوغة بالصبغة الدينية لأن أكثر الباحثين كانوا قسيسين ورهباناً .

ويقال بالاجمال ان الآداب اليونانية قلما تقدمت في عاصمة البزنطيين « بزانطيوم » مع ان العلم كان في خزائنها كما كان في خزائن الاسكندرية وخصوصاً بعد موت جوستنيان » فلما قامت الخصومة في الايقونات كان من جملة نتائجها اعدام الكتب واهمال العلم ، واقتصر النوابغ فيها على ما لا يحتاج الى مواهب خصوصية أو الى بحث أو نظر فكانوا اذا نشأ احد القياصرة واراد التشبه بمنشطي

العلم القدماء رغب الناس في المطالعة والتأليف ، وتأليفهم عبارة عن تلخيص القديم أو شرحه أو جمعه ، وكذلك كانوا يفعلون في سائر الموضوعات كالتاريخ والشعر واللغة بدون نقد ولا نظر • واما الفلسفة فتحولت عندهم الى اللاهوت لان علماء النصرانية استخدموا الادلة الفلسفية لاثبات بعض العقائد أو الآراء الدينية في محاولاتهم أو في مواعظهم •

وان الشائع من علوم الفرس لم يكن يتجاوز بعض الاشعار والاخبار وكتب العقائد والاديان الى ايام سابور بن ازدشير من الدولة الساسانية في اواسط القرن الثالث للميلاد ، وفي ايامه انتشبت بين سابور والروم حروب انتهت بنصرته وقد حمل معه عدداً كبيراً من اسراهم الى بلاده واكرم وفادتهم فحببوا اليه العلم فبعث الى بلاد اليونان يستجلب كتب الفلسفة وامر بنقلها الى الفارسية واختزنها في مدينته واخذ الناس في نسخها وتدارسها •

فلما تولى كسرى انوشروان العادل سنة (٥٣١ ــ ٥٧٨ م) فتح للفرس مورد جديد للعلم والفلسفة بما كان من اضطهاد جوستنيان قيصر الروم للفلاسفة الوثنيين على أثر اقفاله الهياكل والمدارس الوثنية ، ومما يدلك على اهتمام انوشروان بأولئك السبعة الذين وفدوا عليه من فلاسفة اليونان ، انه وضع في المعاهدة التي عقدتها الامبراطورية البيزنطية نصاً خاصاً بهم ضمن لهم به حريتهم المدنية والدينية وعدم الاستبداد بهم فيما لو ارادوا العودة الى وطنهم •

كان هؤلاء الفلاسفة من الآخذين بتعاليم الافلاطونية الجديدة ، على ان اثرهم في الحياة الفارسية غير معروف بالضبط ، فنقلوا المنطق والطب والفوا فيهما الكتب •

ولم يقتصر انوشروان على نقل علوم اليونان الى لسانه ، ولكنه نقل علوم الهنود ايضاً من السنكريتية الى الفارسية وانشأ في جنديسابور مستشفى لمعالجة المرضى وتعليم صناعة الطب استقدم اليه الاطباء من الهند وبلاد اليونان وكانوا يعلمون فيه الطبين الهندي والابقراطي فجمع بين الحسنيين ، وبلغ هذا البيمارستان من الشهرة ما لم يسبق له مثيل •

وجملة القول ان الفرس اشتغلوا قبل الاسلام في الفلسفة والطب وتثقفت عقولهم وذاع صيتهم وكان لهم اطلاع خاص في علم النجوم واحكام الافلاك مما توارثوه عن اسلافهم أو نقلوه عن جيرانهم ، وقد زها العلم في ايام انو شروان العادل ــ والعلم لا يزهو الا في ظل العدل والرحمة .

وان الطبقة العليا من الهنود هم اخوان الفرس واليونان وقد نظموا الملاحم ودونوا الاخبار شعراً من قديم الزمان ولهم آداب خاصة تولدت عندهم بتوالي القرون كما يستدل من مراجعة تواريخهم ودرس احوالهم ، حتى ان كثيراً من ملوك الفرس كانوا يستعينون باطبائهم كما فعل انوشروان في مارستان جنديسابور ، لان للطب الهندي طرقاً غير ما للطب اليوناني أو الفارسي وقد اشتهر منهم عدة اطباء الفوا في الهندية .

وكانت لهم معرفة حسنة بالنجوم ومواقعها وابراجها ولها اسماء خاصة بلسانهم ، ولهم آراء في حركات الكواكب ، وقد اخترعوا الارقام ، ولهم طرق خاصة في الحساب ، ولهم معرفة بفن الموسيقى ، ولهم فيها كتب .

* * *

وصف بعض الباحثين العالم

كتب جول لابوم في مقدمة فهرسته الذي جمع فيه الآيات القرآنية المتماثلة تحت عنوان محمد ما يأتي :

لأجل ان يفهم الانسان تمام الفهم دعوة من الدعوات يلزمه اولاً الالمام بحال الداعي في ذاته ، ولأجل أن يقدر قدر دعوته يجب عليه ان يدرس الجهة البشرية التي وجه همته للتأثير فيها . هذا هو الغرض من هذه النبذة الوجيزة التي خصصناها للمشرع العربي مؤسس ما يمكن تسميته بالجامعة الاسلامية .

حوالي ميلاد محمد (ص) في القرن السادس م كان جو العالم متلبداً بغيوم الاضطرابات والفتن فكان شعب الوزيغوط الآريين في اسبانيا وفرنسا الجنوبية يصاولون الملك كلوفيس واولاده الكاثوليكيين فكانوا من اجل ذلك يطلبون

مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية جوستنيان ، ثم اضطروا الى الدخول معه في حرب جديدة تخلصاً من سلطة القواد الذين جاؤهم بتلك المساعدة فقد كانوا يزعمون ان لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء المساعدين المحامين .

اما في فرنسا نفسها فكان اولادكلوفيس هذا متغادرين متسافكين وكانت الحروب التي شبت نيرانها بين الملكة الوزيغوطية برونهو والملكة الفرنكية فيريديجوند تهيء للتاريخ اشد الصحائف اثارة للأسى والكمد .

اما في انكلترة فكان الانكلو ينازعون السكسونيين الارض التي احتلوها واستعبدوا فيها ذرية كيمريس وهم اقدم المغيرين على تلك الجزيرة التي تتطلع اليوم للوقوف في مقدمة الامم علماً وصناعة وقوة ، وهي التي كانت في ذلك الوقت مجالاً للقوة الوحشية السائدة في تلك الغياهب الحالكة .

اما في ايطاليا فكان اسم الرومان وهو ذلك الاسم الشامخ قد فقد مكانته القديمة وكانت رومة وهي الشظية الاخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتهشم (يعني مملكة الرومان) في حالة تململها من استحالة امرها الى مركز ديني بسيط ، ترتج وتضطرب كلما الم بها طائف من ذكرى عظمتها القديمة ايام كانت مركزاً دينياً اصلياً ، فكانت تهيء نفسها لأن تكون مركز البابوية وهي تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة شارلمان ان يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمن ، ولكنها بعد ذلك لم يسعها حمل نير الهيروليين والاستروغوتيين وامبراطرة المملكة الرومانية واللومبارديين الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً .

اما مملكة اليونان التي كانت قد نسيت مجدها القديم فكانت تابعة لمملكة الرومان الشرقية مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء .

وكان شرق اوربا مقلقاً جنوبها من اول مصاب نهر الران من جهة الغرب لغاية مصاب نهر الدانوب من جهة الشرق ، فكان الاسكندينافيون والنورفيجيون والدنيماركيون يتزاحمون في الطريق الذي سلكه الجوتيون والهونيون الذين احتلوا تارس ومقدونيا ولومبارديا وايطاليا سواء بالقوة او بالخديعة .

في ذلك الوقت بدأ ظهور الاتراك من اعماق آسيا الصغرى وهي تلك الامة التي قصرت فيما بعد مملكة اليونان على اسوار القسطنطينية .

ان التصوير البديع الذي جادت به قريحة رينان لبيان مركز الامبراطورية الرومانية في القرن الأول من التاريخ المسيحي لا علاقة له البتة بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال اوربا في القرن السادس : تلك كانت مفاسد قيصرية مختمرة ، اما هذه فوحشية حربية تلعب بالارواح وتتمرغ في الاوحال .

اما آسيا فلم تكن اهدأ بالاً من اوربا في شيء : فمملكة التبت والهند التي اقتبست منها الامم السائدة في اوربا الآن قرائحها وافكارها العامة ولغاتها ، والصين التي تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية ، وبالاختصار اغرب المسائل الاجتماعية ، كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

اما السفح الشمالي من الهضبة الآسيوية العالية التي هي في حوزة روسيا الآن ، فكانت غير معروفة على الاطلاق .

واما مملكة الفرس التي كانت احوالها مرتبطة باحوال الغرب خصوصاً من حملة الاسكندر المقدوني فكانت مشتبكة في حروب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا اصحاب السلطة على آسيا الغربية .

اما في افريقية فكان هؤلاء اليونان الرومانيون انفسهم وهم اخلاط من عساكر وتجار وحكام جمعوا من آفاق مختلفة دائبين على امتصاص دم القطر المصري وعاملين على جعل مصر العلمية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عديمة الحس والحراك وكان هذا شأنهم ايضا في الاقاليم الخصبة وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من افريقية التي انتزعوها من ايدي الفنداليين .

والخلاصة كان جو العالم الارضي متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل جهة ، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر اكثر من اعتمادهم على وسائل الخير ، وكان الرؤساء اشدهم صيحة في اصلاء نيران الحروب والمعارك ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر فيها تأثيراً شديداً وان كان وقتياً الا شيء واحد وهو الغنيمة وسلب الامم والشعوب والمدائن والاعيان ورجال الحروب وفقراء الحراثين وبسطاء المتسولين ، ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتألق في بعض صوامع الكهنة وبعض الجراثيم الفلسفية التي كانت بمعزل عن اعاصير تلك

المشاغب ، وانتقلت من روح الى روح اخرى بواسطة بعض اصحاب الجسارة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية اسرعت في خطاها مقودة بغطرسة زعماء البهيمية واستحالت الى وحشية محضة [1] .

وقال غوستاف لوبون : لما انتقل محمد (ص) كانت سلطتان قد اقتسمتا العالم : الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الفارسية : فكانت الاولى تملك القسطنطينية واوربا الجنوبية وآسيا الصغرى وافريقية الشمالية من مصر الى المحيط الاطلانطيكي ، وكان يمتد سلطان الفرس في آسيا الى حد بعيد من حدودها ، وكانت اوربا الغربية والشمالية فريسة للبربر الذين كانوا في فوضى يختصمون على ما خلفه الرومان .

وانهكت الحروب التي استعرت نيرانها بين الرومانيين والفرس قوى كلا الامتين ، وادت بهما الى السقوط العظيم والانحلال السريع ، فكانت مصر وافريقية واسبانيا وايطاليا تنازعها المجادلات الدينية البالية ويرهقها ظلم الحكومة المتمادي [2] .

وقال لوثروب ستودارد : اجل ، هب الاسلام من شبه الجزيرة هبوب العاصف الزعزع ، فلاقى في سبيله جواً روحانياً خالياً ، في ذلك العهد كانت كلتا مملكتي فارس وبيزنطية باديتين للعيان كأنهما اللحاء الجاف فارق عوده لا نمو فيه ولا حياة ، وكان الدين في كل من هاتين المملكتين صار ديناً يزرى عليه ويسخر منه . اما فارس فقد كان دين المزدكية القديم قد انحط انحطاطاً كبيراً حتى اصبح مجوسية باطلة وصناعة خداعة بين ايدي الموابذة يظلمون به الخلق ويضطهدونهم بكل قسوة ، فكره الناس ذلك الدين في الباطل كرهاً شديداً ومقتوه مقتاً عظيماً .

أما في القسم الشرقي من المملكة الرومانية وهو مملكة بيزنطية فقد البس الدين فيها لباساً غير لباسه الاول فاستحال الى اباطيل الشرك وانتشرت فيه الاوهام والخزعبلات التي كان يقوم بها علماء الدين اليونانيون ذوو العقول السخيفة والآراء الفاسدة ، فغدت النصرانية عبثاً وسخرية . وعلى الجملة فقد كانت البدع والضلالات

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي مادة بعث .

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون G. Le Bon - La civilisation des Arabes.

قد مزقت المزدكية الفارسية والنصرانية البيزنطية شر ممزق ، وبذرت في كل منها بذور الاضطهادات الهمجية والعداوات الوحشية ، فنمت تلك البذرة نمواً هائلاً . ولا يغربن عن البال انه كان على رأس كل من بيزنطية وفارس سلطان مستبد قاهر ، وملك عات أرهق الرعية ارهاقاً لا قبل لامة باحتمال مثله ، فماتت كل عاطفة من عواطف حب الوطن والاخلاص للدولة ، زد على جميع ذلك ان هاتين المملكتين كانتا على حال من الضعف شديدة بعيد حرب طاحنة التظت نيرانها بينهما خرجت كلاهما منها مفتوتاً في عضدها ، منهوكة قواها [1] .

وقال سيديو : بينما العرب على التحاب والميل الى الاختلاط العام اذ حدث بين كسرى وهرقل حرب عظم امرها في اوائل القرن السابع م اخذ فيها كسرى جزيرة دجلة والفرات والشام وفلسطين ومصر ثم أخذها هرقل ملك القسطنطينية وانقضت الحرب بصلح بينهما بعد ذهاب شوكتي الدولتين وتهدم القلاع والحصون وتضعضع حال الرعايا بالافراط في الخراج وغيره وتمادى بهم العجز حتى نبغ دين الاسلام [2] .

* * *

حال بلاد العرب

اختلف الباحثون في حال بلاد العرب قبيل الاسلام ، فقال بعضهم ان هناك نهضة تقدمت بعثة النبي (ص) ، وان العرب كانوا على استعداد لقبول دعوة الاسلام ، وانكر آخرون كل ما يطلق عليه كلمة استعداد ونهضة ، وجعلوا العرب في هوة سحيقة من الانحطاط الأدبي والأخلاقي والسياسي والديني الخ .

قال سيديو : كان تنافس المعاصرة بين عشائر العرب في الجزيرة حتى هجم عليهم اليونان من الشمال والفرس من المشرق والحبشة من الجنوب فاتحدوا وصاروا امة واحدة وأخذوا يضعفون قوى اعدائهم باغراء بعضهم على بعض فاغروا الفرس المالكين للمدائن وبلاد شواطىء الخليج الفارسي على صد الحبشة المحالفة لليونان المتغلبين على ارض الحجاز ثم ساعدهم حسن حظهم على بلوغ

---

(١) حاضر العالم الاسلامي للوثروب ستودارد .

(٢) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

اربهم فصدوا ابرهة وسعى عبد المطلب في ربط العلائق بين القبائل المستقلة بحكمها وبين اهل مكة وذهب الى صنعاء ليهنىء الملك الحميري الذي اعاده جيش الفرس الى الجلوس على سرير الملك نيابة عن بني قريش ، وكان العرب اذ ذاك متحابين مكتسبين الوحدة اللغوية دون الوحدة الدينية الا ان عقائدهم القديمة اضمحلت وكره بعضهم عبادة الاوثان والتزوج بزوجات الآباء ووأد البنات ، واشرف على الزوال غير ذلك من الاوهام الفاسدة ، ولم يميلوا الى النصرانية لانقيادهم الى انفسهم فيما تأمرهم به من الشهوات الجسمانية مع تأسس آداب الانجيل على عصيانها وقد تحصل كل من ورقة بن نوفل وعثمان بن حريث وعبيد وزيد بن عمرو وغيرهم على معلومات استفادوها من مخالطات اليهود والنصارى فاجتهدوا في ابطال دين الجاهلية ودعوا الى التمسك بشريعة الخليل وادعوا انهم مجددون للدين فعجزوا فأخبروا ان رسولاً سيظهر وينصر على الشيطان وحزبه [1] .

وقال لوثروب ستودارد : كيف لا وكان العرب قد فاقوا آباءهم واجدادهم ايغالاً في الشرك والوثنية ، وانقضى عليهم وهم على هذه الحالة عهد ليس بالقليل حتى استحالت عناصر امزجتهم من شدة ذلك كله فصاروا تواقين بفعل غرائزهم واخلاقهم الى تبديل حالهم وتحسين شأنهم . هكذا كانت حالتهم العقلية والنفسانية حالة الاستحالة الكبرى والانقلاب العظيم والاستجداد الكبير لما صاح فيهم نفير الاسلام [2] .

ويقول رنان Renan : لا يوجد في تاريخ التمدن كله صورة ابدع من الحياة العربية قبل الاسلام [3] .

ويقول جول لاپوم : وكانت طباع العرب واخلاقهم لا تدل الناظر اليها الا على انهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الاولى من عقبات الاجتماع .

وقال ايضاً : كان العرب مغرمين بشرب الخمر ، ويوجد من الشعر ما يدل

---

(١) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

(٢) حاضر العالم الاسلامي ـ الجزء الاول ـ للوثروب ستودارد .

(٣) الاسلام ـ خواطر وسوانح لهنري دي كسترى .

H. de Castries - L'Islam - Impressions & études.

على انهم كانوا يفرحون ويعجبون به وبلعب الميسر ، وكان من عوائدهم ان الرجل له ان يتزوج من النساء بقدر ما تسمح له به وسائله المعيشية ، وكان له ان يطلقهن متى شاء هواه ، وكانت الارملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها ، ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين اولاد الزوج ونساء الأب ، وقد حرم ذلك الاسلام وعده زواجاً ممقوتاً ــ وكان هنالك عادة افظع من كل ما مر واشد معارضة للطبيعة وهي وأد الاهل لبناتهم .

هذا كله لا يشير الى ان العرب لم يكن فيهم جرثومة خلقية صالحة يمكنه تقويمها وتهذيبها فقد كانوا يحبون الحرية حباً جماً ويمارسون فعائل الكرم وبذل القرى .

كان الافراد التابعون لامم ارقى من الامة العربية لمبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب قليلي العدد جداً ولا يظهر انهم كلفوا انفسهم بوظيفة الدعوة الى مللهم ، فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية على مثال الصينيين واليابانيين والمصريين لا يرى منهم لليوم خاصة التأثير في غيرهم الا بالخضوع لقوانين الامة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالامور المالية ، ولئن شوهد انهم ادخلوا الى ملتهم بعض العرب ، فلم يكن ذلك الا نتيجة بسيطة لاشتراكهم في الاساطير التاريخية ، وهو اشتراك يدل على قرابة قريبة بين الامتين ، تلك القرابة التي يستدل عليها بتساويهم في حب الكسب وتآزيهم في الاستعداد لعدم الانفة من سلوك أي طريق من الحيل والمكر لنيل كسب أو حطام ولا ينتظر ان يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات ادنى ترق ادبي . اما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً الى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين ، ولكن لم يكن في حالهم نور يلفت البصر تألقه ، وفي حالة مسيحيي الحبشة اليوم نموذج لذلك ، فانه لا يمكن ان يتحلى الانسان بمدركات العقائد السامية من دين بمجرد التسليم بنص تلك العقائد [1] .

وجاء في احدى المجلات الروسية ما يأتي : كان العرب قبل ظهور النبي

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ــ مادة بعث ــ لمحمد فريد وجدي .

محمد (ص) يقدمون لآلهتهم الذبائح البشرية من اسرى الحرب ومن اولادهم ، فيئدون بناتهم ، ويقتلون عدوهم ، وعلى الجملة فقد كانت اخلاقهم مبنية على القسوة والانتقام وسفك الدماء [1] .

وقال ادوار مونته (Edouard Montet) : كان العرب لما ظهر محمد (ص) في انحطاط من الوجهة الدينية والاخلاقية تحتاج الى مصلح عظيم [2] .

ويقول بارتيلمي سنت هيلير (Barthélemy Saint Hilaire) : لو صح ان كان هؤلاء الجماعة (العرب) على غاية عظيمة من التمدن لما احتاجوا الى تلك التعاليم الادبية التي تقشعر اجسامنا لسماعها . « حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الاخت » . ويرى هذا المؤلف ان العرب كانوا امة بربرية تشبه حالتهم هذه حالة العبرانيين قبيل بعثة موسى [3] .

والخلاصة يختلف حال العرب قبيل الاسلام باختلاف نواحيهم السياسية والاقتصادية والادبية والاخلاقية الخ فكان لكل ناحية فعلها واثرها في نفوسهم .

اما حالتهم السياسية فقد علمنا فيما مضى ان الحبشة قد ملكوا اليمن ثم خلفهم الفرس عليها فأذاقوا سكان البلاد صنوف العذاب والاضطهادات . واذا انتقلنا الى الشمال نجد ثلاث امارات قد اسست اثنتان في العراق والشام تحت حماية الفرس عليها فأذاقوا سكان البلاد صنوف العذاب والاضطهادات . واذا انتقلنا الى الشمال نجد ثلاث امارات قد اسست اثنتان في العراق والشام تحت حماية الفرس والروم والاخرى مستقلة رفضت الخضوع لاجنبي .

واما الحالة في مكة فكانت مناصب للقريشيين منها كالسدانة والسقاية والرفادة والقيادة والندوة والمشورة والحكومة الخ من المناصب الادارية والحربية والدينية التي كانت قريش تتمتع بها .

واما الحالة الادبية فقد نبغ فيهم عدد من الشعراء والخطباء وانشئت الاسواق

---

(١) حكم النبي محمد لتولستوي .

(٢) القرآن ترجمة ادوارمونته . Le Coran - Traduction par Edouard Montet.

(٣) الاسلام ــ خواطر وسوانح لهنري دي كستري .
H. de Castries - L'Islam - Impressions & études.

لتبادل الافكار الادبية واللغوية وغيرها فتنافست لهجات العرب حتى كتب الفوز للغة قريش واصبحت افصح وابلغ لغات العرب .

واما الحالة الاقتصادية فكانت مكة في اواخر القرن السادس مدينة كثيرة التجارة بفضل الاسواق التي اقيمت فيها ، وكان العرب يقصدونها من اطراف الجزيرة وسورية والعراق وغيرها للمتاجرة ولزيارة الكعبة ، وكان في مكة فئة منها سدنة الكعبة واهل الندوة يستفيدون مالاً من ورود الحجاج واقامة الاسواق ، ويستمدون نفوذاً في نفوس العرب وقوة في سيادتهم المعنوية ، وقد بلغ من حرصهم على راحة الحجاج ورواد الاسواق انهم كانوا يحتاطون لامرهم ، فيعدون بضائعهم قبل قدوم اشهر الحج ، وافتتاح سوق عكاظ ويقومون برحلتين ، رحلة الشتاء والصيف الى سورية وفلسطين وجنوبي بلاد العرب ليبتاعوا من هذه البلاد ما تدعو اليه الحاجة من البضائع ، وليبيعوا منتجات بلادهم .

واما حالتهم الخلقية فقد فشا في العرب كثير من العادات المنكرة كشرب الخمر ولعب الميسر ووأد البنات والسلب والنهب ، وكثيراً ما كانت الكلمة الواحدة تفضي الى القتل وبلغت روح الانتقام درجة مروعة حتى ان النساء لم يرضهن سوى صبغ ملابسهن بدم القتيل واكل قلبه وكبده .

واما حالتهم الدينية فان منهم من تأول الاله ببعض الحيوان لكثرة نفعه أو شدة ضره ، ومنهم من تمثله في الكواكب لظهور اثرها ، ومنهم من حسبه في الاشجار والاحجار لاعتبارات شتى ، واما اليهودية والنصرانية فقد البستا لباساً غير لباسهما فأدخل فيهما التحريف والتبديل بانحراف اهلهما عن جادة الصواب .

الفصل الثاني

محمد بن عبد الله ﷺ

نسبه

هو ابو القاسم محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ونسبه الى عدنان متفق عليه من غير خلاف ، وعدنان من ولد اسماعيل بن ابراهيم الخليل من غير خلاف ، ولكن الخلاف في عدة الآباء الذين بين عدنان واسماعيل فعد بعضهم بينهما نحو اربعين رجلاً وعد بعضهم سبعة . قال ابو عبد الله الحافظ : نسبة رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة الى عدنان وما وراء عدنان فليس فيه شيء يعتمد عليه [1] .

ونسبه من جهة امه هو محمد بن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم فتجتمع معه في جده حكيم .

* * *

زواج عبد الله بآمنة وحملها بالرسول

كان عبد الله بن عبد المطلب من احب ولد ابيه فزوجه آمنة بنت وهب وهو في الثامنة عشرة من عمره وهي يومئذ من أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ولما دخل عليها حملت برسول الله (ص) ولم يلبث ابوه ان توفي بعد الحمل بشهرين ودفن بالمدينة عند اخواله بني عدي بن النجار ، فانه كان ذهب بتجارة الى الشام فادركته منيته بالمدينة وهو راجع .

---

(١) تاريخ ابي الفداء ج١ .

مولده

ولد رسول الله (ص) يوم الاثنين من شهر ربيع الاول لأول عام حادثة الفيل ولاربعين سنة خلت من ملك كسرى انوشروان ، ويوافق شهر ابريل سنة ٥٧١ من الميلاد على ما حققه محمود الفلكي [١] .

وكانت ولادته في دار ابي طالب بشعب بني هاشم بمكة ، ولما ولد ارسلت امه لجده تبشره فأقبل مسروراً واسماه محمدا ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند العرب .

وجده هذا كان رئيس عائلة من اشرف العائلات في جزيرة العرب فكانت قابضة على كثير من السلطات الاجتماعية والدينية والحربية .

* * *

رضاعه

كان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد ، وكانوا يقولون ان المربى في المدن يكون كليل الذهن فاتر العزيمة ، فجاءت نسوة من بني سعد بن بكر يطلبن اطفالاً يرضعنهم ، فكان الرضيع المحمود من نصيب حليمة بنت ابي ذؤيب بن الحارث السعدية ، فتسلمته من أمه آمنة وارضعته ومضت به الى بلادها وهي بادية بني سعد ، فمكث لديها اربع سنوات .

* * *

الرسول في حضانة امه وجده وعمه

ردت حليمة الرسول (ص) الى امه بعد ان قامت بوظيفتها احسن قيام ، فكانت لامه عادة منذ توفي زوجها عبد الله بالمدينة ان تذهب كل سنة لزيارة قبره بها ومعها عبد المطلب فذهبت لتلك الزيارة وبينا هي راجعة اذ مرضت في الطريق وتوفيت بالابواء بين مكة والمدينة ، فحملته ام ايمن وهي حاضنته ومولاة ابيه الى مكة فكان في حجر عبد المطلب وكان يحبه حباً عظيماً .

قال ابن اسحق : كان رسول الله (ص) مع جده عبد المطلب بن هاشم وكان

---

(١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين لمحمد الخضري .

يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج اليه لا يجلس عليه احد من بنيه اجلالاً له ، فكان يأتي رسول الله (ص) وهو غلام صغير حتى يجلس عليه فيأخذه اعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم دعوا ابني هذا فوالله ان له لشأناً ، ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع [1] .

ولما توفي عبد المطلب أوصى به قبل وفاته الى ابي طالب فكان له رحيماً وعليه غيوراً ثم ان ابا طالب خرج في ركب تاجراً الى الشام فأخذ الرسول (ص) معه ولم يمكث في الشام الا قليلاً وهي الرحلة الاولى .

* * *

الرسول في شبابه

ولما شب الرسول (ص) هاجت حرب الفجار وهي حرب كانت بين قريش وحلفائها في موضع يسمى نخلة بين مكة والطائف وكان قائد قريش كلها حرب بن امية لمكانه فيهم سناً وشرفاً وكان رئيس بني عبد المطلب الزبير بن عبد المطلب ، وقد حضر هذه الحرب النبي (ص) وكان ينبل فيها على عمومته اي يجهز لهم النبل للرمي .

ثم تزوج الرسول خديجة بنت خويلد الاسدية ، وكانت خديجة امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم ، فلما بلغها عن رسول الله (ص) ما بلغها من صدق حديثه وعظم امانته وكرم اخلاقه بعثت اليه فعرضت عليه ان يخرج في مال لها الى الشام تاجراً أو تعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها يقال له ميسرة ، فقبل الرسول (ص) وسافر معه غلامها ميسرة وربحا ربحاً طائلاً ، فلما آنست خديجة نجابة الرسول (ص) في التجارة ارسلت اليه تخطبه لنفسها فخطبها عمه الى عمها وتم الزواج بينهما .

ثم صدع سيل جارف جدران الكعبة بعد توهين من حريق كان قد اصابها فشارك الرسول (ص) قريشاً في بنائها ، ولما اختلفوا فيمن يضع الحجر الاسود

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ .

حتى كادوا يقتتلون ادركهم الله بالرسول (ص) الفطن ، فبسط رداءه ، وقال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم وضع الحجر فيه وامرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه ، فأخذه الرسول (ص) ووضعه .

* * *

معيشة الرسول وسيرته الادبية قبل البعثة وبعدها

لم يرث الرسول (ص) من والده شيئاً ولما بلغ مبلغاً يمكنه ان يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع اخوته من الرضاع في البادية وكذلك كان عمله لما رجع الى مكة كان يرعاها لأهلها على قراريط .

ولما شب كان يتجر وكان له شريك يدعى السائب بن ابي السائب ، وقد علمنا انه ذهب في تجارة خديجة على جعل يأخذه ، ثم تزوجها وصار يعمل في مالها ويأكل من نتيجة عمله .

اما سيرته الادبية فكان في قومه ممتازاً باخلاق فاضلة : منها صدق الحديث والامانة حتى سموه الامين وكانوا يودعون عنده ودائعهم واماناتهم ، وكان لا يشرب الخمر ولا يأكل مما ذبح على النصب ولا يحضر للاوثان عيدا ولا احتفالا بل كان من أول نشأته نافراً من هذه المعبودات الباطلة .

والخلاصة كان الرسول (ص) على جانب عظيم من الاخلاق الحميدة والفعال السديدة كالحلم والصبر والشكر والعدل والتواضع والعفة والجود والشجاعة والحياء حتى شهد له بذلك الد اعدائه النضر بن الحارث من بني عبد الدار حيث يقول : قد كان محمد (ص) فيكم غلاماً حدثاً ارضاكم فيكم واصدقكم حديثاً واعظمكم امانة حتى اذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر لا والله ما هو بساحر [1] .

ولما سأل هرقل امبراطور الروم أبا سفيان قائلاً هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال ، قال لا فقال هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

---

(١) نور اليقين في سيرة سيد المرسلين لمحمد الخضري .

كمال منطقه

كان الرسول (ص) يعرف السنة العرب ، ويعلم لغة من بعد منهم واقترب ويخاطب كل طائفة بلسانها ، فكان حلو المنطق ، في كلامه ترتيل ، كلامه فصل لا نزر ولا هذر ، يحفظه من جلس ، ويفهمه كل من سمعه ، كأنما هو درر نظمت ، لا فضول فيه ولا تقصير ، لو عده العاد لاحصاه .

قالت عائشة : ما كان رسول الله (ص) يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس اليه [1] .

وقال ابن ابي هالة : كان رسول الله (ص) متواصل الاحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، ولا يتكلم في غير حاجة ، طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه باشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافي ولا المهين الخ [2] .

* * *

كمال عقله

من تأمل حسن تدبيره للعرب الذين وجه اليهم دعوته وكيف ساسهم واحتمل جفاهم وصبر على اذاهم الى ان انقادوا اليه فالتفوا حوله وقاتلوا دونه اهليهم وآباءهم واختاروه على انفسهم وهجروا في رضاه اوطانهم واحباءهم ، لا جرم ان ذاك يؤيد ان الرسول (ص) انه كان على جانب عظيم من العقل الكبير وثقوب الرأي وجودة الفطنة واصابته وصدق الظن وحسن النظر في العواقب والمصالح وكمال التدبير واقتناء الفضائل .

* * *

نجدته وشجاعته

كان الرسول (ص) ذا شجاعة ونجدة وبسالة وشدة وحماسة وصرامة وصولة واقدام ، طالما ثبت في الشدائد وهو مطلوب ، وصبر على البأساء والضراء وهو

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

مكروب ،ونفسه في اختلاف الاحوال ساكنة ، لا يتحير في شدة ولا يستكين لعظيمة او كبيرة ، ولقد لقي بمكة من قريش ما تشيب له النواصي وهو مع الضعف يصابر صبر المستعلي ويثبت ثبات المستولي .

تصدى لجهاد الاعداء وقد احاطوا بجهاته واحدقوا بجنباته ، وهو في قطر مهجور وعدد محقور ، وبذلك جمع بين التصدي لشرع الدين حتى اظهره ، ومكافحة العدو حتى قهره ، فلقد صابر العدو وابلي معه بلاءً حسناً ، فلم يشهد حرباً الا صابر حتى انجلت عن ظفر أو دفاع وهو في موقفه لم يزل عنه هرباً ولا حار فيه رعبا .

قال علي بن ابي طالب : كنا اذا حمي البأس اتقينا برسول الله (ص) فما يكون احد اقرب منه الى العدو ، ولم يكن مثله مثل قواد هذا الزمان : يكونون ابعد ما يكون عن مرمى القنابل والمهلكات [1] .

* * *

رغبته عن الدنيا وخشيته من ربه

كان الرسول (ص) زاهداً في الدنيا ، متقللاً منها ، معرضاً عن زهرتها ، غير ناظر الى نضرتها ، متحلياً بالطاعة ، شعاره العفاف والكفاف ، مقتصراً من نفقته وملبسه على ما تدعو اليه الضرورة ، يلبس البرد الغليظة ، ويقسم حلل الديباج على اصحابه . عيشه ظليف ، ومأكله طفيف ، وفراشه من أدم حشوة ليف ، يبيت جائعاً طاويا ، ويصبح صائماً خاويا ، ما خلف ديناراً ولا درهما ، ولم يترك الا سلاحه وبغلته وارضاً جعلها صدقة .

وكان شديد الخوف والعبادة وافر الطاعة والمحبة ، طاعته نظير حبه ، وخوفه على قدر علمه بربه ، يصلي طويلاً ، ويقوم الليل الا قليلا ، قام حتى تورمت قدماه .

* * *

احترامه نفسه

كان النبي (ص) يعرف لنفسه قدرها ماضي العزم لا يؤخر عمل اليوم الى

(١) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

الغد ما عبث قط ، ولا ظهر شيء من اللهو واللعب في قوله وفعله ، ولم يكن من شأنه التلاعب بالاقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق .

* * *

جوده وسخاؤه

كان النبي (ص) يعجل بالاحسان والصدقة والمعروف فيجود بكل موجود ، ويكسب المعدم ، يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة ، لا يدخر شيئاً من يومه لغده ، اسخى من الغمائم المثقلة ، واجرى بالخير من الريح المرسلة ، ما سئل عن شيء فقال : لا ، ولا اعرض عن طالب ، وكان يجود بكل موجود ، وكان اذا سئل وهو معدم وعد ولم يرد وانتظر ما يفتح الله به .

قال صفوان بن امية : لقد اعطاني رسول الله (ص) ما اعطاني وانه لمن ابغض الناس الي ، فما برح يعطيني حتى انه لأحب الناس الي . اني اشهد ما طابت بهذا الا نفس نبي [1] .

كان جود النبي (ص) كله لله وفي ابتغاء مرضاته فانه كان يبذل تارةً لفقير أو محتاج ، وتارةً ينفقه في سبيل الله ، وتارةً يتألف به على الاسلام من يقوى الاسلام باسلامه . وكان يؤثر على نفسه واولاده فيعطي عطاء يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر ، ويعيش في نفسه عيش الفقراء .

* * *

حسن معاشرته

ما نهر الرسول (ص) خادماً وما ضرب بيده شيئاً الا ان يجاهد في سبيل الله . قال انس : خدمت النبي (ص) عشر سنين فما قال لي : أف قط ، ولا قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته [2] .

وقالت عائشة : كان رسول الله (ص) اذا خلا في بيته ألين الناس بساماً ضحاكاً [3] .

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .
(٢) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .
(٣) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

فكان الرسول (ص) يتعطف على ذوي رحمه بصلاته ، ويتلطف بالصغار من اولاده ، ويعرض عن تكلم بغير جميل ، مجلسه مجلس هدى وعلم ، ومحل خير وحياء وحلم ، لا تذكر فيه العيوب ولا تخفر فيه الذمم ، ان تكلم اطرق جلساؤه وان صمت زاد وقاره وبهاؤه ، يعطي كل جلسائه نصيبه ولا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه ، يصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته ، يؤثر اهل الفضل على قدر فضلهم في الدين والخلق ، يتغافل عما لا يشتهي ولا يكاد يواجه احداً بما يكره ، افضل الناس عنده اعمهم نصيحة واعظمهم عنده احسنهم مؤاساة ومؤازرة . كان اذا جلس مع الناس ان تكلموا في معنى الآخرة اخذ معهم وان تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم وان تكلموا في الدنيا تحدث معهم .

* * *

اغضاؤه عما لا يحبه وعفوه عند المقدرة

كان النبي (ص) وافر الحلم والاحتمال ، يصل من قطعه ، ويعطي من منعه ، ويبذل لمن حرمه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويغضي طرفه على القذى : ويحبس نفسه عن الاذى ، ويصبر على ما يشق ويكره ، ولا يزيد مع اذى الجاهل الا صبراً وحلماً ، وكم عفا عما بدا من المنافقين في حقه قولاً وفعلا .

حدث انه لما كان المصطفى يقسم بعض الغنائم يوم خيبر قال له رجل : يا رسول الله اعدل ، فقال له المصطفى : ويحك فمن يعدل اذا لم اعدل ؟ فقد خبتُ اذن وخسرت ان كنت لا اعدل ، فقام عمر فقال الا اضرب عنقه فانه منافق ؟ فقال معاذ الله ان يتحدث الناس اني اقتل اصحابي [1] .

وكان الرسول (ص) في حرب فرأى العدو من المسلمين غرة ، فجاء رجل حتى قام على رأس الرسول (ص) بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : الله ، فسقط السيف من يده ، فاخذه المصطفى وقال له : من يمنعك مني ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ . قال المصطفى : قل اشهد ان لا اله الا الله واني رسول الله ، فقال : لا ، غير اني لا اقاتلك ولا اكون معك ، ولا أكون موقع من يقاتلونك ، فخلى سبيله فجاء الرجل اصحابه فقال :جئتكم من عند خير الناس [2] .

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

حسن سياسته

نشأ عن حسن سياسة النبي (ص) واستقامة سيرته انه أحدث انقلاباً عظيماً في أمته فصرف معظمها عما كانت تعرفه الى غير ما تعرفه ، فأذعن له بعضهم طوعاً ، وانقاد له آخرون خوفاً وطمعاً ، وليس من السهل انتزاع كثير من العادات المتأصلة الا لمن كان معاناً بحزم صائب وعزم ثاقب ، ووقف موقف العدل في احكامه وامرهم بالاعتدال فيها .

* * *

طريقته المثلى في الهداية

لقد جاهد الرسول (ص) حتى زلزل العقائد الفاسدة وقضى على العادات المرذولة وما غرس في قومه أو القبائل الاخرى وعداً كاذباً أو ادعى الالوهية أو احاط نفسه بمظاهر الابهة من الحرس والحشم للتهويل في نفوس الناس وارهابهم ، وانما كان يصارح قومه بانه رسول رب العالمين جاء لهم مبشراً ونذيرا .

جاء بالمعجزات الكثيرة ولكنه ما ادعى انه قادر على الاتيان بها بل كان يقول بلسان القرآن (انما انا بشر مثلكم) (قل لا املك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ولو كنت اعلم بالغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء) . (ليس لك من الامر شيء) (قل لا اقول لكم عندي خزائن الله ولا اعلم الغيب ولا اقول لكم اني ملك ان اتبع الا ما يوحى الي) .

عن ابن عباس قال : سمعت عمر سمعت النبي (ص) يقول : لا تطروني كما اطرت النصارى ابن مريم فانما انا عبد فقولوا عبد الله ورسوله [1] .

كان النبي (ص) يوجه نظر معانديه الى الكون وما فيه مما يدل على ان لله سلطاناً على كل شيء ، وان كل مكان لا يخلو من آية من آياته ، واذا سئل عن معجزة قال لسائليه : حسبكم الكون معجزة انظروا الى الارض فهي من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته خلقها لكم وسلك لكم فيها سبلاً تمشون في مناكبها وتأكلون من رزقه ، ثم انظروا الى السحاب المسير في الآفاق يسبح بمائه

---

(١) اخرجه البخاري ومسلم .

فيحيي ارضاً ميتة ويخرج منها زرعاً ونخيلاً واعنابا ، ثم انظروا الى الانعام خلقها لكم تجعل المرعى لبناً سائغاً للشاربين ، ثم انظروا في انفسكم فانكم معجزة لقد كنتم صغاراً ومن قبل لم تكونوا شيئاً مذكورا ، ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة .

* * *

ثباته على مبدئه

لبث المصطفى (ص) ثلاث سنين يعرض دعوته على اقوام جفاة لا دين لأغلبهم الا ان يسجدوا لاصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا حجة لهم الا انهم متبعون لما كان يعبد آباؤهم ، وليس عندهم من مكارم الاخلاق الا ما كان مرتبطاً بالعزة مما كان سبباً في الغارات والحروب واهراق الدماء ، فلم يصادف في خلال هذه السنين الا جمودا وسخرية ، ولم يؤمن به اكثر من ثلاثة عشر رجلاً ، ومثل هذا نجاح بطيء لا يشجع في ذاته ، بيد ان المصطفى (ص) ظل ثابتاً في دعوته قوياً في عزمه وارادته .

ولما امره الله بالجهر بالدعوة في قوله تعالى (فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين) ، اعلن لقريش الدعوة الى توحيد الله تعالى والاخلاص له وترك تعظيم الاصنام وعبادتها ، فكان الرسول يطوف على الناس في منازلهم يقول : يا ايها الناس : ان الله يأمركم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وابو لهب وراءه يقول : يا أيها الناس : ان هذا يأمركم ان تتركوا دين آبائكم [1] .

ثم صعد على الصفا وجعل ينادي : يا بني فهر ، يا بني عدي لبطون قريش ، فجعل الرجل اذا لم يستطع ان يخرج ارسل رسولاً لينظر الخبر ، فقال لهم عليه السلام وهم مجتمعون « أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلاً بالوادي تريد ان تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ » قالوا : نعم . ما جربنا عليك كذبا . قال : فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . فقال ابو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ [2] .

ثم نزل على الرسول (ص) قوله تعالى : (وانذر عشيرتك الاقربين) وهم

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .
(٢) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

بنو هاشم وبنو المطلب وبنو نوفل وبنو عبد شمس ، اولاد عبد مناف فجمعهم عليه السلام وقال لهم : ان الرائد لا يكذب اهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم والله الذي لا اله الا هو اني لرسول الله اليكم خاصة والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احساناً وبالسوء سوءاً وانها لجنة ابداً أو لنار أبداً [1] .

من اجل ذلك استاء قريش حراس الكعبة وخدام الاصنام وجعلوا يقولون : من هذا الذي يزعم انه اعقل منا جميعاً ثم يعنفنا ويرمينا بالجهل والحمق وعبادة الخشب ؟ فأجمعوا على عداوته وقام عمه ابو طالب دونه محامياً عنه ، واضمرت قريش الحقد والعداوة للرسول (ص) ، فمشى رجال من اشرافها الى ابي طالب يقولون له : ان ابن اخيك سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه احلامنا فأما ان تكفه عنا واما ان تخلي بيننا وبينه . فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيه ، فردهم ابو طالب رداً جميلاً فانصرفوا ، والرسول (ص) على ما هو عليه مظهر لدين الله داع اليه . فهالهم الامر حتى مشوا الى ابي طالب مرة اخرى يقولون : انهم لا يصبرون على ابن اخيه ، فأصبح ابو طالب في حيرة بين مفارقة قومه وعداوتهم وخذلان ابن اخيه فتلطف معه ليستبقيه عليه وعلى نفسه ولا يحمله من الامر ما لا يطيق ، ولكن الرسول (ص) قال لابي طالب : يا عماه : لا اترك هذا الامر حتى يظهره الله او أهلك فيه ، فقال له عمه : ما احببت ، فوالله لا اسلمك لشيء ابدا [2] .

وعقب ذلك وثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يضربونهم ويفتنونهم في دينهم ، وافترق امر قريش ، فتعاهد بنو هاشم وبنو عبد المطلب على القيام دون النبي (ص) ، واشتد العذاب على المسلمين . عند ذلك اذن الرسول (ص) لاصحابه في الهجرة الى الحبشة ، ولما رأت قريش استقرارهم في الحبشة ارسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن ابي ربيعة بهدايا وتحف من بلادهم الى النجاشي ليرد المهاجرين الى قومهم ، فابى ذلك وردهما خائبين بهديتهما .

---

(١) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

(٢) محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل لمحمد احمد جاد المولى .

ثم قدم الى مكة من اهل المدينة عدد كثير يقصدون الحج ، فاجتمعوا بالرسول (ص) وعاهدوه ان هو هاجر اليهم على ان يدافعوا عنه وينصروه على اعدائه . ولما سمع المشركون ان الرسول (ص) حالف قوماً عليهم ازداد أذاهم عليه وعلى اصحابه ، فأمر النبي بالهجرة الى المدينة ، فصاروا يتسللون فراراً بدينهم ليتمكنوا من عبادة الله ، وبذلك تمت هجرة النبي (ص) الى دار ينشر فيها الاسلام ، ويكون فيها له العزة والمنعة .

بعض غزوات الرسول ﷺ

ولما وصل الرسول (ص) الى قباء اقام بها اربعة ايام اسس فيها مسجد قباء ، وفي ذلك اليوم سار الى المدينة تحفه الانصار . ثم آخى الرسول (ص) بين المهاجرين والانصار فكان كل انصاري ونزيله اخوين في الله . وقد وجد المسلمون في المدينة عقبات تعرقل مساعيهم وهم اليهود من بني قينقاع وقريظة والنضير فانهم كفروا بالرسول (ص) حسداً من عند انفسهم من بعد ما تبين لهم انه الحق ، وكانوا قبل مجيء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه ، فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم ان تكون النبوة في ولد اسماعيل فكفروا بمحمد واخذوا يكيدون له ولاصحابه .

وكانت تساعد اليهود على مقاصدهم جماعة من العرب آمنوا علناً واخفوا الكفر في نفوسهم ولا شك ان ضرر هؤلاء المنافقين اشد على المسلمين من ضرر الكفار لأن اولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون اسرارهم ويشيعونها بين الاعداء من اليهود وغيرهم ، فلم يسع الرسول (ص) الا ان عقد مع اولئك عهداً مقتضاه ترك الحرب والاذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه احداً وان دهمه بالمدينة عدو ينصرونه واقرهم على دينهم .

* * *

غزوة بدر

كانت قريش امة معادية آذت المسلمين واخرجتهم من ديارهم بعد ان فعلت بهم الافاعيل ، واستولى مشركو مكة على ما تركه المسلمون فيها بعد ان بارحوا اوطانهم مرغمين فكان ذلك داعياً الى ان يصادر النبي (ص) تجارتهم التي يذهبون بها الى الشام والتي يجلبونها منه .

خرجت عير من مكة يقدمها ابو سفيان بن حرب ومعه ثلاثون أو اربعون رجلاً

من قريش فذهبت الى الشام وباعت وابتاعت وحينما عادت العير علم بها الرسول (ص) فندب اليها اصحابه وقال : هذه عير قريش فاخرجوا اليها لعل الله ان ينفلكموها فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل آخرون لانهم لم يكونوا يظنون ان الرسول (ص) يلقى حرباً وكانت عدة من خرج معه ٣١٤ رجلاً ٨٣ من المهاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج . ولما علم ابو سفيان قائد حرس تلك التجارة بعث من يخبر قريشاً بالخبر ، فخافوا على تجارتهم فخرج لحمايتها جماعة كانت عدتهم بين ٩٠٠ ــ ١٠٠٠ ولما علم الرسول (ص) بخبر نهوض قريش جمع اصحابه وقال لهم : شدوا عليهم فهزموا قريشاً وقتلوا نحو السبعين واسر نحو السبعين وانهزمت بقيتهم لا تلوي على شيء . وقتل من المسلمين ١٤ رجلاً .

* * *

غزوة بني قينقاع

كان بنو قينقاع اول يهود نقضوا عهودهم وظهر منهم بعد بدر ما كان خافياً من عدائهم اذ انهم قالوا له يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب فاصبت منهم فرصة والله لان حاربناك لتعلمن انا نحن الناس . وعقب ذلك سار اليهم الرسول (ص) بجنود فتحصنوا في حصونهم فحاصرهم خمس عشرة ليلة في آخرها نزلوا على حكمه ، فاجلاهم من المدينة فخرجوا منها الى اذرعات بالشام واقاموا فيها .

* * *

غزوة احد

هذه الغزوة مكنت القريشيين من الاخذ بثأرهم وذلك ان قريشاً لما أصابها ما أصابها ببدر من وقوف تجارتها ومقتل قادتها عزمت ان تؤمن طريقها وتأخذ بثأرها فاجتمع نحو ثلاثة آلاف رجل وخرج مع هذا الجيش نسوة يعزفن بالدفوف ، فلما سمع النبي (ص) بهم وبنزولهم استشار اصحابه أيخرج اليهم أم يقيم في المدينة فقال له عبد الله بن ابي بن سلول وكان رئيساً في الانصار الا انه كان يضمر نفاقاً : نرى ان نقيم بالمدينة وندعهم حيث نزلوا فان اقاموا اقاموا بشر مقام ، وان دخلوا علينا قاتلناهم فيها وكان ذلك رأي الرسول (ص) ، ولكن رأى جمهورهم

ان يخرج الى العدو ، فما زالوا به حتى غيروا عزيمته ، فخرج في الف رجل حتى اذا كان بالشوط انخزل عنه عبد الله بن ابي بن سلول بثلث الناس وقال : اطاعهم وعصاني ما ندري علام نقتل انفسنا هنا ايها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه ، ومضى الرسول (ص) بسبعمائة رجل نزل بهم في شعب أحد ، وجعل ظهره للجبل ووجهه للمدينة ، وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد جنبوها وكان على ميمنة خيلهم خالد بن الوليد وعلى مسيرتها عكرمة بن ابي جهل .

ثم ابتدأ القتال بالمبادرة ، ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين ثلاث مرات وفي كلها يتقهقرون من النبل ولما تلاقت الصفوف ابتدأت نساء المشركين يضربن الدفوف وينشدن الاشعار تهييجاً للحمية .

وفي هذه الوقعة ابلى المسلمون بلاءً حسناً وكادوا ينتصرون على اعدائهم الا ان الرماة لما رأوا المشركين انكشفوا ، مالوا الى العسكر وخلوا ظهور المسلمين المعدو فالتفت خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد حتى جاءتهم من خلفهم وبعضهم مشتغل بأخذ الغنيمة فاحتلت صفوفهم ، واخذت لواء المشركين عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لقريش فاجتمعوا اليه ، واشاع بعضهم ان الرسول (ص) قد قتل ففشل المسلمون وانهزموا .

* * *

غزوة الخندق وهي غزوة الاحزاب

بلغ الرسول (ص) تحزب قبائل العرب فحفر حول المدينة خندقاً وأتت قريش ومن تبعها من كنانة وغطفان وغيرهم في عشرة آلاف مقاتل .

فلما بلغ الرسول (ص) خبر هذه الجموع استشار اصحابه في العمل فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق فأمر اصحابه بعمله وكان يعمل معهم ويحمل التراب على عاتقه .

واقام جيش المسلمين في الجهة الشرقية وقد جعلوا ظهورهم الى جبل سلع ، وكان عدده ثلاثة آلاف مقاتل ، ونزلت قريش ومن معها بمجتمع الاسيال ونزلت غطفان بذنب نقمي الى جانب احد .

ولبث الفريقان بضعاً وعشرين ليلة لم يكن بينهما حرب الا المراماة بالنبل والحصار ، ثم اختلفت احزاب المشركين فرحلوا بعد ان استشهد من المسلمين ستة .

* * *

فتح مكة

كانت بطون خزاعة قددخلت في عهد الرسول (ص) ، وبكر دخلت في عهدقريش، وكان بين الحيين في الجاهلية دماء ، فاغتنم ابو الديل من بني بكر الفرصة وارادوا ان يصيبوا من خزاعة ثأرهم ، ورفدتهم قريش بالسلاح وخرج منهم نفر يقاتلون خزاعة ، فقدم من خزاعة عمرو بن سالم الخزاعي على الرسول (ص) في المدينة وانشده شعراً يخبره فيه بنقض قريش لعهدهم ومظاهرتهم لبني بكر على خزاعة ويطلب منه النصر وفاءً بالعهد ، ثم خرج بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة حتى اتوا الرسول (ص) فأخبروه بما نقضت قريش من العهد .

اما قريش فقد ادركت خطأها وارسلت ابا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد في المدة فلم ينجح وكان مجيئه على هذه الصورة مما اكد الخبر عند الرسول (ص) والمسلمين ، فامرهم ان يتجهزوا الى مكة وامرهم بالجد ، ولم يكن يحب ان تعلم قريش بمسيره فخرج في عشرة آلاف رجل يريد مكة .

وكانت قريش تتوقع وقوع شيء بعد ان فعلت ما فعلت ولكن عميت عليهم الاخبار فلم يعلموا بشيء من مسير المسلمين اليهم ، وبينا المسلمون بمر الظهران خرج ابو سفيان وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء يتجسسون الاخبار فظفرت بهم جنود المسلمين .

ثم اسلم ابو سفيان واكرمه الرسول (ص) بان جعل كل من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ، ثم اطلق فذهب الى مكة مسرعاً ونادى بأعلى صوته : يا معشر قريش محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به واعلن لهم كلمة الرسول (ص) فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد ، ثم سار الرسول (ص) بجنوده حتى دخل من اعلى مكة ولم يحصل بين المسلمين وقريش الا مناوشات لا تستحق الذكر ، فلما نزل مكة واطمأن الناس سار

الى البيت فطاف به سبعاً على راحلته ، ثم أخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان ابن طلحة الشيبي ، ثم وقف على باب الكعبة وقال : لا اله الا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده الا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى به فهو تحت قدمي هاتين الا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ثم قال : يا معشر قريش ان الله قد اذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم قال : يا معشر قريش ما تظنون اني فاعل بكم قالوا : خيراً ، اخ كريم وابن اخ كريم قال : اذهبوا فانتم الطلقاء [1] .

ثم رد مفتاح الكعبة الى سادنها ، ودخل البيت فازال ما به من الصور والتماثيل المختلفة ودخل في الاسلام ذلك اليوم معظم قريش ولم يتخلف منهم الا القليل ثم اسلموا بعد ، وقضى خضوع قريش ودخولهم في الاسلام القضاء الاخير على الوثنية في جزيرة العرب لانهم كانوا حماتها وانصارها والعرب في ذلك لهم تبع .

* * *

غزوة حنين

سبب هذه الغزوة ان بني هوازن وبني ثقيف انفوا ان يدخلوا فيما دخل فيه اخوانهم من العرب فاجتمع قادتهم وقرروا الاغارة على مكة .

ولما سمع الرسول بهم خرج اليهم ومعه اثنا عشر الفاً حتى بلغ وادي حنين ، وكان هوازن وثقيف قد كمنوا في شعابه فشدوا على المسلمين شدة رجل واحد قبل ان يهيء هؤلاء صفوفهم فانهزم المسلمون لا يلوي بعضهم على بعض وثبت الرسول (ص) في نفر من المهاجرين والانصار واهل بيته حتى اذا اجتمع اليه منهم مئة استقبلوا الناس فاقتتلوا ، ثم تلاحق بهم من كانوا تركوا الموقعة وكانت حدة العدو قد انكسرت فلم تكن الا ساعات قلائل حتى هزموا عدوهم هزيمة منكرة وقتل من ثقيف وحدهم نحو السبعين وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وغيرهما .

---

(١) تاريخ الامم الاسلامية ـ الجزء الاول ـ لمحمد الخضري .

نشر الاسلام خارج بلاد العرب

لما علت كلمة الاسلام انفذ الرسول (ص) رسله الى مختلف الاقطار وارسل البعوث الى ملوك الفرس والروم ومصر والحبشة ، فرد بعضهم رداً حسناً كالمقوقس عظيم القبط وارسل الى النبي (ص) جملة هدايا ، ومنهم من ابى واستكبر واهان الرسل فكانت عاقبته الخسران المبين .

* * *

غزوة تبوك

وتعرف بغزوة العسرة لانها كانت في زمن عسرة الناس وجدب الارض وشدة الحر ، وسببها ان الروم جمعت الجموع بالشام مع هرقل تريد غزو المسلمين في بلادهم ، فعلم الرسول (ص) بذلك فسار بجيش عدده ثلاثون الفاً من مكة والمدينة وقبائل العرب ، وقد استقبل المسلمون فيها سفراً بعيداً ومفاوز مهلكة وعدواً كثيراً حتى انهم كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء ، ولما وصلوا الى تبوك جاءهم يوحنا بن رؤبة صاحب ايلة فصالح الرسول (ص) واعطاه الجزية ، وأتاه اهل جرباء وأهل اذرح فأعطوه الجزية ، ثم بعث وهو بتبوك خالد بن الوليد الى اكيدردومة ، فذهب اليه واسره وجاء به الى الرسول (ص) فحقن له دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله فرجع الى قريته ، واقام المسلمون بتبوك اياماً ثم انصرفوا الى المدينة . وهذه الغزوة آخر مرة خرج بها الرسول (ص) محارباً .

* * *

وفاة الرسول

في شهر صفر من سنة ١١ هـ ابتدأ الرسول (ص) يشكو من حمى اصابته فاستأذن نساءه ان يمرض في بيت عائشة فأذن له ، ولما كان يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ هـ و٦٣٢ م . توفي الرسول (ص) وانتشر خبر وفاته بين أصحابه فاندهشوا لذلك الخبر العظيم وطاشت عقولهم واختلفت احوالهم ، وجاء ابو بكر وعيناه تهملان فقبل النبي (ص) وقال بأبي انت وامي طبت حياً وميتاً وتكلم كلاماً

بليغاً سكن به نفوس المسلمين وثبت جأشهم ، ثم قام وصعد المنبر وقال : ايها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افائن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين [1] .

(١) السيرة الحلبية ج٣ لبرهان الدين الحلبي .

رأي بعض الباحثين
في الرسول

قال سيديو : شب محمد (ص) حتى بلغ فكان اعظم النـاس مروءة وحلماً وأمانة واحسنهم جواباً واصدقهم حديثاً وابعدهم عن الفحش حتى عرف في قومه بالامين .

وقال ايضاً : كان الرسول (ص) أمياً ارجح الناس عقلاً وافضلهم رأياً دائم البشر مطيل الصمت لين الجانب سهل الخلق يكثر الذكر ويقل اللغو يستوي عنده في الحق القريب والبعيد والقوي والضعيف يحب المساكين لا يحقر فقيراً لفقره ولا يهاب ملكاً لملكه يؤلف اصحابه ولا ينفرهم ويصابر من جالسه او قاومه أو صافحه ولا يحيد عنه حتى يكون الرجل هو المنصرف يتفقد اصحابه يجلس على الارض ويخصف النعل ويرقع الثوب [1] .

*

وقال هنري دي كستري : اذن لا يمكن ان ننكر على محمد (ص) في الدور الاول من حياته كمال ايمانه واخلاص صدقه ، فأما الايمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه في الدور الثاني ، وما أوتيه من النصر كان من شأنه ان يقويه على الايمان لولا ان الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغاً لا محل للزيادة فيه ولم يكن فيه عيب ، بل ان ما نسبوه اليه من هذا القبيل لا يؤثر بشيء في سيرته الطاهرة فما كان يميل الى الزخارف ولم يكن شحيحاً تجرد من الطمع وتمكن من نيل المقام الأعلى في بلاد العرب ، ولكنه لم يجنح الى الاستبداد فيها ، فلم يكن له حاشية ، ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً ، وقد احتقر المال والمعالي ، وبلغ من السلطان منتهاه ، ولم يكن له من علامات الامارة والملك سوى قضيب من الفضة مكتوب عليه (محمد رسول الله) .

---

(١) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

وان محمداً (ص) قاوم الوثنية بعزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الأحد كما فعل الملك الروماني « الامبراطور قسطنطين » وكان ايمانه ثابتاً على الدوام لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ ولو انه جال بفكره شك في صدق رسالته لكفى بنصره الدائم مزيلاً لهذه الغمة ومؤيدا له في صحة نبوته وصدق رسالته ــ ان الذين ينكرون صدق محمد (ص) في آخر حياته لا يستطيعون ان ينكروا عليه انه بقي الى آخر لحظة منها نبياً رسولاً شديد التمسك بمذهبه وانه فارق الدنيا بعد ان أدى رسالته ، فلقد اتفق مؤرخو العرب طراً على الحوادث التي تخللت ايامه الاخيرة واورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لا يتغير مما يبرهن على صدق حديثهم واماناتهم في نقلهم [1] .

*

وقال جرجي زيدان : زعم بعض الكتاب من غير المسلمين ان صاحب الشريعة الاسلامية انما قام بهذه الدعوة طمعاً بالسيادة ورغبة في ملاذ الدنيا .

واما نحن فلا نرى مسوغاً لهذا القول وتاريخ الدعوة يدل دلالة صريحة على انه انما قام بها عن صدق واخلاص ، فلم يدع الناس الى الاسلام الا وهو يعتقد اعتقاداً متيناً بصحة رسالته وان الله ارسله لبث تلك الدعوة ، ولولا هذا الاعتقاد لم يصبر على ما ناله من الاضطهاد وضروب العذاب ، وقد رأيت انه كان قبل ظهوره بالدعوة موضع احترام اهل مكة كافة ، واهله يحبونه ويكرمونه وهو في عيش هنيء لما اكتسبه من اسباب اليسار بزواجه بخديجة واتجاره باموالها ، فاصبح بعد ظهوره بالدعوة وقد ناصبه اهل مكة العداء وساموه انواع العذاب واهانوه حتى نقموا على بني هاشم لانهم اهله ، فتعاقدوا عليهم ان لا يناكحوهم ولا يبايعوهم وكتبوا بذلك صحيفة اودعوها في جوف الكعبة ، فاضطر بنو هاشم ان ينفردوا الى الجبال فاقاموا في الشعب ثلاث سنين لا ينزلون مكة الا خفية ــ الا من جاهر منهم بعداوته كأبي لهب ونحوه .

---

(١) الاسلام خواطر وسوانح لهنري دكستري .

ولا يعترض على ما تقدم بانه لم يثبت الا لاحتمائه بعمه ابي طالب لاننا رأيناه بعد وفاة عمه اكثر ثباتاً منه في حياته ، مع ان الناس اصبحوا اكثر اضطهاداً له مما كانوا قبل وفاته ، وخصوصاً بعد وفاة خديجة وقد ماتا قبل الهجرة بثلاث سنين ، فتتابعت بموتهما المصائب عليه واستبدت به قريش ولا سيما عمه ابو لهب والحكم ابن العاص وعقبة بن ابي معيط لانهم كانوا جيرانه بمنزله ، فكانوا يلقون الاقذار في طعامه ويرمونه بها وقت صلاته .

حتى اذا لم يعد يستطيع صبراً على هذا الضيم فر الى الطائف لعله يلقى فيها من ينصره ويؤمن بدعوته ، فلم يلق الا الاعراض والاهانة فعاد وقد يئس منهم لكنه لم يرجع عن حرف من دعوته ، ولم يكتف اهل الطائف باعراضهم عنه بل اغروا بعض سفهائهم وعبيدهم ان يسبوه ويصيحوا به ففعلوا حتى اجتمع عليه الناس والجأوه الى الحائط وردوا السفهاء عنه فرجعوا ، فاحس عندئذ بما هو فيه من الضيق فشكا امره الى الله وعاد الى مكة ولم يغير ذلك شيئاً من عزيمته ، فلقيه قومه هناك وهم اشد وطأة عليه مما كانوا من قبل .

فاعتبر حاله بعد ذلك الرجوع وقد نبذه الناس قريبهم وبعيدهم مع علمه انه اذا رجع عن دعوته لقي منهم ترحيباً واكراماً كما صرحوا له جهاراً ، لكنه لم يكترث بشيء من ذلك ولا همه امر الدنيا .

فلولا اعتقاده المتين بصدق الدعوة التي قام بها ، وانه منتدب لهذه الرسالة من الله سبحانه وتعالى لما صبر على كل ذلك [1] .

*

وقال توما كارليل : اني احب محمداً (ص) لثباته واستقامته فانه مهذب لنفسه لا يدعي بما ليس فيه ولا اثر للكبرياء فيه ، على انه ليس بالذليل ، وكان يرقع ثوبه ويخصف نعله ، هذا تواضعاً يقول الحق بسائر الاحوال لا كاسرة العجم وقياصرة الروم بما يجب عليهم من الفرائض ينزل الناس منازلهم يعلم حقائق الاشياء

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ـ الجزء الاول ـ لجرجي زيدان .

لا كمن يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا يرى سائر الكمالات لله تعالى وان التقصير من شأن القوى البشرية [1] .

*

وقال هنري ماسه : اذا بحثنا عن الرسول (ص) بحثاً اجمالياً نجده ذا مزاج عصبي وفكر دائم التفكير ونفس باطنها حزين ، واما مداركه فهي تمثل شخصاً يعتقد بإله واحد وبوجود حياة أخرى ، ويتصف بالرحمة الخالصة والحزم في الرأي والاعتقاد ، ويضاف اليه انه رجل حكومة واحياناً رجل سياسة وحرب ، ولكنه لم يكن ثائراً بل بالعكس كان مسالماً [2] .

*

وقالت لورا فسيا واليري (Laura Veccia Vaglieri) : كان محمد (ص) رئيساً للدولة وساهراً على حياة الشعب وحريته وكان يعاقب الاشخاص الذين يجترحون الجنايات حسب احوال زمانه واحوال تلك الجماعة الوحشية التي كان يعيش النبي (ص) بين ظهرانيها ، فكان النبي (ص) داعياً الى ديانة الاله الاحد ، وكان في دعوته هذه لطيفاً ورحيماً حتى مع اعدائه ، وان في شخصيته صفتين من اجل الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما العدالة والرحمة [3] .

*

وقال الدكتور شبلي شميل : ولا بد لي كيف كان الامر من نصر القرآن اعجاباً به وبصاحبه وان كنت خارجاً عن دينه فالحقيقة اعم من ان تكون ضالة المؤمن وحده كما يفهمون ونصرها واجب على كل منصف ، وكيف لا يحق لي الاعجاب بصاحب هذا الكتاب والناس قد بلغ اعجابهم برجل مثل نابليون الى ان عدوه من خوارق الطبيعة ولولا ان قلت عاطفة التقى لألهوه والظاهر ان الناس لا يعظمون الا كل فتاك بهم ، والفرق بين الاثنين اجتماعياً كالفرق بين الثريا والثرى ،

---

(١) اعتقاد الاسلام لعبد الله وليم كوليام .

(٢) الاسلام لهنري ماسه . H. Massé - L'Islam.

(٣) تقريظ دين الاسلام للورفسيا واليري . Laura Veccia Vaglieri - Apologie de l'Islamisme

وهل يقاس بالمصلح الحقيقي رجل سفاح كنابوليون ضحى لمطامعه كل غاية اجتماعية وبنى على انقاض الثورة الفرنساوية الجليلة المبدأ التي هدمها بيده بعد ان استخدمها لمقاصده (١) .

*

وقال بارتيلمي سنت هيللر : كان محمد (ص) اذكى وادين وارحم عرب عصره (٢) .

*

وقال غودفرويه ديمومبين (Gaudefroy - Demombynes) : ان مهارة محمد (ص) في الصبر واللين ونفوذه النبوي ، كل ذلك كان كافياً وحده لبلوغ مطامعه (٣) .

*

وقال حنا داقنبرت في كتابه محمد والاسلام : كلما ازداد الباحث تنقيباً في الحقائق التاريخية الوثيقة المصادر فيما يخص الشمائل المحمدية يزداد احتقاراً لشانئي محمد (ص) مثل مركسي وبريدو ومن المتأخرين فردرك شلجل وغيرهم من الذين اشرعوا اسنة الطعن في النبي (ص) (٤) .

*

وقال فولتير (Voltaire) : اذا نظرنا الى جميع المشرعين الذين حملوا الى هذا العالم شرائعهم نجد محمداً (ص) ينفرد عنهم بنشر دينه بالفتوحات ، نعم ان كثيراً من الشعوب حملت معتقداتهم الى شعوب أخرى ولكنها أيدتها بالنار والحديد ولم يكن قط مؤسس شريعة فاتحاً ، وتلك ميزة امتاز بها المسلمون وهي لأقوى البراهين على ان اللاهوت قد استوفى نصيبه من العناية التي تعهدها نبي هذه الشريعة (٥) .

---

(١) مجموعة الدكتور شبلي شميل .

(٢) حضارة العرب لغوستاف لوبون . G. Le Bon - La civilisation des Arabes.

(٣) العالم الاسلامي والبيزنطي حتى الحروب الصليبية لغودفرويه ديمومبين وبلاتونوف
Gaudefroy - Demombynes & Platonov - Le monde musulman & byzantin jusqu'aux croisades.

(٤) اعتقاد الاسلام لعبد الله وليم كوليام .

(٥) العالم جزيرة العرب ــ لدفرجه . Desvergers - L'Univers - L'Arabie.

وقال ادوار مونته (Edouard Montet) : عرف محمد (ص) بخلوص النية والملاطفة وانصافه في الحكم وبنزاهة التعبير عن الفكر والتحقق [١] .

*

وقال سيديو : واما اخلاق محمد (ص) فكانت غاية في الكمال منها عفوه عن الد اعدائه بعد فتح مكة وحلمه في الأخذ بحقوق الحرب من القبائل ، واما زهده فلا يختلف فيه اثنان فانه لم يتحول عن شظف العيش مع ما طالت يده من الاموال والخيرات رأى الملوك ولم يتخذ ابهتهم مع ما بلغ من السلطان الذي لا يبارى والشوكة التي لا ترام ، وكان نافذ الامر والنهي بشوشاً حسن المعاملة مع الرفيع والوضيع حليماً ولا سيما عند السؤال [٢] .

*

وقال بثورث اسمث في كتابه حياة محمد : ان محمداً (ص) لمؤسس أمة ومملكة وديانة وهذا امر لم يوجد له سبق مثال ولن يوجد وهو أمي لا يعلم القراءة والكتابة ، وقد جاء بكتاب مشتمل على دستور الشرائع والعبادات واخبار الامم [٣] .

*

قال غوستاف لوبون : اذا قدرنا عظمة الرجال باعمالهم يمكننا ان نقول : ان محمداً (ص) من اجل الرجال الذين عرفهم التاريخ [٤] .

---

(١) القرآن ــ ترجمة جديدة لادوار مونته .
Edouard Montet - Le Coran - Traduction nouvelle.

(٢) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

(٣) اعتقاد الاسلام لعبد الله وليم كوليام .

(٤) حضارة العرب لغوستاف لوبون . G. Le Bon - La civilisation des Arabes.

الفصل الثالث

نموذج من تعاليم

محمد بن عبد الله

تعاليمه في العقائد

جاء محمد (ص) بتوحيد الله في ذاته وافعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين وانه رب العالمين وكل شيء في الوجود خاضع لأمره ، وهو الفعال المطلق لما يريد ، وكل شيء من مظاهر الكون فعنه صدر ، وهو محيط بكل شيء علماً ، وهو على كل شيء قدير ، وانه قريب مجيب الخ .

قال تعالى (قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد) (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ...) (لله ما في السموات وما في الارض) (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض ...) (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) (الله الذي سخر لكم البحر) (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها) (هو الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا بعلمه ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين) (والله على كل شيء قدير) (ان ربك هو القوي العزيز) (واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداعي اذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي) (ونحن اقرب اليه من حبل الوريد) .

جاء محمد (ص) بتعاليمه هذه ليجتث جذور الوثنية ، ويطهر العقول من الاوهام الفاسدة التي علقت بعقول الناس وافهامهم ، وينكس اعلام الكهنة الذين

كانوا يتحكمون في خطوات الناس وهواجسهم ، فكان الرجل منهم لا يبرم امراً أو ينقضه سواء في شؤونه الخاصة أو العامة الا باقرار رجال الدين عليه ولو وقف الأمر عند هذا الحد لكان الحال اشبه بتغلب طائفة على أخرى في الامور الحيوية ، ولكن الامر المزعج انهم فصلوا ما بين الانسان ومبدعه واقاموا انفسهم وسطاء بينهما يتسلطون بتلك الوساطة على الناس في عقائدهم واموالهم ومتاعهم .

وبعثة الرسل : وهم افراد من خلقه يختارهم الى هداية البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه : ومن هؤلاء ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد (ص) وغيرهم « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهرون وسليمان » « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » « رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

ووراء هذه الحياة حياة أخرى يومها يوم القيامة واليوم الآخر ويوم الحساب ويوم الدين (ثم انكم لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) وهذا اليوم هو يوم المثوبة على العمل الصالح والعقوبة على العمل السيء وكل عمل أتاه الانسان يسجل عليه ثم يقدم له يوم القيامة (وكل انسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (يومئذ يصدر الناس اشتاتاً ليروا اعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقد جعل الله للمثوبة والعقوبة دارين : دار المثوبة وهي الجنة ودار العقوبة وهي النار .

ووراء هذا العالم المادي عالم آخر روحي وفيه نوعان من الارواح ، نوع خير يطيع الله ما امره ويجذب نفوس الناس الى الخير ويسمى الملائكة ، ونوع شرير يستغوي النفوس الى الشر ويسمى الشياطين .

* * *

تعاليمه في العبادات

العبادات هي اساسية كالعقائد ، وهي الصلاة ويقصد بها ان تكون مظهراً من

مظاهر الاخلاص لله وتعبيراً دينياً يشرح عاطفة الاجلال له « واقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر » .

ووجب على من اراد الدخول في الصلاة الطهارة (يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وايديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وارجلكم الى الكعبين) .

(ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً الا عابري سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء احد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً فأمسحوا بوجوهكم وايديكم) .واوجب على كل مصل ان يولي وجهه شطر المسجد الحرام حين صلاته (فولي وجهك شطر المسجد الحرام) .

وصوم شهر رمضان ــ (ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون اياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من ايام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وان تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون . شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون) .

(أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الاسود من الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد) .

والحج والعمرة على من استطاع اليه سبيلا ــ (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لاتشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود واذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا

منافع لهم ويذكروا اسم الله في ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها واطعموا البائس الفقير • ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيـلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين) (واتموا الحج والعمرة لله) •

وبين وقت الحج وآداب الحاج ــ (الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) •

وبين مناسك الحج ومشاعره ــ (ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ومن تطوع خيراً فان الله شاكر عليم) (فاذا افضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وان كنتم من قبله لمن الضالين ، ثم افيضوا من حيث افاض الناس واستغفروا الله ان الله غفور رحيم ، فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم او اشد ذكرا) (ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب لكم فيها منافع الى اجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق) (والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها واطعموا القانع والمعتر) (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرامولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً) (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد) •

وقال في نظام الاحصار والتمتـع ــ (فان أحصرتم فما استيسر من الهدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله فمن كان منكم مريضاً أو به أذىً من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك فاذا امنتم فمن تمتـع بالعمرة الى الحج فما استيسر من الهدي فمن لم يجد فصيام ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة ذلك لمن لم يكن اهله حاضري المسجد الحرام) •

وقد جعل الله مكة حرماً آمناً ــ (أولم يروا انا جعلنا حرماً آمناً يتخطف الناس من حولهم أو لم نمكن لهم حرماً آمنـاً يجبى اليه ثمرات كل شيء رزقـا من لدنا) •

وحرم الصيد على المحرم وجعل لذلك جزاء ــ (ياأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وانتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هدياً بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً) .

الزكاة ــ اهتم القرآن بالزكاة كما اهتم بالصلاة فكثيراً ما يذكران معاً وقد تذكر الزكاة وحدها بلفظ الزكاة أو بلفظ الصدقة (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة ــ خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ــ كلوا من ثمره اذا اثمر وآتوا حقه يوم حصاده ــ وما اوتيتم من رباً ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله وما أوتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون) .

وبين القرآن من تدفع لهم الصدقات (انما الصدقات للفقراءوالمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

* * *

تعاليمه في الاخلاق

اتى الرسول (ص) بتعاليم اخلاقية فاضلة : حرمت التجسس والغيبة والتحاسد والتباغض والتدابر والكذب والتنابز بالالقاب والنفاق وخلف الوعد والخيانة والكبر ، وامر بالتواضع والرفق والتراحم والاحسان والعفو وكظم الغيظ والكف عن الاذى والشر وعمل الخير والتخلق بالخلق الحسن والحياء والذب عن العرض وشكر الناس على معروفهم وعيادة المريض وافشاء السلام وآداب الاستئذان واداء الامانات الى اهلها وخفض الصوت والصبر وعدم الخصام وعدم الاطراء الخ .

« ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ايحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » .

عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : اياكم والظن فان الظن اكذب الحديث ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا [1] .

---

(١) صحيح البخاري ج٤ .

« ياأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيراً منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

« وذروا ظاهر الاثم وباطنه ان الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون » .

« قل اعوذ برب الفلق .... ومن شر حاسد اذا حسد » .

عن انس بن مالك ان رسول الله قال : لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا ولا يحل لمسلم ان يهجر اخاه فوق ثلاث [1] .

« قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » .

« بشر المنافقين بأن لهم عذاباً اليماً »

عن ابي هريرة ان رسول الله (ص) قال : « آية المنافق ثلاث اذا حدث كذب واذا وعد اخلف واذا أوتمن خان [2] .

عن ابي هريرة ان رسول الله (ص) قال : ان من شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه [3] .

« ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون »

« ولاتمش في الارض مرحاً انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا »

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين »

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هوناً واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً »

عن عبد الله قال ، قال رسول الله (ص) : لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة من ايمان [4] .

---

(١) صحيح مسلم ج٨ .
(٢) صحيح البخاري ج٤ .
(٣) صحيح مسلم ج٨ .
(٤) الجامع الكبير للترمذي ج٢ .

عن عياض قال قال رسول الله (ص) : ان الله اوحى الي ان تواضعوا حتى لايبغي احد على احد ولا يفخر احد على احد [1] .

عن ابي هريرة عن رسول الله (ص) قال : ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً يعفو الا عزاً وما تواضع احد لله الا رفعه الله [2] .

عن حارثة بن وهب الخزاعي عن النبي (ص) قال : الا اخبركم باهل الجنة كل ضعيف متضاعف لو اقسم على الله لأبره ، الا اخبركم باهل النار كل عتل جواظ مستكبر [3] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : ليس الغنى عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس [4] .

عن ابن عمرو بن العاص قال قال رسول الله (ص) : الراحمون يرحمهم الله تعالى ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء ، الرحم شجنة (القرابة المشتبكة) من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله تعالى [5] .

عن ابي هريرة قال : قبل الرسول (ص) الحسن بن علي وعنده الاقرع بن حابس التيمي جالساً فقال الاقرع : ان لي عشرة من الولد ما قبلت منهم احداً ، فنظر اليه الرسول (ص) ثم قال من لايرحم لا يرحم [6] .

عن ابي الدرداء عن النبي (ص) قال (من اعطي حظه من الرفق فقد اعطي حظه من الخير ومن حرم حظه م الرفق فقد حرم حظه من الخير [7] .

« هل جزاء الاحسان الا الاحسان »

« وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احساناً . اما يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً »

« فأما اليتيم فلا تقهر واما السائل فلا تنهر »

---

(١) اخرجه ابو داود (٢) صحيح مسلم ج٦ (٣) صحيح البخاري ج٤
(٤) اخرجه الشيخان والترمذي (٥) أخرجه ابو داود الى قوله من في السماء والترمذي بتمامه
(٦) صحيح البخاري ج٤ (٧) الجامع الكبير للترمذي ج٢

« خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين »

« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » .

« ياأيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي اليه تحشرون » .

« قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها »

عن ابي موسى الاشعري قال قال النبي (ص) : على كل مسلم صدقة قالوا فان لم يجد قال فيعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق قالوا فان لم يستطع أو لم يفعل قال فيعين ذا الحاجة الملهوف قالوا فان لم يفعل قال فيأمر بالخير أو قال بالمعروف قالوا فان لم يفعل قال فيمسك عن الشر فانه له صدقة [1] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : الا اخبركم بخيركم وشركم ؟ ثلاث مرات قالوا بلى قال : خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره . وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره [2] .

عن ابي هريرة ان رسول الله (ص) قال لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه [3] .

عن عبد الله بن عمرو عن النبي (ص) قال المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه [4] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً او ليصمت [5] .

عن عبد الله عن النبي (ص) قال : ان الصدق يهدي الى البر وان البر يهدي الى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ، وان الكذب يهدي الى الفجور وان الفجور يهدي الى النار ، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً [6] .

عن ام كلثوم بنت عقبة انها سمعت رسول الله (ص) يقول : ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً او يقول خيراً [7] .

---

(١) صحيح البخاري ج٤ (٢) اخرجه الترمذي . (٣) صحيح مسلم ج١ .
(٤) صحيح البخاري ج١ (٥) صحيح البخاري ج٤ (٦) صحيح البخاري ج٤
(٧) صحيح البخاري ج٢ .

عن عبد الله ان النبي (ص) قال : السمت الحسن والتـؤدة والاقتصاد جزء من اربعة وعشرين جزءاً من النبوة [١] .

عن ابي الدرداء ان النبي (ص) قال : ما شيء" أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن فان الله تعالى ليبغض الفاحش البذي [٢] .

عن ابي ذر قال قال رسول الله (ص) : اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئةالحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن [٣] .

عن ابي شيبة عن النبي (ص) قال : كل معروف صدقة [٤] .

عن ابي ذر قال قال لي النبي (ص) : لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو ان تلقى اخاك بوجه طلق [٥] .

وعن ابي شريح العدوي ان الرسول (ص) قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره [٦] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : الحياء من الايمان والايمان في الجنة والبذاء من الجفاء والجفاء في النار [٧] .

عن ابي مسعود قال قال النبي (ص) : ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ما شئت [٨] .

عن عقبة بن عامر قال ، قال رسول الله (ص) : من رأى عورة فسترها كان كمن أحيى مؤودة [٩] .

عن ابي الدرداء قال قال رسول الله (ص) : من ذب عن عرض اخيه رد الله النار عن وجهه يوم القيامة [١٠] .

عن ابي سعيد ان النبي (ص) قال : من لايشكر الناس لايشكر الله تعالى [١١] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله تعالى ناداه مناد : أن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا [١٢] .

---

(١) الجامع الكبير للترمذي ج٢ (٢) الجامع الكبير للترمذي ج٢ (٣) اخرجهالترمذي
(٤) صحيح مسلم ج٣ (٥) صحيح مسلم ج٨ (٦) صحيح البخاري ج٤
(٧) الجامع الكبير للترمذي ج٢ (٨) صحيح البخاري ج٤ (٩) أخرجه ابو داود
(١٠) أخرجه الترمذي (١١) اخرجه الترمذي (١٢) اخرجه الترمذي .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : المرء على دين خليله ، فلينظر احدكم من يخالل [1] .

« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها » .

عن عبد الله بن عمرو : ان رجلاً سأل النبي (ص) اي الاسلام خير قال : تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف [2] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير [3] .

« ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فان لم تجدوا فيها احداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح ان تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » .

عن عطاء الخراساني ان رسول الله (ص) قال : تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء [4] .

« ويل لكل همزة لمزة » .

عن ابن عمر قال قال النبي : لايكون المؤمن لعانا [5] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك [6] .

عن عائشة قالت قال رسول الله (ص) : ان أبغض الرجال الى الله الالد الخصم [7] .

« واقصد في مشيتك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير »

عن ابي سعيد ان أناساً من الانصار سألوا رسول الله فلم يسأله احد منهم الا أعطاه حتى نفد ما عنده فقال لهم حين نفد كل شيء بيديه ما يكن عندي من خير

---

(١) أخرجه ابوداود والترمذي (٢) صحيح البخاري ج١ (٣) أخرجه الخمسة الا النسائي (٤) أخرجه مالك (٥) الجامع الكبير للترمذي ج٢ (٦) اخرجه ابو داود والترمذي (٧) صحيح مسلم ج٨ .

لا ادخره عنكم وانه من يستعفف يعفه الله ومن يتصبر يصبره الله ومن يستغن يغنه الله ولن تعطوا عطاء خيراً واوسع من الصبر [1] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : ليس الشديد بالصرعة انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب [2] .

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله : ما أكرم شاب شيخاً لسنه الا قيض الله له من يكرمه عند كبر سنه [3] .

وورد عن المدح اذا كان فيه افراط ــ عن عبد الرحمن بن ابي بكرة عن ابيه قال مدح رجل رجلاً عند النبي (ص) قال فقال ويحك قطعت عنق صاحبك قطعت عنق صاحبك مراراً اذا كان احدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل احسب فلاناً والله حسيبه ولا أزكى على الله أحداً احسبه ان كان يعلم ذاك كذا وكذا [4] .

عن ابي سعيد الخدري عن النبي (ص) قال : اياكم والجلوس على الطرقات فقالوا ما لنا بد انما هي مجالسنا نتحدث فيها ، قال فاذا أبيتم الا المجالس فأعطوا الطريق حقها ، قالوا ما حق الطريق ، قال غض البصر وكف الاذى ورد السلام وامر بالمعروف ونهى عن المنكر [5] .

عن ابي موسى الاشعري قال قال رسول الله (ص) : اطعموا الجائع وعودوا المريض وفكوا العاني [6] .

اعتنى القرآن عناية شديدة بالعهود والمواثيق وكراهة الاخلال بها ــ « ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » « واوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً تتخذون ايمانكم دخلا بينكم ان تكون امة أربى من أمة » « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » .

***

تعاليمه في الاجتماع والعمران

المرأة ــ يجدر بنا قبل ان نتكلم عن المرأة في الاسلام ان نأتي بموجز عن مركز المرأة في الامم القديمة ليتسنى لنا ادراك مكانتها في الاسلام .

(١) صحيح البخاري ج٤ (٢) صحيح البخاري ج٤ (٣) الجامع الكبير للترمذي ج٢
(٤) صحيح مسلم ج٨ (٥) صحيح البخاري ج٢ (٦) صحيح البخاري ج٤ .

كانت المرأة العربية في جاهليتها اذا توفي زوجها دخلت الحفش ولبست شر ثيابها ولم تمس الطيب حتى تنقضي السنة [1] وكان العرب في جاهليتهم ينكحون ما شاؤا من النساء ، وكانت المرأة عندهم لا ترث ، وكانوا يرثون النساء كرهاً ، فكان اذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته ، وكانوا ينكحون نساء آبائهم ويجمعون بين الاختين [2] وكانوا يكرهون فتياتهم على البغاء [3] .

هذا اذا أردنا ان ننظر الى انحطاط المرأة الجاهلية ، واما اذا تطلعنا الى عظمتها فلدينا قصة بلقيس ، وهي قصة تدل على أقصى ما تبلغه النساء من حكمة ورجاحة عقل .

ورثت بلقيس عرش زوجها وابيها ، وقد اتخذت لنفسها عرشاً بلغ من ابداع صنعه وجمال نسقه ان وصفه الله بالعظمة فقال : « وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم » .

أقامت بلقيس في ملكها خمسة عشر عاماً بلغت فيها من جلال الصولة وكمال القوة حداً عظيماً .

اما وفور عقلها ومضاء عزمها وسناء منزلتها واستمكانها من نفوس رعيتها ، فقد بلغ من امره ان سليمان حين ارسل اليها يؤذنها بدينه ويدعوها الى سنته ، كان كل ما كتب اليها « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعلوا علي واتوني مسلمين » . فاما هي فلم تأخذها العزة بالاثم ولم ينل من نفسها ان الكتاب لم يحو تكرمة وتبجيلا ، ولم يذهب برشدها ان صاحب الكتاب ليس له في ذات نفسها من بسطة الملك وقوة السلطان ما لها ، بل جمعت كل من يلوذون بطاعتها من الملوك ، وبالرغم من كل ما أسلفناه من امر الكتاب أحلته محلا كريماً ، فقالت : « يا أيها الملأ اني ألقي الي كتاب كريم » ثم انثنت اليهم بعد ذلك فقالت : « يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » اما هم فوقفوا دون رأيها ونزلوا على امرها ، فقالوا : « نحن اولو قوة واولو بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » .

---

(١) راجع سورة البقرة .
(٢) راجع سورة النساء .
(٣) راجع سورة النور .

هنالك بسطت لهم أمر الحرب وانها مدعاة دمار الديار ومتلفة البلاد والعباد فقالت : « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » ثم كشفت لهم عن وجه الرأي فقالت : « واني مرسلة اليهم بهدية » كفيلة بان تصرف ذوي المطامع وتجتذب بغاة الدنيا فان صرفته عن قصده فهو ملك ولنا من بأسنا وقوتنا ما يثل عرشه ويفل غربه ، وان ردها وصرف عنها فعسى ان يكون نبياً يبصرنا الحجة ويهدينا سواء السبيل :

فلما جاءت رسلها سليمان بهديتها التي جمعت من كل شيء أسناه وأتمه قال : « أتمدوني بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون » .

حتى اذا استبانت بلقيس وضح الهدى من سليمان تبدلت بدين آبائها دين الله، وكان سبيلاً الى طمس آية المجوسية في أرجاء اليمن .

وقصارى القول ان القرآن أورد آيات فابان بها مركز المرأة التشريعي والاجتماعي في العصر الجاهلي بياناً لا يحوي من الغلو شيئاً ، فنجده تارةً ينعي على الجاهلين أعمالهم الفظيعة بشأن المرأة ، وأخرى نراه يورد بعض الآيات التي تخول الباحث ان يستشهد بها على الرفعة والسؤدد والمجد والحرية التي كانت تتحلى بها المرأة العربية في الجاهلية ، كأنه أراد ان يصفها من جهات مختلفة غثها وسمينها ولو بطريق الاشارة .

فالاشارات التي أشار اليها القرآن تساعد من أراد القول ان مقامات العرب الاجتماعية تختلف باختلاف الاصقاع والبيئات ما دام يختلف فيها الوسط والنوع اللذان ينشأ عنهما غالباً اختلاف في القبائل والعشائر والسلطات والعادات والاخلاق، واذا اعتبرنا هذه الاسس الاجتماعية يمكننا ان نقول ان مقام المرأة الجاهلية في بلاد العرب يختلف باختلاف العوامل الاجتماعية ، ولا تستغرب كونها منحطة او مستعبدة أو راقية تملك حريتها في عصر واحد .

وكان اليونانيون يعدون المرأة من المخلوقات الدنيا ينتفع بها في خدمة المنزل والولادة ، وكانت الزوجة عند اهل اثينا سلعة من السلع تباع وتشرى تنتقل من حوزة رجل الى رجل آخر ، وللاثيني ان يتزوج بمن شاء من النساء .

وكانت شرائع الهنود تعامل المرأة معاملة سيئة ، والدليل على ذلك نصوص تلك الشرائع التي اعتبرت المرأة اشد خطراً من الموت والعواصف والمناطق الجهنمية والسم والافاعي السامة والنار المتأججة .

وتقول شريعة ماندو : ان المرأة تتعلق في طفوليتها بابيها وفي شبابها ببعلها فاذا توفي زوجها فباولادها فان لم يكن لها اولاد فباقرب اقارب زوجها لانها ليست اهلاً ان تحكم نفسها (١) .

ولم يكن العبرانيون ارحم كثيراً بالمرأة من الامم الاخرى ، بل عدوها اشد خطراً من قضاء النحب .

وامثال بقية الشعوب المختلفة تدل دلالةً واضحة ان حالة المرأة كانت في دركات الظلم والعدوان ، واليك بعضاً من هذه الامثال . يقول الصيني : انه يجب ان تسمع لامرأتك ولا تصدقها مطلقاً . ويقول الروسي : ان كل عشر نساء لا يملكن الا نفساً واحدة الخ (٢) .

وقال هيرودوتس : ان علاقات الرجل مع المرأة كانت متروكة الى الصدفة ولا تفترق عما يشاهد بين الانعام ، وكان الشأن اذا ولدت المرأة ولداً ان يجتمع القوم متى وصل الولد الى سن البلوغ وينسبوه الى اشبه الناس به (٣) .

وقال قاسم امين : وترتب على دخول المرأة في العائلة حرمانها من استقلالها لذلك ترى رئيس العائلة عند اليونان والرومان والجرمانيين والهنود والصينيين والعرب مالكاً لزوجته ، وكان يملكها كما يملك الرقيق بطريق الشراء بمعنى ان عقد الزواج كان يحصل على صورة بيع وشراء وهذا امر يعلمه كل مطلع على القانون الروماني (٤) .

وان تعدد الزوجات عادة تطلبتها بعض أطوار الهيأة الاجتماعية ذلك لان الحروب التي استعرت نارها بين القبائل ادت الى نقص في عدد الرجال وزيادة في

---

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون .
G. Le Bon - La Civilisation des Arabes.
(٢) المرأة الجديدة لقاسم امين .
(٣) المرأة الجديدة لقاسم امين .

عدد النساء يضاف الى ذلك السلطة المطلقة التي يتمتع بها الرؤساء فقد افضت الى هذه العادة في العصور الخالية فصارت علة لا مناص منها .

كانت عادة تعدد الزوجات منتشرة غالباً في جميع الامم الشرقية القديمة ، فان ممارستها بواسطة الملوك والامراء الذين يقدسهم الناس ـ والناس على دين ملوكهم ـ جعلتها امراً مقدساً في نظر الشعوب ، وظلت هذه العادة منتشرة بين الهندوس منذ العصور الخالية ، والظاهر انه لم يوجد شيء يحدد عدد الزوجات عند الميديين والبابليين والاشوريين والفرس ، فان البراهمي الذي من الطبقة العليا له الحق المطلق ان يتزوج بأي عدد يشاؤه من النساء .

وكان تعدد الزوجات شائعاً عند الاسرائيليين قبل عصر موسى الذي ابقى هذه العادة بدون ان يحدد عدد الزوجات اللائي يحق للرجل الاقتران بهن ، واخيراً قرر بنو تالمود في بيت المقدس ان يحدد عدد الزوجات بقدر ما يستطيع الرجل ان يقوم بنفقتهن عن سعة (١) .

وكانت ديانة الفرس الاقدمين تقضي على الرجل الذي يتزوج باكثر من واحدة ان يقدم ضمانة على كفالتهن . بيد ان الفينيقيين الذين حل الاسرائيليون محلهم كانوا يحتقرون تعدد الزوجات ويعدونه منقصة .

وكذلك كانت عادة تعدد الزوجات شائعة عند التراقيين والليديين وغيرهم من الشعوب التي سكنت في جهات مختلفة من اوربا وغرب آسيا ، شيوعاً خرج بها عن الحد المعقول .

وكان مباحاً للآثيني ان يتزوج بأي عدد يشاؤه من النساء ، اما في اسبارطة رغم انه لم يسمح للرجل باكثر من زوجة واحدة الا في احوال خاصة فان المرأة كان مباحاً لها ان تتزوج باكثر من رجل .

نعم ان تعدد الزوجات لم يكن امراً مشروعاً عند الرومان ، ولكن كبراء رومة ارادوا ان يتمتعوا بنعم الجمهورية ومزايا الحرية وترفها فانغمسوا في شهوات الحب والهوى ، وافضى ذلك الى ان صار الزواج اشبه شيء بالفسق العادي ،

---

(١) مركز المرأة في الاسلام لامير علي الهندي .

ثم ان الحكومة اعترفت بالزنا في قوانينها فصار هذا نظاماً مرعي الجانب ، وقد افضت حرية النساء وانفصام عرى الرابطة التي كانت تربطهن بالرجال الى وجود عادة تعدد الزوجات وان لم يعترف بها القانون .

* * *

جاء الاسلام بتحريم وأد البنات « واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون » « واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » .

وجعلت الشريعة رضا البنت عند بلوغها سن الرشد شرطاً لصحة العقد عليها ، وليس بمخلوق كائناً من كان ان يرغمها على الزواج بغير من تشاء .

ومنع الاسلام ارث نكاح النساء الذي كان شائعاً في الجاهلية « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرهاً » .

وامر الاسلام بمعاشرة الزوجات بالمعروف « وعاشروهن بالمعروف » ، وحرم عليهم البغي والعدوان « وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » ، ثم وبخهم على هذا الاخذ « أتأخذونه بهتاناً وأثماً مبيناً » .

عن عبد الله قال قال رسول الله (ص) كلكم راع وكلكم مسؤول فالامام راع وهو مسؤول والرجل راع على اهله وهو مسؤول والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول [1] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : استوصوا بالنساء فان المرأة خلقت من ضلع وان اعوج ما في الضلع اعلاه فان ذهبت تقيمه كسرته وان تركته لم يزل اعوج فاستوصوا بالنساء خيراً [2] .

---

(١) صحيح البخاري ج٣

(٢) اخرجه الشيخان والترمذي

عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره واستوصوا بالنساء خيراً [1] .

وجعل القرآن الرجال قوامين على النساء لاسباب اجتماعية واقتصادية « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من أموالهم » .

وان مركز المرأة في الاسلام بكونها أماً ذو مكانة قصوى .

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن » « ووصينا الانسان بوالديه احساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً » .

عن معاوية بن جاهمة ان جاهمة أتى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله أردت ان أغزو وقد جئت استشيرك فقال هل لك من أم ؟ قال نعم ، قال فالزمها فان الجنة عند رجلها [2] .

عن ابي هريرة قال جاء رجل الى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله من أحق بحسن صحابتي قال أمك قال ثم من قال ثم أمك قال ثم من قال ثم أمك قال ثم من قال ثم ابوك [3] .

عن اسماء بنت ابي بكر قالت : قدمت على أمي وهي مشركة فاستفتيت رسول الله (ص) فقلت قدمت على امي وهي راغبة أفأصل امي ؟ قال نعم صلي أمك [4] .

عن كليب الحنفي انه اتى رسول الله (ص) فقال : يا رسول الله من أبر ؟ قال أمك واباك واختك واخاك ومولاك الذي يلي ذلك حقاً واجباً ورحماً موصولة [5] .

نعم أباح الاسلام تعدد الزوجات ولكنه من جهة اخرى ضيق على من أراد ان يتبع هذه العادة وشرط لها شروطاً شديدة يتعذر القيام بها ، وانما صرح بتلك العادة من قبيل التسامح ومرونة هذا الدين نظراً الى شيوعها وكثرة انتشارها قبل الاسلام ــ « وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء

---

(١) صحيح البخاري ج٣ (٢) اخرجه النسائي (٣) صحيح البخاري ج٤
(٤) اخرجه ابو داود (٥) اخرجه ابو داود .

مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم » « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل » .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : من كانت له امرأتان ولم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط ، وفي أخرى مائل [1] .

شرع القرآن الزواج وسمى عقدته ميثاقاً غليظاً « واخذن منكم ميثاقاً غليظاً » وامتنّ على الناس بان جعل بين الزوجين مودةً ورحمة « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وجعل كلاً من الزوجين لباساً للآخر « هن لباس لكم وانتم لباس لهن » ومعنى هذا انكم تسكنون اليهن ويسكن اليكم .

وقد حث القرآن على الزواج « وانكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم » .

عن عبد الرحمن بن يزيد قال دخلت مع علقمة والاسود على عبد الله فقال عبد الله كنا مع النبي (ص) شباباً لا نجد شيئاً فقال لنا رسول الله (ص) : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه اغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه الصوم فانه له وجاء [2] .

وقد حرم القرآن الارتباط برابطة الزوجية بين المسلم وبعض نساء بينه وبينهن رابطة قرابة أو رضاع أو مصاهرة « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلا . حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وأمهاتكم اللاتي ارضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الا ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيما . والمحصنات من النساء الا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم » .

وحرم القرآن ان يتزوج مسلم بمشركة أو مشرك بمسلمة « ولا تنكحوا

---

(١) اخرجه اصحاب السنن (٢) صحيح البخاري ج٣ .

المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم اولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة والمغفرة باذنه » .

وأحلّ نساء اهل الكتاب « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن اجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان » .

وحرم تزوج محصنة بزان او محصن بزانية « الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » .

وشرع الله نظام الفرقة كما شرع نظام الاجتماع بين الرجل والمرأة ، ولم يترك الطلاق فوضى بل حاطه بما يحفظ عقدة الزوجية من التعرض للانفعال الوقتي « وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله خيراً » ، وامر بالتحكيم عند خوف الشقاق بين الزوجين « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً » .

عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص) : ما احل الله شيئاً ابغض اليه من الطلاق ، وفي رواية أخرى : ابغض الحلال الى الله الطلاق [1] .

واذا لم يكن بد من الطلاق بعد تنفيذ الاوامر السابقة يكون في ابتداء العدة وذلك في طهر لم يمسها فيه الرجل « يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن واحصوا العدة واتقوا الله ربكم » .

وامر ان تبقى الزوجة طول العدة في بيت الزوجية لانها لا تزال زوجة ما لم يحصل منها ما يوجب خروجها « لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك امراً » .

وخير الزوج اذا بلغت الأجل الذي أمرت ان تتربصه ان يراجعها او يفارقها المفارقة الفعلية مع الاشهاد « فاذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم واقيموا الشهادة لله » وجعل الزوج أحق بالمرأة

(١) اخرجه ابو داود .

ما دامت العدة لم تنقض « وبعولتهن أحق بردهن في ذلك ان أرادوا اصلاحاً » .

وامر بالعدة « والمطلقات بانفسهن ثلاثة قروء » .

وللآيسات ومن لم يحضن ثلاثة أشهر « واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ان ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن » .

ولذوات الحمل وضع الحمل « واولات الاحمال أجلهن ان يضعن حملهن » .

واعفى من لم يمسها زوجها من العدة « اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن قبل ان تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها » .

وامر بالرفق بالزوجة وهي في عدتها « اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وان كن اولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وان تعاسرتم فسترضع له أخرى لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا » .

وجعل الطلاق مرتين واذا طلق الثالثة حرمت عليه « الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان » « فان طلقها فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره » .

وأوجب على الزوجة اذا مات زوجها ان تحد عليه « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن اربعة أشهر وعشراً فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير » .

ونهى عن التصريح بخطبة معتدة الوفاة وأجاز التعريض « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو اكننتم في أنفسكم علم الله انكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً الا ان تقولوا قولاً معروفاً ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا ان الله يعلم ما في انفسكم فاحذروه واعلموا ان الله غفور رحيم » .

وطلب من الام المطلقة ان ترضع ولدها « والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن أراد ان يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ولا تكلف نفس الا وسعها لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده وعلى الوارث

مثل ذلك فان ارادا فصالا عن تراض منهما فلاجناح عليهما وان اردتم ان تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم اذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف واتقوا الله واعلموا ان الله بما تعملون بصير » .

وان المرأة بكونها عضواً في الهيأة الاجتماعية لها جميع الحقوق وعليها جميع المسؤولية التي للرجل وعليه « ومن يعمل من الصالحات من ذكر وأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » « فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى بعضكم من بعض » .

* * *

الرق — الرق في اللغة الضعف ومنه رقة القلب وعند الفقهاء عجز حكمي يصيب بعض الناس ، اما عند الفرنجة فهو حرمان الشخص حريته الطبيعية وصيرورته ملكاً لغيره .

ظهر الاسترقاق على مسرح العالم منذ كان حجاب الجهالة مسدولاً على المجتمع الانساني ، وأسبابه لما كان العمل من أصعب الضرورات وأضناها للجسم بحث الانسان عما يخلصه من عنائه وشقائه ، فوجد طلبته بين يديه ، وسخر القوي الضعيف في القيام باعماله ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق .

ثم جاءت الحروب وتولدت الاطماع فانتشر الاسترقاق في جميع اجزاء العالم وعند معظم الامم ، وصار الناس لا يقتلون العدو بل يبقون عليه ليعمل لهم ، هذا وان طبيعة الاقاليم من اقوى العوامل في انماء الجمعيات البشرية كان لها تأثير عظيم في زيادة الاسترقاق واتساع نطاقه حتى انه ما لبث ان بلغ في المشرق مبلغاً عظيماً فان ثمن الرقيق كان زهيداً ، وعمله مفيد في الصناعات والتجارة ، غير انه كان الاسترقاق في الشمال اقل انتشارا منه في الجهات الجنوبية من المعمور لان تغذية الرقيق عندهم كانت تكلفهم نفقات جسيمة ولم تكن لعمله فائدة كبيرة ، وهذا

يدلنا على ان الاسترقاق من الامور الاقتصادية التدبيرية المترتبة على العمل والاشتغال .

كان الرقيق في مصر عبارة عن آلة للعمل ومن مشاهد الزينة ومظاهر الابهة ، فكان الارقاء في قصر الملوك وبيوت الكهان والمقاتلين ، وكان الأسارى أرقاء للدولة يقومون بالاعمال التي تستلزمها حاجات القصر او تتطلبها موجبات زخرفته وتحسين هيأتـه .

وجعلت شريعة مانو [1] الناس طبقتين ممتازتين : الاولى الدويداس : وهم الذين تتألف منهم الطبقات العالية ، البراهمة ومن اليهم ، الثانية السودرا وهم الطبقة الدنيا المستخدمة ، ثم حددت درجتهم بالقياس الى البراهمة وغيرهم وجعلتهم في احط منزلة ووضعت لهم القوانين الصارمة ، فقد اباحت للبرهمي ان يجبر السودرا على الخدمة سواء اشتراه او لم يشتره لانه رقيق ولانه ما خلق الا ليخدم البراهمة ، واذا مس السودرا أحد البراهمة بأذى فلا مندوحة عن قتله ، واذا وجه رجل من هذه الطبقة الدنيا سباً فاحشاً الى احد الدويداس فجزاؤه سل لسانه الخ .

ومن نظر الى تاريخ مملكة آشور يجد الاسترقاق كان عريقاً بها متأصلاً فيها فقد كانت القصور تغص بالنساء والارقاء المخصصين للجمال والزينة .

اما مملكة الفرس التي امتد سلطانها الى حدود آسيا المعروفة فقد استجمعت جميع انواع الاستخدام المعروفة عند كثير من الامم المختلفة .

وقد اجتهد واضعو الشرائع عندهم في تقليل اجحاف الموالي بمواليهم وتخفيف وطأة مظالمهم . قال هيرودوتس : لا يجوز لاي فارسي ان يعاقب عبده على ذنب واحد قد اقترفه بعقاب بالغ في الشدة والصرامة [2] ، ولكن اذا عاد العبد لارتكاب هذا الذنب بعدما أصابه من العقاب فلمولاه حينئذ ان يعدمه الحياة او ان يعاقبه بجميع ما يتصور من أنواع العذاب .

---

(١) هو مشرع هندي .

(٢) الرق في الاسلام لاحمد شفيق .

وكان الاستخدام للمنفعة العامة شائعاً في الصين قبل التاريخ المسيحي بقرون ، يقوم به المحكوم عليهم والاسارى ، ثم نشأ الاسترقاق ، وكانوا يجلبون الارقاء من الخارج بالحروب ، او يأخذونهم من الصين نفسها لان الفقير كان يضطر لبيع اولاده بسبب الفاقة والاحتياج ، الا ان الاسترقاق في الصين كان قليل الشدة ، فان الشرائع والعرف والاخلاق كانت تساعد على تلطيف حاله .

وجملة القول ان الاسترقاق عند العبرانيين كان مقروناً بالتلطف والتعطف اللذين لايرى لهما مثيل في بلاد اليونان والرومان ، فقد ورد في شريعة موسى : ان العبد اذا استحق القصاص فلا يصدر الحكم عليه الا من القاضي دون سواه [1] في ذلك احتياط دقيق ورحمة بأولئك المساكين لئلا يكونوا عرضة لقسوة الموالي ولسهام أهوائهم .

وكان الاسترقاق امراً شائعاً في جميع بلاد اليونان ولم يكن في الفلاسفة الكثيرين الذين تفتخر بهم هذه البلاد من انكر الاسترقاق ، بل ان ارسطو نفسه أيد صحته وأثبت مشروعيته معتمداً على رأيه على اختلاف السلائل البشرية وتنوع اصناف البشر ، وقد عرف الرقيق بأنه آلة ذات روح او متاع قائمة به الحياة [2] .

وكان سبيل الاسترقاق التلصص في البحار وخطف سكان السواحل ، وكثير من اليونان من اشتروا الارقاء وخصصوهم للاجارة ، وكان المولى مطلق التصرف في عبده ، وعقاب العبد الجلد بالسوط وبالطحن على الرحى وكان يكوى الآبق او الوارد من البلاد المتبربرة بالحديد المحمى على جبهته على ان حياة الرقيق وشخصيته كانتا مكفولتين بالقانون فما كان يعدم الا بعد صدور حكم القانون عليه .

وكانت وجوه الاسترقاق برومة متعددة ، فانه فضلاً عن استرقاق الامم المغلوبة بالحرب واستعبادها كان هناك صنف آخر وهم العبيد بالولادة أي الذين يولدون من الارقاء ، وصنف ثالث من الاحرار الذين قضت عليهم بعض نصوص القانون بالوقوع تحت نير العبودية .

---

(١) الرق في الاسلام لاحمد شفيق .

(٢) الرق في الاسلام لاحمد شفيق .

ولم يكن الرقيق في نظر القانون الا كشيء من الاشياء فليس له ملكية ولا عائلة ولا صفة شخصية ، وما زال الارقاء يقاسون انواع العذاب ويعانون اصناف الآلام حتى آل الامر بواضعي الشرائع للنظر اليهم بعين الشفقة والرحمة وتدوين الاحكام القاضية برعايتهم وحسن معاملتهم .

وان قوانين الامم المتبربرة كالغاليين والجرمانيين والفرنج والويزيغوط والانجلوساكسون تشبه قوانين الرومانيين في كونها تعتبر الرقيق كشيء من الاشياء، فكان المولى في شرعهم يتصرف بعبيده كما يتصرف بما عنده من الاشياء ذات القيمة، وكان يجوز له قتله لانه شيء من الاشياء التي يملكها .

ولا تجد في الديانة المسيحية نصاً صريحاً ضد الاسترقاق ولم يأت به الحواريون، بل أوصى بولس الارقاء في رسالته التي بعث بها الى الافسسيين[1] ان يطيعوا مواليهم مع الخوف والرعب كما يطيعون المسيح ، وأوصاهم الحواري بطرس ايضاً بان يكونوا خاضعين لمواليهم وان يخشوهم [2] .

* * *

مما تقدم يتبين ان الاسلام جاء والاسترقاق منتشر في العالم جميعه مع تشعب سبل الاسترقاق ، فلم يكن من الحكمة مفاجأة العالم بابطاله جملة واحدة لانه امر تأصل في العالم بتقرير الشرائع السماوية والارضية السابقة ، وتمسك الناس به احقاباً وقروناً واتخذوه اصلا من اصول مدنياتهم ، ولو فاجأهم الشرع الاسلامي بذلك لاحرج صدورهم والجأهم الى وقوفهم موقف المدافع المعاند .

بيد ان الاسلام جعل سبيل الرق فذاً : وهو المحاربة الشرعية المنظمة لقوم كافرين بعد عرض الاسلام اولا ، ثم الجزية ، فان اجاب الاعداء الى احدهما عصموا انفسهم واموالهم وصار لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وان ابوا ودارت عليهم الدائرة صاروا ارقاء للغالبين بعد اذن من الامام .

على ان ذلك لا يحرمهم نعمة الرجوع الى الحرية اذا افتدوا انفسهم بمال ، كما

---

(١) هم سكان مدينة افسس القديمة Ephèse في آسيا الصغرى .

(٢) الرق في الاسلام لاحمد شفيق .

ان للحاكم ان يطلق سراحهم لوجه الله « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منّاً بعدُ واما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها » .

أما سبل التحرير فكثيرة أهمها تحرير النفس وسيلة لغفران الذنوب « فلااقتحم العقبة واما أدراك ما العقبة فك رقبة » .

عن ابي ذر قال سألت النبي أي العمل افضل ؟ قال : ايمان بالله وجهاد في سبيله ؟ قلت : فأي الرقاب أفضل ؟ قال : اغلاها ثمناً وأنفسها عند اهلها ، قلت : فان لم أفعل ؟ قال : تعين صانعاً أو تصنع لاخرق ، قال : فان لم افعل ؟ قال : تدع الناس من الشر فانها صدقة تصدق بها على نفسك [1] .

عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل ارب منها ارباً من النار [2] .

عن علي بن ابي طالب قال : كان آخر كلام رسول الله الصلاة الصلاة ، اتقوا الله فيما ملكت ايمانكم [3] .

وجعلت الشريعة العتق كفارة للقتل الخطأ « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله » وسر ذلك ان القتل اعدام للحياة الجسمية والتحرير بالكفارة ايجاد للحياة المعنوية ، وقد أوضح الله اثناء كلامه على العقبة التي بين الجنة والنار طريقة اجتيازها « فك رقبة » « لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته ... او تحرير رقبة » .

روى ابو هريرة عن النبي (ص) انه قال : أيما رجل اعتق امرءاً مسلماً استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار [4] .

وجاء في معلمة الاسلام ما يأتي : ان الاسلام يعتبر عتق الارقاء عملا يتقرب به الى الله ويثاب معتقه في الآخرة [5] .

وأباحت الزواج بارقاء « ومن لم يستطع منكم طولا ان ينكح المحصنات

---

(١) صحيح البخاري ج٢ .
(١) صحيح البخاري ج٢ (٠) صحيح مسلم ج٤ (٣) أخرجه ابو داود .
(٤) صحيح البخاري ج٢ .
(٥) معلمة الاسلام مادة عبد Encyclopédie de l'Islam - Art. Abd

المؤمنات فمامملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » «وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .

وأوجبت الشريعة معاملتهم بالرفق واللين « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .

عن المعرور بن سويد قال قال النبي (ص) : ان اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت ايديكم فمن كان اخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم مايغلبهم فاعينوهم [1] .

عن ابي هريرة عن النبي (ص) ... ولا يقل احدكم عبدي أمتي وليقل فتاي وفتاتي وغلامي [2] .

قال غوستاف لوبون : ان لفظة الرق اذا ذكرت امام الاوربي الذي اعتاد تلاوة الروايات الاميركية المؤلفة منذ نحو ثلاثين سنة من الزمان ، ورد على خاطره استعمال اولئك المساكين المثقلين بالسلاسل المكبلين بالاغلال المسوقين بضرب السياط الذين لا يكاد يكون غذاؤهم كافياً لسد رمقهم وليس لهم من المساكن الا حبس مظلم ، واني لا اقصد ان أتعرض هنا للبحث عن صحة هذا الوصف وانطباقه حقيقة على ما كان واقعاً من الانكليز في اميركا منذ سنين قليلة وعما اذا كان من الامور المحتملة ان مالك الارقاء قد قام بفكره ان يسيء معاملتهم ويذيقهم العذاب والهوان بما يكون فيه تلف لبضاعة غالية مثل ما كان الزنجي في ذاك الزمان ، اما الحق اليقين فهو ان الرق عند الاسلاميين يخالف ما كان عليه عند النصارى تمام المخالفة [3] .

والخلاصة ان الاسترقاق كان حالا من احوال الهيأة الاجتماعية في ادوار الانسانية الاولى أي بمعنى انه كان حادثاً اجتماعياً له عوامل طبيعية تقتضيه على الدوام ما دامت تلك العوامل ، ولذا جاء الاسلام باباحة الاسترقاق بعد ان حصر

---

(١) صحيح البخاري ج٢ .
(٢) صحيح البخاري ج٢ .
(٣) الرق في الاسلام لاحمد شفيق .

أحكامه في دوائر معينة لا تتعدى حقوقه الانسانية مجاراة لهذا السر العمراني حتى يزول بما تقتضيه من النظام الاجتماعي فيزول هو بنفسه .

* * *

وقرر الاسلام انمناط السعادة في الدنيا والآخرة الاعمال الشخصية « كل نفس بما كسبت رهينة » « ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الاوفى » وقال الله عن الذين لا يعملون صالحاً : « فما لهم من شافعين » « فماتنفعهم شفاعة الشافعين » « ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح » وهـذا المبدأ يجعل الانسان يدرك مبلغ العهدة الملقاة على عاتقه وحقيقة مركزه في مجتمعه وعالمه ، فيعتمد على ذاته ويثق بقوى نفسه معتقداً انها كافية في ايصاله لارقى مايتوق اليه من درجات السعادة المرجوة .

وطالب بالعمل كل قادر عليه وقرر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسب « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : المؤمن القوي خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وان اصابك شيء فلا تقل لو اني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء الله فعل فان لو تفتح عمل الشيطان (١) .

عن ابي عباس قال قال رسول الله (ص) : نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ (٢) .

عن ابي بكرة قال : سئل رسول الله (ص) أي الناس خير ؟ قال : من طال عمره وحسن عمله ، قيل فأي الناس شر ؟ قال : من طال عمره وساء عمله (٣) .

عن جرير بن عبدالله قال قال رسول الله (ص) : من سن في الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب عليه مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من اجورهم شيء ومن سن في

---

(١) صحيح مسلم ج ٦ (٢) اخرجه البخاري والترمذي (٣) اخرجه الترمذي .

الاسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها ولا ينقص من أوزارهم شيء [1] .

عن عائشة أنها قالت كان أحب العمل الى رسول الله (ص) الذي يدوم عليه صاحبه [2]

عن انس بن مالك ان رسول الله (ص) كان يقول : اني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال [3] .

وقرر ان العقل مناط التكليف ومحك التمييز بين الحق والباطل وانه قسطاس الحكم فأكثر القرآن من ذكر العقل « أفلا تعقلون » « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » .

ونعى على الآخذين بالظنون والاوهام « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » « وما يتبع اكثرهم الا ظناً ان الظن لا يغني من الحق شيئاً ان الله عليم بما يفعلون » « ان تطع اكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون » « ان هي الا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله من سلطان ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى » « هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون » « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين » .

وبين خطر الاعتقاد بدون عقل ولا علم وكشف عن عظم العهدة في ذلك « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » .

وقرر طلب العلم واعظم شأنه « وقل ربي زدني علماً » « وما اوتيتم من العلم الا قليلا » « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيراً كثيراً وما يذكر الا اولو الالباب » « هل يستوي الاعمى والبصير » . « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون » « يرفع الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » .

عن ابي الدرداء قال سمعت رسول الله (ص) يقول : من سلك طريقاً يطلب به علماً سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم وان

(١) صحيح مسلم ج٨ (٢) صحيح البخاري ج٤ (٣) صحيح البخاري ج٤ .

العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الارض والحيتان في جوف الماء ، وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الانبياء ، وان الانبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ولكن ورثوا العلم فمن اخذه أخذ بحظ وافر (١) .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها (٢) .

عن كعب بن مالك قال سمعت النبي (ص) يقول من طلب العلم ليجاري به العلماء وليماري به السفهاء ويصرف به وجوه الناس اليه ادخله الله النار (٣) .

عن ابي امامة: ذكر لرسول الله (ص) رجلان عابد وعالم فقال : فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم (٤) .

عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت الرسول (ص) يقول : ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى اذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا (٥) .

وحث على التعليم وارشاد العامة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون » .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار (٦)

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . « لا خير في كثير من نجواهم الا من أمر بصدقة او معروف أو اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجراً عظيماً » . « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ان ذلك من عزم الامور » .

---

(١) أخرجه ابو داود (٢) اخرجه الترمذي (٣) اخرجه الترمذي (٤) اخرجه الترمذي (٥) صحيح البخاري ج١ (٦) اخرجه ابو داود والترمذي .

عن حذيفة قال قال رسول الله : والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله ان يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجب لكم [1] .

عن جرير بن عبد الله قال : بايعت رسول الله (ص) على اقام الصلاة وايتاء الزكاة والنصح لكل مسلم [2] .

وصرح في وصف اهل الحق بانهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه .

وابطل الاحقاد التي تنشأ بسبب اختلاف الناس في الاديان فقرر اولا ان الخلاف بين الامم امر لا بد منه لنظام الكون ، وان تخالف الشعوب في المعتقدات من مقتضيات الطبائع البشرية « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك » .

وأمر بدعوتهم الى الدين باحسان وتلطف « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو اعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين » .

وأمر ان تكون الدعوة بدون اكراه « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » . « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

وقرر ان لكل شيء في عالم الطبيعة قدراً معيناً وناموساً ضابطا له ، وان الامور الكونية لا تسير بالاهواء والاتفاق ، بل على سنن مدبرة « انا كل شيء خلقناه بقدر » « وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو اردنا ان نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون » . « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . « فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

ولفت الانسان لنظام الطبيعة وتوجيه نظره لاسرارها الخفية « قل انظروا ماذا

---

(١) اخرجه التمذي (٢) صحيح البخاري ج١ .

في السموات والارض » « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت » « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهـار لآيات لاولي الالبـاب » .

ومنع البهرجة الظاهرة وحض على الاخلاص القلبي والعمل الصالح « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبـل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهـدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » .

ولفت الناس لاستخدام قواهم المودعة فيهم اذا أرادوا تغيير احوالهم وتحسين شؤونهم « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وقرر ان مناط بقاء الامم هو الصلاحية للبقاء بالعلم والعمل لا بتمني الاماني الباطلة « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون » . « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون » .

وحض على التآلف والتحابب « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » .

عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله(ص) : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[1].

عن ابي موسى قال قال رسول الله(ص) : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً[2]

عن انس بن مالك عن النبي(ص) : لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه[3]

عن ابي هريرة قال قال رسول الله(ص) : من نفس عن مسلم كربه من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب الآخرة والله في عون العبد ماكان العبد في عون اخيه[4].

عن ابي هريرة عن رسول الله(ص) قال : لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا او لا ادلكم على شيء اذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم [5] .

---

(١) صحيح مسلم ج٨ (٢) صحيح مسلم ج٨ (٣) صحيح مسلم ج١ (٤) الجامع الكبير للترمذي ج١ (٥) صحيح مسلم ج١ .

عن عائشة قالت سمعت النبي(ص) يقول : الارواح جنود مجندةفماتعارفمنها ائتلف وما تناكر منها اختلف [1] .

عن عمر قال سمعت رسول الله(ص) يقول : ان من ابر البر ان يصل الرجل أهل ود ابيه بعد ان يولى [2] .

وان السعادة الروحية لا تنافي السعادة المادية في الدنيا ، وان المدنية اذا قصد بها خير البشرية وتسهيل المنافع الحيوية واظهار البدائع الوجودية فهي مما نـدب الشرع اليه « وقل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا للذين احسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين » . « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » « ولا تنس نصيبك من الدنيا » .

وحذر المسلم من ان ينخدع « يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » .

عن ابيهريرة عن النبي(ص) قال : لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين [3] .

وأمر بالرأفة بالحيوان ــ عن ابن عمر قال قال رسولالله(ص) : دخلتامرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الارض [4] .

وذكر ان لكل أمة اجلا ــ « ولكل أمة اجل فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وانه لكل انسان مقاماً معلوماً ــ « وما منا الا له مقام معلوم » .

وان المقصود من الدين منفعة البشر لا تعذيبهم وفائدتهم لاتسخيرهم ــ « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » « ما يريد الله ليجعل عليكم في الدين من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم » « يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفاً » « لايكلف الله نفساً الا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » .

روى ابو هريرة عن رسول الله(ص) انه قال : ان الدين يسر ولن يشادالدينأحد الا غلبه فسددوا وقاربوا وابشروا واستعينوا بالغدوةوالروحةوشيءمن الدلجة[5] .

---

(١) صحيح البخاري ج٢ (٢) اخرجه مسلم وابو داود والترمـذي (٣) صحيح البخاري ج٤ (٤) اخرجه الشيخان (٥) اخرجه البخاري .

عن انس بن مالك قال قال النبي(ص) : يسروا ولا تعسروا وسكنواولا تنفروا[1]

عن ابي هريرة عن النبي قال : دعوني ما تركتكم انما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على انبيائهم فاذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه واذا امرتكم بأمر فاتوا منه ما استطعتم [2] .

عن عبدالله قال قال رسول الله(ص) : هلك المتنطعون قالها ثلاثاً « أي المتعمقون الغالون المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم [3] » .

وسد ابواب الشر فحرم الخمر والميسر والزنا ــ « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما أثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما » « انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون » « يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فأجتنبوه لعلكم تفلحون » « ولا تقربوا الزنا انه كانفاحشة وساء سبيلا » .

* * *

تعاليمه في السياسة والقضاء :

هدم الاسلام الوحدة القبيلية والعصبية الجنسية وكره التفاضل بشرف القبيلة أو شرف الجنس وعلم ان المسلمين كلهم كتلة واحدة لا تفاضل بين أفرادها الا بطاعة الله وتنفيذ امره « انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم » « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » .

عن واثلة بن الاسقع قال : قلت يا رسول الله ما العصبية قال : ان تعين قومك على الظلم [4] .

وقرر ان مبدأ الشورى في الحكومة « وشاورهم في الامر » « وامرهم شورى

---

(١) صحيح البخاري ج٤ (٢) صحيح البخاري ج٤ (٣) صحيح مسلم ج٨ (٤) اخرجه ابو داود .

بينهم » واذا لم ينجح المسلمون الاولون في اقامة المجالس النيابية فعذرهم في ذلك قصورهم العلمي .

وحتم الطاعة لله والطاعة للرسول والطاعة لاولي الامر في الامة ما أطاع ولي الامر أوامر الله « اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم » .

عن عبد الله بن عمر عن النبي (ص) قال : السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (١) .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص): اذا كانت أمراؤكم خياركم واغنياؤكم سمحائكم واموركم شورى بينكم فظهر الارض خير لكم من بطنها . واذا كانت امراؤكم شراركم واغنياؤكم بخلاءكم واموركم الى نسائكم فبطن الامر خير لكم من ظهرها (٢) .

عن عائشة قالت قال رسول الله (ص) : اذا أراد الله بالامير خيراً جعل له وزير صدق ان نسي ذكره وان ذكر اعانه واذا اراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ان نسي لم يذكره وان ذكر لم يعنه (٣) .

عن معقل بن يسار قال سمعت رسول الله (ص) يقول : ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة (٤) .

أذن الله للمؤمنين بالقتال لامرين : الدفاع عن النفس عند التعدي ، والدفاع عن الدعوة اذا وقف احد في سبيلها بتعذيب من آمن حتى يرجع عما اختاره لنفسه من العقيدة او بصد من أراد الدخول في الاسلام عنه او بمنع الداعي من تبليغ دعوته « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز . الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور » « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك

---

(١) صحيح البخاري ج٤ (٢) اخرجه الترمذي ، وقال هذا حديث غريب
(٣) اخرجه ابو داود والنسائي (٤) اخرجه البخاري ومسلم .

ما عليهم من سبيل انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم » .

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ــ ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين ــ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ــ واخرجوهم من حيث اخرجوكم ــ والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ــ فان قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فان انتهوا فان الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ــ فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص ــ فمن اعتدى عليكم فأعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ــ واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين » « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فا نانتهوا فان الله بما يعملون بصير . فان تولوا فان الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » .

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالمي أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

وقال عن قوم من المشركين لم يحبوا ان يقاتلوا مع قومهم ولا ان يقاتلوا المسلمين فاعتزلوا الفتنة جانبا : « فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » على شرط ان يكون ميلهم الى الاسلام حقيقياً لا ذبذبة فيه فان كانوا كذلك فقد شرح حالهم بقوله : « ستجدون آخرين يريدون ان يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا الى الفتنة اركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا ايديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبينا » .

وأمر ان تقاتل الفئة الباغية من المؤمنين حتى تفيء الى امر الله ، وامرهم ان يعدوا للقتال ما استطاعوا من قوة ، وان لايتمنوا لقاء العدو ، وذكر ان الحرب خدعة ونهى عن قتل النساء والصبيان : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان

بغت احداهما على الاخرى فقـاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى امر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا فان الله يحب المقسطين » .

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قـوة ومن رباط الخيل ترهبون به عـدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ اليكم وانتم لا تظلمون » .

عن ابي هريرة عن النبي (ص) قال : لاتمنوا لقاء العدو فاذا لقيتموهم فاصبروا[1] .

عن ابي هريرة قال : سمى النبي (ص) الحرب خدعة [2] .

عن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله (ص) فنهى الرسول عن قتل النساء والصبيان[3] .

وقال في شأن السلم : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم . وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين والف بين قلوبهم » .

« وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . الا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدؤكم اول مرة أتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين » .

وكان يهود المدينة قد مالؤا قريشاً والمنافقين على المسلمين واخافوا المسلمين في غزوة الاحزاب حتى زلزلوا زلزالا شديداً بعد ان كانت بينهم وبين النبي عهـود مكتومة فنقضوها واخلوا بمقتضى تلك العهـود فأمر المسلمون بقتالهم : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

وكان امر القتال مقصورا على قريش ومن يمالؤهم من يهود المدينة فلما اتحدت معهم قبائل الجزيرة من العرب قال الله : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » .

---

(١) صحيح البخاري ج٢ (٢) صحيح البخاري ج٢ (٣) صحيح البخاري ج٢ .

ومما يؤد الروح السلمية للقرآن ويوضحها ما قاله تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

وأمر بالمحافظة على المعاهدة المعقودة بين المؤمنين ومحاربيهم : « الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم احداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين » . « الا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا فاستقيموا لهم ان الله يحب المتقين » . « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين » .

عن عبد الله بن عمرو عن النبي(ص) قال : من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة وان ريحها يوجد من مسيرة اربعين عاماً [1] .

وبين قصاص الجاني في الدنيا : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى » « ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل انه كان منصورا » .

وذكر نظام الديات « فمن عفي له من اخيه شيء فاتباع بالمعروف واداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » . « ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى اهله الا ان يصدقوا ـ فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ـ وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة الى اهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبةً من الله وكان الله عليماً حكيما » .

واخبر عن نظام التوراة في قصاص الاطراف : « وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له » .

وجعل حد الزاني مئة جلدة : « الزانية والزاني فأجلدوا كل واحد منهما مئة

---

(١) صحيح البخاري ج٤

جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . وجعل الامة الزانية على النصف من ذلك « فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .

وجعل على من رمى محصنة ثمانين جلدة : «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادةً ابداً وأولئك هم الفاسقون . الا الذين تابوا من بعد ذلك واصلحوا فان الله غفور رحيم » .

وجعل للزوج اذا رمى زوجته نظاماً خاصاً : « والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين » . ولما كانت شهادته بالله قائمة مقام الشهداء الاربعة جعل لها طريقاً لتبرئة نفسها : « ويدرأ عنها العذاب ان تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين » .

وامر بقطع يد السارق : « والسارق والسارقة فاقطعوا ايديهما جزاءً بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم . فمن تاب من بعد ظلمه واصلح فان الله يتوب عليه ان الله غفور رحيم » .

وذكر عن الذين يسعون في الارض فسادا « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا ان يقتلوا أو يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف او ينفعوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا من قبل ان تقدروا عليهم فاعلموا ان الله غفور رحيم » .

وامر بالاحتياط في توقيع هذه العقوبات والعفو اذا كان لها مخرج حتى اذا ثبت الجرم على فاعله يحد بدون تمييز بين الشريف والوضيع « قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم» « وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا واصلح فأجره على الله ان الله لا يحب الظالمين » .

عن انس قال : مارأيت رسول الله (ص) رفع اليه شيء فيه قصاص الا امر فيه بالعفو[1] .

---

(١) اخرجه ابو داود والنسائي .

عن عائشة قالت قال رسول الله(ص) : ادرؤا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج فخلوا سبيله فان الامام ان يخطيء في العفو خير من ان يخطيء في العقوبة [1] .

عن عائشة ان قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ؟ فقالوا : ومن يجتريء عليه الا اسامة بن زيد حب رسول الله فكلمه أسامة فقال : أتشفع في حد من حدود الله تعالى ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : انما اهلك الذين من قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحد وايم الله لو ان فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها « اخرجه الخمسة ، وفي رواية ابي داود والنسائي عن ابن عمر : ان امرأة مخزومية كانت تستعير المتاع ، زاد النسائي على ألسنة جارتها وتجحده فأمر النبي(ص) بقطع يدها .

وورد عن المظالم والغصب والعدل وظلم القضاة وعدلهم واحتجابهم دون حاجة الرعية واجتهاد الحاكم ومحاسبة العمال وشهادة الزور ما يأتي : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه القلوب والابصار » . « الا لعنة الله على الظالمين » . « قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق » .

عن ابن عباس ان رسول الله(ص) بعث معاذاً الى اليمن فقال : اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب [2] .

عن عبد الله بن عمر عن النبي (ص) قال : الظلم ظلمات يوم القيامة [3] .

عن عائشة قالت قال رسول الله(ص) : من ظلم قيد شبر من الارض طوقه من سبع ارضين [4] .

عن انس قال قال رسول الله (ص) : انصر اخاك ظالماً أو مظلوما قالوا يارسول الله هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالما ؟ قال : تأخذ فوق يديه [5] .

---

(١) اخرجه الترمذي (٢) الجامع الكبير للترمذي ج٢ (٣) صحيح البخاري ج٢
(٤) اخرجه الشيخان (٥) صحيح البخاري ج٢ .

عن ابي هريرة قال : اتى النبي(ص) رجل يتقاضاه فأغلظ له فهم به اصحابه، فقال: دعوه فان لصاحب الحق مقالاً [1] .

« ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل ان الله نعما يعظكم به ان الله كان سميعاً بصيرا » . « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » . « يا ايها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين ان يكن غنياً او فقيرا فالله اولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلوا او تعرضوا فان الله كان بما تعلمون خبيرا » .

عن ابي هريرة ان رسول الله(ص) قال : من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره دخل الجنة وان غلب جوره عدله فله النار [2] .

عن ابي سعيد قال قال رسول الله(ص) : احب الناس الى الله تعالى يوم القيامة وادناهم منه مجلساً امام عادل وابغض الناس الى الله يوم القيامة وابعدهم منه مجلساً امام جائر [3] .

عن ابي هريرة قال .... فان من خيار الناس احسنهم قضاء [4] .

عن بريدة قال قال رسول الله(ص) : القضاة ثلاثة : واحد في الجنة واثنان في النار فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ورجل عرف الحق وجار في الحكم فهو في النار ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار [5] .

عن ابن ابي مريم الازدي قال : دخلت على معاوية فقال ما انعمنا أي « ما جاء بك » ابا فلان ؟ قلت : حديث سمعته من رسول الله(ص) سمعته يقول: من ولاه الله شيئاً من امور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلّتهم وفقرهم احتجب الله تعالى دون حاجته وخلّته وفقره يوم القيامة ، قال : فجعل معاوية رجلا على حوائج الناس [6] .

عن عمرو بن العاص قال قال رسول الله(ص) : اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران وان اجتهد فأخطأ فله اجر [7] .

---

(١) صحيح البخاري ج٢)٢) اخرجه ابو داود (٣) اخرجه الترمذي (٤) صحيح البخاري ج٢ (٥) اخرجه ابو داود (٦) اخرجه ابو داود والترمذي (٧) اخرجه الشيخان وابو داود .

عن ابي حميد الساعدي ان النبي(ص) استعمل ابن اللتبية على صدقات بني سليم فلما جاء الى رسول الله وحاسبه قال هذا الذي لكم وهذه هدية اهديت لي فقال الرسول : فهلا جلست في بيت ابيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك ان كنت صادقاً ثم قام الرسول(ص) فخطب الناس وحمد الله واثنى عليه، ثم قال : اما بعد فاني استعمل رجالا منكم على امور مما ولاني الله فيأتي احدكم فيقول هذا لكم وهذه هدية اهديت لي فهلا جلس في بيت ابيه وبيت امه حتى تأتيه هديته ان كان صادقاً فوالله لا يأخذ احدكم منها شيئاً [1] .

عن بريدة قال قال رسول الله(ص) : من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما اخذ بعد ذلك فهو غلول [2] .

« ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعملون عليم » .

عن ابي بكرة قال قال رسول الله(ص) : ألا أنبئكم باكبر الكبائر قلنا بلى يا رسول الله قال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : الا وقول الزور الا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت [3] .

عن انس قال سئل النبي(ص) عن الكبائر؟ عال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور [4] .

عن ابي هريرة عن النبي(ص) قال : سبعة يظلمهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل الا ظله امام عادل الخ ... [5] .

* * *

تعاليمه في الاقتصاد :

ان من يتصفح القرآن بامعان ويبحث عما ورد فيه من الآيات المتعلقة بالربا والمرابين لا يستطيع ان ينكر ان عدد المرابين في مكة كان كبيرا جدا في عصر النبي وان ضررهم على الهيأة الاجتماعية لم يكن باقل من ذلك ، فالويل ثم الويل لمن كان يسقط في شباكهم ويا تعس من تضطره الحال الى الالتجاء اليهم ، لان هذه الطبقة

(١) صحيح البخاري ج٤ (٢) اخرجه ابو داود (٣) صحيح البخاري ج٤ (٤) صحيح البخاري ج٢ (٥) صحيح البخاري ج٤ .

من الناس لم يكن يهمها من الدنيا الا جمع المال فلم تكن تفقه للرحمة معنى ولا كانت ترى فرقا بين التجارة والربا الفاحش .

كانت نتيجة اعمال هذه الفئة الظالمة خراب المدينين واستعبادهم ثم استثمار اتعابهم بشتى الطرق التي كانت توحيها اليهم ضمائرهم الفاسدة وسنن ذلك العصر وذلك الوسط .

كل ذلك ادى الى وجود طبقتين غير متناسبتي العدد والعُدد : طبقة المثرين وطبقة الصعاليك والفقراء ، فكانت طبقة الفقراء لا تملك شيئا حتى انفسها لان حق التشريع كان محصورا في أيدي الطبقة العليا فكان اصحابها يسنون من الشرائع ما يوافق مصلحتهم ، ولما لم يكن لاصحاب هذه الطبقة زاجر من انفسهم ولا رادع من ضمائرهم يردعهم عن استثمار اتعاب الصعاليك وامتهانهم ويوقفهم عند حدمعلوم من القسوة ، كانت طبقة الفقراء بينهم عرضة دائمة للاخطار ، وسلسلة بأس وعذاب .

لا جرم ان النبي كان أعرف الناس من ابناء بلدته وقومه بامراض البيئةالاجتماعية واقدرهم على مقاومتها ، فقد عركه الزمن وعرك الزمن سنين عديدة قضاها فيالمراقبة والتفكير ، ثم دخل مدرسة الحياة واقام فيها زمناً طويلا ، فاطلع على ما كان يقع أمامه من الكذب والغش في التجارة والافلاس وأكل اموال اليتامى والتلاعب في الوزن والكيل والبذخ والترف في الطبقة العليا على حساب الفقراء والعمال الى غير ذلك من عيوب التجارة والمضاربة بالمال ، فعقد نيته على محاربة هذه الامراض الاجتماعية مهما كلفه ذلك من التعب .

وكان لمنشأ النبي ووسطه الاجتماعي تأثير قوي في ظهوره ودعوته لانه كان كثيرا ما يتذكر دور الفقر واليتم ، هذا الدور الذي يستمد منه قوى جديدة يستعين بها على مكافحة خصومه والتغلب على تلك العراقيل التي كانت تعترضه في طريقه الاصلاحية [1] .

حمل القرآن عندئذ على الربا والمرابين حملة شعواء ــ « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بانهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف

(١) تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام .

وامره الى الله ومن عاد فأولئك اصحاب النار هم فيها خالدون • يمحق الله الرباويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم • ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون • يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم لاتظلمون ولا تظلمون • وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة وان تصدقوا خير لكم ان كنتم تعلمون « يا ايها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » •

ولم يبين القرآن ما البيع وما الربا اكتفاء بما كان معروفاً عند السامعين ، فقد كانوا يتبايعون وكانوايتداينون الى اجل فاذاحل الاجل قال الدائن للمدين أد او ارب ان لم يؤد ضاعف عليه الدين •

* * *

واستعاض الاسلام عن ذلك بان فرض للفقراء في اموال الاغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الاولين سداً لحاجة المعدم وتفريجا لكربة الغارم وتحريرا لرقاب المستعبدين وتيسيرا لابناء السبيل ، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستل بذلك ضغائن اهل الفاقة ومحص صدورهم من الاحقاد وعلى من فضلهم الله عليهم في الرزق واشعر قلوب اولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة في نفوس الناس اجمعين •

رغب في اعطاء الصدقات وضاعف اجر المنفقين وحمل على الشح والبخل « مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة • والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » • « والذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منّاً ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » • « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » • « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما

أخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد » .

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . « وما خلق الذكر والانثى ان سعيكم لشتى . فأما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من النار . ولجاهل سخي أحب الى الله تعالى من عابد بخيل [1] .

عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله (ص) : خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق [2] .

عن جابر بن عبد الله ان رسول الله (ص) قال : اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم ، حملهم على ان سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم [3] .

عن ابن عمر قال خطب رسول الله (ص) فقال : اياكم والشح فانما هلك من كان قبلكم بالشح ، امرهم بالبخل فبخلوا وامرهم بالفجور ففجروا [4] .

عن ابن عمر قال قال رسول الله (ص) : شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع [5] . « الهلع أشد الجزع والخالع الذي كأنه خلع فؤاده لشدة خوفه وفزعه » .

عن عبد الله بن مسعود قال قال النبي (ص) : لا حسد الا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها [6] .

وبين طرق انفاق المال وعلى من يبدأ المنفق — « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » . « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في

---

(١) اخرجه الترمذي (٢) اخرجه الترمذي (٣) صحيح مسلم ج٨ (٤) اخرجه ابو داود (٥) اخرجه ابو داود (٦) صحيح البخاري ج١ .

الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لايسألون الناس الحافاً وما تنفقوا من خير فان الله به عليم » .

عن ابي هريرة قال : امر رسول الله(ص) يوماً بالصدقة فقال رجل : يا رسول الله عندي دينار ؟ قال تصدق به على نفسك ، قال : عندي آخر ؟ قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندي آخر ؟ قال : تصدق به على زوجتك ، قال : عندي آخر ؟ قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندي آخر ؟ قال : انت ابصر به [1] .

عن ابي هريرة قال قال النبي : أفضل الصدقة ما ترك غني واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول ، تقول المرأة اما ان تطعمني واما ان تطلقني ، ويقول العبد اطعمني واستعملني ، ويقول الابن اطعمني الى من تدعني [2] .

عن ابي هريرة قال قال النبي(ص) : أفضل الصدقة ما ترك غني واليد العلياخيرمن بمن تعول [3] .

عن ابن عمرو بن العاص ان رجلا قال : يا رسول الله ان لي مالا وولدا وان ابي يحتاج مالي فقال : انت ومالك لابيك ان اولادكم من اطيب كسبكم فكلوا من كسب اولادكم [4] .

عن ابي سعيد قال قال رسول الله(ص) : من عال ثلاث بنات اوثلاث اخوات اواختين او بنتين فأدبهن واحسن اليهن وزوجهن فله الجنة [5] .

عن صفوان بن سليم يرفعه الى النبي(ص) قال : الساعي على الارملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله او كالذي يصوم النهار ويقوم الليل [6] .

وحمل على من سأل الناس وله ما يغنيه : عن ابن مسعود قال قال رسول الله(ص) من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش او خدوش او كدوح قيل : وما يغنيه ؟ قال : خمسون درهماً او قيمتها من الذهب [7] .

---

(١) اخرجه ابو داود والنسائي (٢) صحيح البخاري ج٣ (٣) اخرجه ابو داود (٤) اخرجه ابو داود (٥) اخرجه ابو داود والترمذي (٦) الجامع الكبير للترمذي ج٢ (٧) اخرجه اصحاب السنن .

عن عدي بن حاتم قال قال رسول الله (ص) : وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة ، اليد العليا خير من اليد السفلى [١] .

وان الانسان طماع يحب المال حباً جماً ، وينبغي له ان لاينظر الى من فضل عليه في المال وان يكون المنفق في حالة معتدلة أي بدون تقتير ولا تبذير وان الله ينزل برزق عباده بقدر وانه فضل بعضهم على بعض في الرزق .

عن ابن عباس عن النبي(ص) قال لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب [٢] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله(ص) : اذا نظر احدكم الى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر الى من هو أسفل منه فذلك اجدر ان لاتزدروا نعمة الله عليكم [٣] .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر انه كان بعباده خبيرا بصيراً » « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر ما يشاء انه بعباده خبير بصير » . « والله فضل بعضكم على بعض في الرزق » .

* * *

وحض الاسلام الانسان على العمل في الحرف والتجارة والزراعة ، واعلى منزلة التاجر والزارع والصانع ، ومدح التاجر السموح في بيعه وشرائه والدائن اذا تجاوز عن معسر ، وانه يحق للدائن اذا وجد ماله بعينه عند رجل أفلس ان يأخذه ، وان مطل الغني ظلم .

عن المقدام عن رسول الله (ص) قال : ما اكل احد طعاماً قط خيرا من ان يأكل من عمل يده وان نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده [٤] .

عن الزبير قال قال رسول الله(ص) : لان يأخذ احدكم أحبله ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره فيبيعها خير له من ان يسأل الناس اعطوه او منعوه [٥] .

---

(١) اخرجه الستة الا الترمذي (٢) صحيح البخاري ج٤ (٣) اخرجه الشيخان والترمذي (٤) صحيح البخاري ج٢ (٥) اخرجه البخاري .

عن عائشة ان النبي (ص) يقول : اللهم اني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم ــ أي الدين[1] .

عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله (ص) : التاجر الامين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين[2] .

عن جابر بن عبدالله ان رسول الله (ص) قال : رحم الله رجلا سمحاً اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى[3] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : كان فيما قبلكم تاجر يداين الناس فكان اذا رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه[4] .

عن ابي قتادة انه قال سمعت رسول الله (ص) يقول : من سرّه ان ينجيه الله تعالى من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر او يضع عنه [5] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : من اخذ اموال الناس يريد اداءها أدى الله عنه ، ومن اخذها يريد اتلافها أتلفه الله تعالى [6] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : من أدرك ماله عند رجل أفلس فهو أحق به من غيره [7] .

عن ابي هريرة قال قال رسول الله (ص) : مطل الغني ظلم [8] .

عن انس قال قال رسول الله (ص) : ما من مسلم يغرس غرساً او يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو انسان او بهيمة الا كان له به صدقة[9] .

وأمر بايفاء الكيل واعطاء الاجير أجره :

عن ابي هريرة عن النبي (ص) : قال قال الله تعالى : ثلاثة اناخصمهم يوم القيامة ، رجل عطى بي ثم غدر ، ورجل باع حراً فأكل ثمنه ، ورجل استأجر اجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره[10] .

---

(١) صحيح البخاري ج٤ (٢) اخرجه الترمذي (٣) صحيح البخاري ج٢ (٤) اخرجه البخاري ومسلم والترمذي (٥) اخرجه مسلم (٦) اخرجه البخاري (٧) اخرجه البخاري ومسلم (٨) صحيح البخاري ج٢ (٩) صحيح البخاري ج٢ (١٠) صحيح البخاري ج٢ .

« واوفوا الكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم » .

* * *

وتعرض القرآن بطريقة اجمالية وقواعد كلية الى العقود التي يتبادل الناس منافعهم ، فأمر أمراً عاماً بالوفاء بالعقود : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وهي كلمة تشمل جميع الالتزامات التي يلتزمها الانسان للانسان .

ونهى عن أكل أموال الناس بالباطل والادلاء بها الى الحكام « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وانتم تعلمون » .

وجاء بنظام كتابة الدين المؤجل « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ـ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ـ ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله ـ فليكتب ـ وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ـ فان كان الذي عليه الحق سفيهاً او ضعيفاً او لايستطيع ان يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ان تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى ـ ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ـ ولا تسأموا ان تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى اجله ـ ذلكم اقسط عند الله واقوم للشهادة وأدنى الا ترتابوا ـ الا ان تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها ـ واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضارّ كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم . وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ـ فان أَمِنَ بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ـ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فانه آثم قلبه والله بما تعلمون عليم » .

* * *

وذكر الاسلام ميراث الابناء « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين فان كن نساءً فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف » .

وحكمة جعل نصيب البنت نصف ما يرث الابن ، ان الابن من شأنه ان يتزوج

ويدفع مهراً من نصيبه في الميراث ويقوم بنفقة زوجته منه ، أضف الى ذلك ان ما يحتاج اليه البيت من الفراش وسائر الامتعة وغيرها مما تتطلبه المعيشة الزوجية لا يجب شيء منه على المرأة شرعاً ، بل هو واجب على الزوج وحده كما تجب عليه نفقتها ، اما البنت فشأنها ان تأخذ مهراً ونفقة من زوجها وتضم ذلك الى نصيبها في الميراث .

ومن هنا يتبين ان مال الابن مهدد بالنقص من نواح شتى ، ومال البنت محفوظ لها ، فتفضيل الابن على البنت في الميراث أتى من قبل الواجبات المنوعة التي ألقتها الشريعة على عاتقه .

ونفقة الابن الفقير تجب له على ابيه حتى يقدر على الكسب ، اما البنت فلها النفقة على ابيها حتى تتزوج ، ثم يتحول الوجوب الى زوجها ، فاذا طلقت وعادت الى بيت ابيها عادت نفقتها عليه بعد انتهاء ما يجب لها من النفقة على مطلقها .

وليس للاب ان يلزمها طلب الرزق كالابن ، بل اذا اتفق انها احترفت حرفة مشروعة من تلقاء نفسها وكان لها كسب ما يسد حاجتها ارتفعت النفقة عن ابيها ، واذا لم يكفها كسبها وجبت عليه النفقة .

وذكر ميراث الوالدين « ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمه الثلث فان كان له اخوة فلأمه السدس » .

وقال في ميراث الزوجين : « ولكم نصف ما ترك ازواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن . ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم » .

وقال في ميراث اولاد الام : « وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا اكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث » .

وقال في ميراث الاخوة العصبات : « يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ان امرء هلك ليس له ولد وله اخت فلها نصف ما ترك وهو يرثها ان لم يكن لها ولد

فان كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك وان كانوا رجـالا ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين » .

* * *

وأمر ان تتمتع المرأة اذا طلقت بما تتعزى به وجعل ذلك حقاً واجباً لمن طلقت قبل الدخول ولم تكن قد سمي لها مهر : « لا جناح عليكم اذا طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضةً ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متـاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » . ثم ذكر ذلك بلفظ عام : « وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين » .

وقال فيمن طلقت قبل الدخول : « فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلا » . « وان طلقتموهن من قبل ان تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم الا ان يعفون او يعفو الذي بيده عقدة النكاح وان تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير » .

* * *

وأوصى الشارع بالقوام على اليتامى : « ويسألونك عن اليتامىٰ قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم » « وآتوا اليتامى اموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم انه كان حوباً كبيرا » « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم ولا تأكلوها اسرافاً وبداراً ان يكبروا ــ ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف فاذا دفعتم اليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً . ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » « وان تقوموا لليتامى بالقسط » . « ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسؤولا » .

عن سهل بن سعد عن النبي (ص) قال : انا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وقال باصبعيه السبابة والوسطى[1] .

---

(١) صحيح البخاري ج٤ .

وبين الاسلام توزيع غنائم الحرب : « واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

وقال في الفيء وهو مالم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الاغنياء منكم » « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ذنوبنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم » .

* * *

وذكر الاسلام الوصية فقال : « كتب عليكم اذاحضر احدكم الموت ان ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقاً على المتقين فمن بدله بعدما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله غفور رحيم » .

عن سعد بن ابي وقاص قال : جاء النبي (ص) يعودني وانا بمكة وهو يكره ان يموت بالارض التي هاجر منها قال : يرحم الله ابن عفراء ، قلت : يا رسول الله أوصي بمالي كله قال : لا ، قلت : فالشطر ؟ قال : لا ، قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث والثلث كثير انك ان تدع ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس في ايديهم ، وانك مهما أنفقت من نفقة فانها صدقة حتى اللقمة التي ترفعها الى في امرأتك وعسى الله ان يرفعك فينتفع بك ناس ويضر بك آخرون ولم يك له يومئذ الا ابنة [1] .

* * *

أثر تعاليمه في العرب :

أحدثت تعاليم الرسول (ص) انقلاباً عظيماً في العرب ، فرفعت مستواهم العقلي الى

---

(١) صحيح البخاري ج٢ .

درجة عظيمة ، نقلتهم من عبادة الاصنام والاوثان وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر واسفاف في الفكر ، الى عبادة اله وراء المادة « لاتدركه الابصار وهو يدرك الابصار » ، كان الاله عند اكثرهم اله قبيلة وان اتسع سلطانه فاله قبائل ، او اله العرب فأبانه الاسلام اله العالمين ومدبر الكون ، وبيده كل شيء ، وعالماً بكل شيء ، فاستطاع العربي بهذه التعاليم ان يرقى الى فهم اله لا مادة له واسع السلطان واسع العلم .

وافهمهم الاسلام ان دينهم خير الاديان ، وان العالم حولهم في ضلال ، وان نبيهم هادي الناس جميعاً وانهم ورثته في هداية الامم فكان ذلك من البواعث على غزو هذه الامم يدعونهم الى دينهم ويبشرونهم به ، فمن دخل فيه كان كأحدهم — وكان لعقيدة اليوم الآخر ودار الجزاء والجنة والنار أثر عظيم في بيع كثير منهم نفوسهم في سبيل نشر الدعوة « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

كان للاسلام أثر كبير في تغيير قيمة الاشياء والاخلاق في نظر العرب فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة اخرى ، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالامس .

أمة كانت بالامس متفرقة الكلمة بعيدة عن النظام والتطلع الى الملك تنهض فتوحد كلمتها وتجمع أشتاتها وتستجمع قواها فتتألف دولة متينة القواعد في داخليتها سليمة من عوامل التفرق في جثمانها ، ثم تندفع الى خارج بلادها لتطالب الامم بالخضوع الى سلطانها والانقياد لاصولها .

وجعلت هذه التعاليم العرب لا يدعون لتكوين دولة تفتح البلدان وتدوخ الشعوب لتغنى بافقارها وتحيى باهلاكها ، بل جعلتهم هذه التعاليم ان يكونوا أمة تقوم على تأييد الحق وازهاق الباطل ورفع منار الاخلاق واعلاء كلمة الله .

أثرت تعاليم الاسلام في كثير من العرب فجعلتهم يصدقون ولا يكذبون ويحافظون على الوعود والعهود ، ويؤدون الامانات الى اهلها ، واذا حكموا يحكمون بالعدل ، ويصلون الرحم ، ويحسنون معاشرة الجوار ، ويكفون عن كثير من الفواحش

والمحارم كقتل النفس الا بالحق وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات ووأد البنات ولعب الميسر وشرب الخمور والزنا ، وتجنبوا اللغو في الكلام والغيبة والنميمة والتجسس والتباغض والتحاسد والتنابز بالالقاب والكبر والتفاخر بالانساب ، واستعاضوا عن ذلك بالتعاضد والتكاتف والتواضع وعلو الهمة والجد والنشاط واللين واللطف والتراحم والحسنات والمبرات والتقــوى والصبر على الشدائد والقناعة الخ ، وبكلمة اخرى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

عقد غولدزيهر فصلاً في نقط النزاع بين الاسلام والفضائل عند العرب في الجاهلية عنونه بالدين والمروءة وهو يتلخص في ان الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الاعلى للحياة في الجاهلية ، وهذان المثلان لايتشابهان وكثيرا ما يتناقضان فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لا حد لها ، والكرم الى حد الاسراف ،والاخلاص التام للقبيلة والقسوة في الانتقام والاخذ بالثأر ممن اعتدى عليه او على قريب له او على قبيلته بقول او فعل ، هذه اصول الفضائل عند العرب الوثنيين ــ أما في الاسلام فالخضوع لله والانقياد لامره والصبر واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لاوامر الدين والقناعة وعدم التفاخر والتكاثر وتجنب الكبر والعظمة ، هي المثل الاعلى للانسان في الحياة (١) .

وبعد فالى أي حد تأثرت العرب بالاسلام ؟ وهل انمحت تعاليم الجاهلية ونزغات الجاهلية بمجرد دخولهم في الاسلام ؟ الحق ان ليس كذلك وتاريخ الاديان والآراء يأبى ذلك كل الاباء ، فالنزاع بين القديم والجديد والدين الموروث والحديث يستمر طويلا ويحل الجديد محل القديم تدريجا وقل ان يتلاشى بتاتاً ، وهذا ما كان بين الجاهلية والاسلام ، فقد كانت النزغات الجاهلية تظهر من حين الى حين وتحارب نزعات الاسلام ، وظل الشأن امداً بعيداً ، ولنقص طرفاً من مظاهر هذا النزاع .

جاء الاسلام يدعو الى محو التعصب للقبيلة والتعصب للجنس ويدعو الى ان الناس جميعا سواء : « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » ، وبالرغم من هذه التعاليم لم تمت نزعة العصبية وكانت تظهر بقوة اذا بدا ما يهيجها .

---

(١) فجر الاسلام لاحمد امين .

لما تولى الامويون الخلافة عادت العصبية الى حالها كما كانت في الجاهلية وكان بينهم وبين بني هاشم في الاسلام كالذي كان بينهم في الجاهلية ، فخر الامويون بالدهاء والحلم وكثرة الخطباء والشعراء ، ورد عليهم بنو هاشم يكاثرونهم في ذلك، وكان جدالهم ومفاخرتهم صورة صادقة للمنافرة في الجاهلية .

وعاد النزاع في الاسلام بين القحطانية والعدنانية ، فكان في كل قطر عداء وحروب بين النوعين ، واتخذوا في كل صقع أسامي مختلفة ، ففي خراسان كانت الحرب بين الازد وتميم ، والاولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، وفي الشام كانت الحرب بين كلب وقيس ، والاولون يمنيون والآخرون عدنانيون ، ومثل ذلك في الاندلس ومثل ذلك في العراق .

ومن رأي غودفرويه ديمومبين : ان جزيرة العرب ظلت بعد الاسلام كما كانت قبله في فوضى وبؤس اجتماعي مما يدل على ان الاسلام ماشى المقتضيات الجغرافية فظل العرب بعيدين عن ادراك توحيد السلطة ولم يعانوا شيئاً من ذلك الا بصعوبة قضت عليهم العوارض التاريخية[1] .

ليست ناحية العصبية وحدها ما يظهر لنا في عهد الاسلام من نزغات جاهلية فهناك نزغات أخرى لا تقل عنها وضوحاً .

من ذلك حروب الردة ، وذلك ان كثيراً من قبائل العرب عدوا دفع الزكاة للخليفة ضريبة عليهم ومذلة لهم ، ونظروا اليها نظرهم الى قبيلة تتسلط على اخرى وتضرب عليها الاتاوة فانتهزوا موت الرسول(ص) وعبروا عن شعورهم الجاهلي برفض دفعها لابي بكر ، وقد عجزوا عن ان ينظروا الى الزكاة كجزء من المال يؤخذ للصرف في الصالح العام وهو ما يرمي اليه الاسلام .

أضف الى ذلك ان بعض المسلمين وخاصة سكان البادية كانوا ينزعون في معيشتهم الاجتماعية النزغة الجاهلية من مهاجاة وحمية وشراب ونحو ذلك .

---

(١) التعاليم الاسلامية لغود فرويه ديمومبين .

Gaudefroy - Demombynes - Les institutions musulmanes.

وان بعض شبان بني أمية وبعض شباب بني هاشم كانوا يعيشون عيشة هي الى الجاهلية أقرب منها الى الاسلام ، شراب وصيد وغزل .

بجانب هذا ترى قوماً صبغهم الاسلام صبغة جديدة حتى انقطعت الصلة بين الحياتين الجاهلية والاسلامية كالذي ترى في سيرة ابي بكر وعمر وكثير من الصحابة ، ورع وزهد وتواضع والتزام شديد لاوامر الدين ، وحياة لا تستطيع ان ترى فيها مأخذاً جاهلياً ينافي الاسلام ، وتجد في خطبهم وكتبهم وأقوالهم أثر الاسلام بيناً حتى كأنهم خلقوا في الاسلام خلقاً جديداً .

الحق ان النزاع بين النفسية الاسلامية والنزعات الاسلامية والنفسية الجاهلية والنزغات الجاهلية كان شديداً وكان عهده طويلاً ، وان الاسلام لم يصبغ العرب صبغة واحدة على السواء ، بل ان خير من تأثر بهم السابقون الاولون من المهاجرين والانصار ، أولئك الذين وصل الدين الى أعماق نفوسهم ، وأخلصوا له وأنفذوا أوامره ، فأما من اسلموا يوم الفتح ــ او بعده ــ وظلوا على كفرهم وعنادهم حتى رأوا النبي واصحابه ينتصر فلم يسعهم الا الاسلام فهؤلاء كان دين كثير منهم ركيكاً: « لايستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل اولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلاً وعد الله الحسنى » .

كذلك كان سكان المدن والقرى بل من دخل في الاسلام بعد من الامم الاخرى اكثر تديناً واعرف باحكام الاسلام من كثير من سكان البادية : « الاعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدر الا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » .

فكثير من هؤلاء الاعراب كانت معرفتهم بالاسلام سطحية : كانوا يعكفون على الشراب ويتبعون تقاليد قبائلهم الجاهلية ويعقدون ألويتهم ويحاربون القبائل المعادية لهم في الاسلام كما كانوا يفعلون قبل الاسلام ، فاما الاسلام الحق والعقلية المسلمة فكانت أظهر في المدن وخاصة فيمن أسلموا قبل الفتح ، وكانت كذلك فيمن أخلص للدين من أهل المدن التي فتحها المسلمون .

اذن كان في العصور الاولى للاسلام نزغات جاهلية ونزعات اسلامية كانتا تسيران

جنباً الى جنب ، والذي يظهر لنا ان النزغة الجاهلية اثرت في الادب الاموي وخاصة الشعر اكبر أثر ، فالمعاني الجاهلية والهجاء الجاهلي والفخر الجاهلي والحمية الجاهلية كلها واضحة أجلى وضوح في الشعر الاموي ، فأما النزعة الاسلامية فظهرت في العلوم الشرعية فقد أقبل المسلمون على القرآن يتدارسونه ، والحديث يجمعونه ويستمدون منهما الاحكام ، ويستخرجون المواعظ .

اراء بعض الباحثين
في
تعاليم الرسول

قال تولستوي : ومما لاريب فيه ان النبي محمداً من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا الهيأة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخراً انه هدى أمة برمتها الى نور الحق وجعلها تجنح للسكينة والسلام وتفضل عيشة الزهد ومنعها عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية وفتح لها طريق الرقي والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به الا شخص اوتي قوة ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والاكرام[1] .

* * *

وقال مسمر : واما نحن معاشر الفلاسفة المحققين فنقول : ان الرجال اولي العظمة الذين تبقى أعمالهم خالدة مدى الازمنة هم من اهل النباهة الفائقة يجيئون لاصلاح العالم ولشقاء عصرهم من مرضه وشفقتهم تؤديهم الى البحث عن ايجاد ما يحتاج اليه العالم ويرغب الحصول عليه بدون تصوره اياه .

وما فعله محمد هو انه لما رأى ضلال الناس في معرفة الخليقة عزم على ارشادهم وتطبيق قوانين الطبيعة على أمور العالم بقدر ما كان معروفاً في ذلك الوقت ولذلك اعلن بان الله واحد بدلاً عن الخرافات التي من مقتضاها تثليث اله وجعله مركباً من الاب والابن والروح القدس ونشأت عنها عداوات وحروب بين الامم .

ثم ان الوحدانية التي هي أساس دين الاسلام هي السبب في نصرة محمد ولعمري لقد أصاب بعض المؤلفين العظام في قوله : ان اعلان الوحدانية في وقت ملت فيه الامم من خرافات علم اللاهوت كان من أفضل الاشياء حتى انه بمجرد

(١) حكم النبي محمد ـ لتولستوي .

ما نطق بها (أي كلمة التوحيد) محمد أحرقت جميع معابد الاصنام وانارت بذلك ثلث الدنيا [1] .

* * *

وقال دفرجه : في القرآن اصول دينية وأخلاقية وفلسفية وقوانين سياسية وحربية وقانون مدني ينظم سير علاقات الناس بينهم في كل وجه من وجوه الحياة العظيمة[2] .

* * *

وقال الدكتور شبلي شميل : وهل ينكر التمدن فضل دين القرآن عليه يوم كانت الشعوب المعول عليها في ذلك العهد منغمسة في الترف لاهية به عن العلم فكان الاسلام محيي رفاته وناشر لوائه وحافظ كنوزه ولولاه لربما كان قد قضي على علوم اليونان وآدابهم وفلسفتهم ولا اقول انه هو الذي نقلها كلها وانما صانها من ايدي اولئك الذين لو بقوا وشأنهم لعبثوا بها ولم يدعوا شيئاً منها يصل الينا[3] .

* * *

وقال كوزن : يجب علينا احترام دين الاسلام والاستعانة به في كل ما تعود منفعته على العالم كما استعنا في تقدمنا بجميع القوى الطبيعية كالماء والهواء والبخار والكهربائية بدون ان ننظر الى ما فعله الاقدمون من احتقارهم اياها[4] .

* * *

وقال ديفونبورت في كتابه اعتذار الى محمد والاسلام : ان من الحماقة ان نظن ان الاسلام قام بحد السيف وحده لان هذا الدين يحرم سفك الدماء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وقد أمر بالشورى ونهى عن الاستبداد بقوله : « وشاورهم في الامر » «وامرهم شورى بينهم» ، ومنح الانسان حقوقه المدنية ، ولتتذكر اوربا انها

(١) دين الاسلام والعلم لرينان والرد عليه لمسمر .
(٢) العالم جزيرة العرب ــ لدفرجه .
M. Nœl - Desverges - L'Univers - L'Arabie.
(٣) مجموعة شبلي شميل .
(٤) دين الاسلام والعلم لرينان والرد عليه لمسمر .

مدينة للمسلمين أنفسهم بحفظ آداب العرب القديمة لما كانت هي في ظلام دامس فحفظوا آثار فلاسفة اليونان وأنشأوا علوم الطب وغيرها [1] .

* * *

وقال وليم ميور : ان القرآن الكريم ممتليء بأدلة من الكائنات المحسوسة والدلائل العقلية على وجود الله وانه هو الملك القدوس وانه سيجزي المرء بعمله ان خيراً فخير وان شراً فشر ، وان اتباع الفضائل واجتناب الرذائل فرض على العالمين وان الواجب على كل مكلف ان يعبد الله وهي علة سعادته وقس على هذا ما هو موضح بادلة مؤكدة بليغة ، ويمثل حقيقة البعث بأمثال كونية صادقة وتشبيهات مدهشة [2] .

* * *

ونظم شبلي شميل بحق الرسول ابياتاً نشرتها جريدة الاخبار المصرية سنة ١٩٠٩ م وهي :

اني وان انكرت دين محمد ... هل اكفرن بحكم الآيات
وبما حوت من ناصع الالفاظ من ... حكم روادع للهوى وعظات
وشرائع لو انهم عقلوا بها ... ما قيدوا العمران بالعادات
نعم المدبر والحكيم وانه ... رب الفصاحة مصطفى الكلمات
رجل الحجى رجل السياسة والعلى ... بطل حليف النصر في الغابات
ببلاغة القرآن قد جلب النهى ... وبسيفه انحى على الهامات [3]

* * *

وقال مسمر : ان دين الاسلام يأمر بالوفاق ويعترف بنبوة موسى وعيسى ويعظم قدر مريم وابقى للعرب مالم يخالف ما أمر به من أوامرهم ووعد الجنة كل من عمل باوامره الصحيحة ولم يعمل سوءاً وآمن بالله وحده .

---

(١) مشكاة العلوم والبراهين في ابطال أدلة الماديين لاحمد فوزي الساعاتي .
(٢) اعتقاد الاسلام لعبد الله وليم كوليام .
(٣) مشكاة العلوم والبراهين في ابطال أدلة الماديين لاحمد فوزي الساعاتي .

ومحاسن دين الاسلام تظهر فيما القاه محمد عند هدم الاصنام التي كانت حول الكعبة وها هو بمعناه : ــ قد جاء الحق وزهق الباطل لا تمييز بين الناس نظراً لقدم حسبهم ونسبهم فان الكل من آدم وآدم من التراب فالجميع اخوة [1] .

* * *

وقال دأود اورْكُوَهرْتْ : ان الاسلام لم يكن ديناً مبتدعاً ولا حيا مخترعا ليس به قسوسية ولا حكومة كنائسية بل سن شريعة للناس كافةً ونظاماً مدنياً يجب على كل مسلم الانقياد اليه[2] .

* * *

وقال رينان : ان دين الاسلام (نفسه) فيه احكام رفيعة وما دخلت في حياتي مسجداً من مساجد المسلمين الا وحصل لي انجذاب لدين الاسلام ، بل تأسفت على عدم كوني مسلما [3] .

* * *

وقال ادوار جيبون : ان دين محمد خالٍ من الشكوك والظنون ، والقرآن اكبر دليل على وحدانية الله بعد ان نهى النبي عن عبادة الاصنام والكواكب ، وهذا الدين اكبر من ان تدرك أسراره العويصة عقولنا الحالية [4] .

* * *

وقال بندلي جوزي : لو بحثنا عما تم على يد النبي الامي من الاصلاح لما استطعنا ان ننكر انه قام بأكثر وعوده وحقق قسماً كبيراً من أمانيه ولو قدر له ان يعيش اكثر مما عاش لكان الاصلاح الذي ادخله على حياة الامة العربية أتم وأوسع ومع ذلك فان ما عمله في هذه السنين القلائل التي قضاها في المدينة بين الحروب

(١) دين الاسلام والعلم لرينان والرد عليه لمسمر .
(٢) اعتقاد الاسلام لعبد الله وليم كوليام .
(٣) دين الاسلام والعلم لرينان والرد عليه لمسمر .
(٤) مشكاة العلوم والبراهين في ابطال أدلة الماديين لاحمد فوزي الساعاتي .

والمنافسات الشخصية والدسائس والحسد والمكر والنفاق والمنافقين لهو شيء عظيم لاينكره الا كل مكابر عنيد او متعصب أعمى [1] .

* * *

وقال جون ديفونبورت في كتاب تاريخ محمد : هل بالامكان انكار فضل رجل يعني محمداً قام باصلاحات عظيمة خالدة لبلاده بان جعل اهلها يعبدون الله ويهجرون عبادة الاصنام ذلك الذي منع قتل الموؤدة وحرم شرب الخمر ولعب الميسر [2] .

* * *

وقال مسمر : زعم رينان ان دين الاسلام قتل نفسه بقتله العلوم والحال ان دين الاسلام قد عمر اثني عشر قرناً ولا يمكن لاحد ان يقول انه مات كما لايمكن لاي فيلسوف او سياسي تحديد عمره [3] .

* * *

وقال هربرت : ان شريعة الاسلام هي وصايا ادبية مدهشة يجب على المكلف القيام بها [4] .

* * *

وقال سيديو : مما يدل على عمى بصائر هؤلاء وصمم آذانهم عن الحق زلل اقدامهم عن سبيل الصدق والرشاد مافي القرآن من الآيات الناسخة لما ألفته العرب من القبائح كالاخذ بالثأر والتظاهر بالعدوان وقتل البنات درءاً للعار او حذراً من الفقر [5] .

* * *

وقال غوستاف لوبون : ان الاسلام يطابق اكتشافات العلم وهو قابل لتحسين الاخلاق وعمل الخير والعدالة والحلم .

---

(١) من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ـ الجزء الاول ـ لبندلي جوزي .
(٢) مشكاة العلوم والبراهين في ابطال أدلة الماديين لاحمد فوزي الساعاتي .
(٣) دين الاسلام والعلم لرينان والرد عليه لمسمر .
(٤) اعتقاد الاسلام لعبد الله وليم كوليام .
(٥) خلاصة تاريخ العرب لسيديو .

وقال أيضاً : ان القرآن لم ينتشر الا بالاقناع لا بالقوة ، فاستطاع بذلك ان يجذب اليه الشعوب وتدين به ، تلك الشعوب التي تسلطت فيما بعد على العرب كالترك والمغول (١) .

قال كارل بروكلمان : اذا كانت الحماسة الدينية قد برزت في مكة على محمد الذي احسن في ذات نفسه انه رسول ونذير الى ابناء موطنه ، فقد انتهى في المدينة الى ان يصبح زعيم جماعة سياسية ورجل دولة موهوباً لا ينثني عن هدفه النهائي وهو السيطرة على بلاد العرب (٢) .

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون .
G. Le Bon - La civilisation des Arabes.
(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان .

مصادر الباب الثاني

القرآن الكريم

الجامع الصحيح ـ للبخاري ـ طبعة ليدن

« « « مصر

« « لمسلم

الجامع الكبير ـ لابي عيسى الترمذي ـ مخطوط

تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول ـ لعبد الرحمن بن علي المعروف بابن الديبع الشيباني الزبيدي

سيرة ابن هشام ـ الجزء الاول

كتاب البدء والتاريخ ـ الجزء الرابع ـ المنسوب لمطهر بن طاهر المقدسي

المختصر في اخبار البشر ـ الجزء الاول ـ لابي الفداء

السيرة الحلبية ـ الجزء الثالث ـ لبرهان الدين الحلبي

نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ـ لمحمد الخضري

تاريخ الامم الاسلامية ـ الجزء الاول ـ لمحمد الخضري

حكم النبي محمد ـ لتولستوي

رسالة التوحيد ـ لمحمد عبده

اعتقاد الاسلام ـ لعبد الله وليم كوليام

تاريخ التشريع الاسلامي ـ لمحمد الخضري

دائرة معارف القرن العشرين ـ مادة بعث ، سلم ، قرأ ـ لمحمد فريد وجدي

دائرة المعارف ـ مادة بيزنطية ـ للبستاني

فجر الاسلام ـ لاحمد امين

محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل ـ لمحمد احمد جاد المولى

تاريخ الشعوب الاسلامية لبروكلمان

تاريخ التمدن الاسلامي ــ الجزء الاول والثالث ــ لجرجي زيدان
خلاصة تاريخ العرب ــ لسيديو
مبادي الفلسفة ــ لرابوبرت
تاريخ الفكر العربي ــ لاسماعيل مظهر
مجموعة شبلي شميل
الرق في الاسلام ــ لاحمد شفيق
مشكاة العلوم والبراهين في ابطال أدلة الماديين ــ لاحمد فوزي الساعاتي
الاسلام خواطر وسوانح ــ لهنري دي كستري
المرأة الجديدة ــ لقاسم امين
مركز المرأة في الاسلام ــ لامير علي الهندي
المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ــ لعبد الله عفيفي
دين الاسلام والعلم ــ لرينان ــ والرد عليه ــ لمسمر
الاسلام والرد على منتقديه ــ لمحمد عبده
من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام ــ الجزء الاول ــ لبندلي جوزي
افريقية الغربية البريطانية ــ لعمر رضا كحالة

معلمة الاسلام ــ مادة عبد Encyclopédie de l'lslam - Abd .
الاوضاع الاسلامية ــ لغود فرويه ديمومبين
Gudefroy - Demombynes - Les institutions musulmanes .
لاروس القرن العشرين ــ مادة بيزنطية
Larousse du XX siècle - Art . Byzantin.
حضارة العرب ــ لغوستاف لوبون
G. Le Bon - La civilisation des Arabes .
تاريخ اضمحلال وسقوط امبراطورية الرومان الشرقية ــ الجزء الثالث ــ لادوارجبن
Edward Gibbon - The history of the decline and fall of the Roman empire - Vol I I I
شخصية النبي محمد ــ ليوسف علي
The personality of Muhammad the prophet by Yusuf Ali .

القرآن ترجمة جديدة ــ لادوار مونته

Le Coran - Traduction nouvelle par Edouard Montet .

الاسلام خواطر وسوانج لهنري دي كستري

H. de Castrie - L'Islam - Impressions & études.

العالم الاسلامي والبيزنطي حتى الحروب الصليبية ــ لغودفرويه ديمومبين وبلاتونوف

Gudefroy - Demombynes & Platonov - Le monde Musulman & Byz - antin jusqu' Aux croisades .

الاسلام والاجناس ــ الجزء الاول ــ لاندره

P. J. André - L'Islam & les races - Vol. I

العالم ــ جزيرة العرب لدفرجه

M. Nœl. Desverger - L'Univers - Arabie .

H. Massé - L'Islam. الاسلام ــ لهنري ماسه

تقريظ الديانة الاسلامية للورافشيا واليري

Laura - Vessia Vaglieri - Apologie de l'Islamisme.

فهرس الموضوعات

الصفحة	
٣	المقدمة
٥	الباب الاول : العرب قبل الاسلام
٧ — ١٢	الفصل الاول : طبيعة شبه جزيرة العرب
	الفصل الثاني : العرب
١٣ — ١٤	اصلهم
١٤ — ١٧	انسابهم
١٧ — ٠٠	امتزاجهم بالامم
١٧ — ١٩	بدوهم
١٩ — ٢٤	حضرهم
	الفصل الثالث : تاريخ العرب قبل الاسلام
٢٥ — ٢٧	مصادر هذا التاريخ
	تاريخ العرب قبل الاسلام والمؤرخون العرب :
٢٨ — ٢٩	العرب البائدة
٣٠ — ٣١	العرب المتعربة او عرب الجنوب
٣١ — ٣٢	ملوك التبابعة وحمير
٣٢ — ٣٣	استيلاء الحبشة على اليمن
٣٣ — ٣٤	غزو الحبشة الكعبة
٣٤ — ٣٥	استيلاء الفرس على اليمن
	عرب الشمال :
٣٦ — ٣٨	امارة الحيرة

الصفحة

٣٨ — ٤٠ امارة الغساسنة

٤٠ — ٤١ امارة كندة

٤١ — ٠٠ ملوك متفرقة

تاريخ العرب قبل الاسلام والمعاصرون :

٤٢ — ٤٣ العمالقة في العراق

٤٣ — ٤٥ العمالقة في مصر

العرب في جنوبي الحيرة :

٤٧ — ٤٩ الدولة المعينية

٤٩ — ٥٠ دولة سبأ

٥٠ — ٥١ دولة حمير

العرب في شمالي الجزيرة :

٥٣ — ٥٥ امارة الحيرة

٥٥ — ٥٨ امارة الغساسنة

٥٨ — ٦١ نجد والحجاز

٦٢ — ٦٣ غزو الفاتحين بلاد العرب

الفصل الرابع : تمدن العرب

٦٤ — ٦٦ قبل الاسلام

تمدن العرب في جنوبي الجزيرة :

٦٧ — ٦٨ الدولة والامة

٦٨ — ٦٩ الزراعة

٦٩ — ٧١ عمارة اليمن

٧١ — ٧٢ التجارة

٧٢ — ٧٤ اديانهم

٧٤ — ٧٥ لغتهم

تمدن العرب في شمالي الجزيرة :

الصفحة

٧٦ — ٧٨ لغتهم
٧٨ — ٧٩ امثالهم
٧٩ — ٨٠ شعرهم
٨٠ — ٨١ خطبهم
٨١ — ٨٦ اديانهم
٨٦ — ٨٧ علمهم بالانساب
٨٧ — ٠٠ علمهم بالاخبار
٨٧ — ٨٨ علمهم بالكهانة والعرافة
٨٨ — ٠٠ علمهم بالنجوم وكائنات الجو
٨٨ — ٨٩ علمهم بالطب
٨٩ — ٩٠ علمهم بالخيل والرمي بالسهام
٩٠ — ٩٢ عاداتهم
٩٣ — ٩٤ مصادر الباب الاول
٩٦ — ٠٠ البعثة المحمدية

الفصل الاول : حال العالم قبل البعثة

٩٧ — ٩٨ الامبراطورية الرومانية الشرقية
٩٨ — ٩٩ الانقسامات الدينية
٩٩ — ١٠٠ العداء بين الروم واليهود
١٠٠ — ١٠٢ الفرس
١٠٢ — ١٠٧ حال الفلسفة والعلم
١٠٧ — ١١١ وصف بعض الباحثين العالم
١١١ — ١١٥ حال بلاد العرب

الفصل الثاني : محمد بن عبد الله :

١١٦ — ٠٠٠ نسبه
١١٦ — ٠٠٠ زواج عبد الله بآمنة وحملها بالرسول

الصفحة

١١٧ — ... مولده

١١٧ — ... رضاعه

١١٧ — ١١٨ الرسول في حضانة امه وجده وعمه

١١٨ — ١١٩ الرسول في شبابه

١١٩ — ... معيشة الرسول وسيرته الادبية قبل البعثة وبعدها

١٢٠ — ... كمال منطقه

١٢٠ — ... كمال عقله

١٢٠ — ١٢١ نجدته وشجاعته

١٢١ — ... رغبته عن الدنيا وخشيته من ربه

١٢١ — ١٢٢ احترامه نفسه

١٢٢ — ... جوده وسخاؤه

١٢٢ — ١٢٣ حسن معاشرته

اغضاؤه عما لا يحبه وعفوه عنه

١٢٣ — ... المقدرة

١٢٤ — ... حسن سياسته

١٢٤ — ١٢٥ طريقته المثلى في الهداية

١٢٥ — ١٢٧ ثباته على مبدئه

بعض غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم :

١٢٨ — ١٢٩ غزوة بدر

١٢٩ — ... غزوة بني فينقاع

١٢٩ — ١٣٠ غزوة احد

١٣٠ — ١٣١ غزوة الخندق

١٣١ — ١٣٢ فتح مكة

١٣٢ — ... غزوة حنين

١٣٣ — ... نشر الاسلام خارج بلاد العرب

الصفحة

١٣٣ — ٠٠٠ غزوة تبول

١٣٣ — ١٣٤ وفاة الرسول

١٣٥ — ١٤٠ رأي بعض الباحثين في الرسول

الفصل الثالث : نموذج من تعاليم محمد بن عبد الله :

١٤١ — ١٤٢ تعاليمه في العقائد

١٤٢ — ١٤٥ تعاليمه في العبادات

١٤٥ — ١٥١ تعاليمه في الاخلاق

١٥١ — ١٧٣ تعاليمه في الاجتماع والعمران

١٧٣ — ١٨١ تعاليمه في السياسة والقضاء

١٨١ — ١٩١ تعاليمه في الاقتصاد

١٩١ — ١٩٦ اثر تعاليمه في العرب

١٩٨ — ٢٠٣ آراء بعض الباحثين في تعاليم الرسول

٢٠٤ — ٢٠٦ مصادر الباب الثاني

DS
38
.K33
1958
v.1

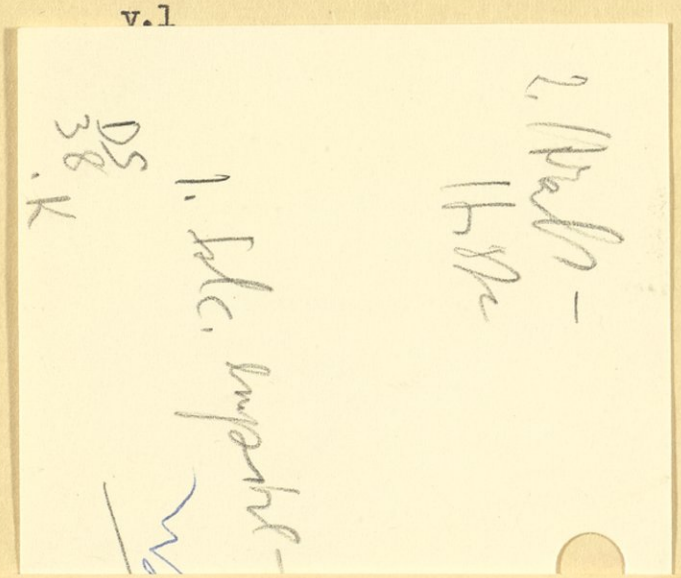

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU17706459